صَحِيحُ الأثَرِ وجَميلُ العِبَرِ

مِنْ سِيرَةِ

خَيْرِ البَشَر صلى الله عليه وسلم

برنامج الدبلوم المستوى الرابع

صَحِيحُ الأثَرِ وجَميلُ العِبَرِ
مِن سِيرَة خَيْرِ البَشَرِ ﷺ

برنامج الدبلوم

المستوى الرابع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الإله المَلِكِ الحقِّ المُبين، والصلاةُ والسلام على إمام المتقين وقُدوةِ النَّاسِ أجمعين، رسولِ الله محمَّدِ ابن عبد الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فهذا كِتَابٌ في السِّيرَةِ النَّبَوِيَّة وبَيَانِ أهَمِّيَّتِها لِحَيَاةِ المسلمين، وحَاجَتِهم، بل وضَرُورَتِهم إلى مَعْرِفَتِها والاهْتِدَاءِ بهَدْي صَاحِبِها ﷺ، والاقْتِدَاء به وسُلُوك طريقتهِ لبنَاء الجيل الذي يُؤمَّل منه إجَادَةُ صِنَاعةِ الحياةِ الصحيحةِ، والعَوْدَة بالأُمَّةِ إلى سَابِق عَهْدِها وسَلَفِها الصَّالِح، والخُروج مِن المَأْزَق الذي تعيشه.

فما أحوجَ أُمَّةَ الإسْلَام اليوم إلى بِنَاءِ النُّخْبَة وثُلَّةِ النَّصرِ التي تَفْهَم الرِّسَالة، وتُدافِع أقدارَ الله بأقدارِ الله، وتؤسِّس للنَّهْضَة الحَضَارِيَّة بمفهومها الشُّمُولي الصَّحِيح، كما صَنَع أسْلَافُها مِن أصْحَابِ نَبِيِّنا ﷺ!

إن البِناءَ العَقَديَّ الإيمانيَّ المؤسَّس على الحَقَائِقِ والبَرَاهِين؛ هو القَاعِدَة التي عَمِل النَّبيُّ ﷺ على تَرْسِيخِها طِيلة مُدَّة الرِّسَالة، وكان الوَحْي يتنزَّل عليه مَرَّةً تِلْوَ الأخرى مؤكِّدًا على هذه الحقيقة؛ لأن العَقِيدةَ هي نبْعُ التَّربية، ومِيزَانُ السُّلُوك، وحَجَرُ الزاوية في الفِكْر والتَّوجُّه.

وعلى أسَاس البِنَاء العَقَدي، كان البِنَاءُ السُّلُوكيُّ الأَخْلَاقيُّ، والاجْتِمَاعيُّ،

والاقْتِصَاديُّ، والإِدَاريُّ، بل والسِّياسِيُّ؛ تَسِير جَنْبًا إلى جَنْبٍ، مُتَكَامِلةٍ ومُتَوَازِيةٍ في نسَقٍ واحدٍ، جَمعًا لشَتَات النَّفْس، وتَوجِيه الهمِّ ليكون همًّا وَاحِدًا، وبذلك نَمَتِ الأُمَّةُ وتكَامَلَتْ شَخْصِيَّتُها واشْتَدَّ عُودُها، وأَثْمَرتْ عِلْمًا وأَدَبًا وحَضَارَة بَاسِقةَ البِنَاء وارِفةَ الظِّلَال، بَسَطَتْ أَشِعَتَها ونورَ هَدْيها على البشرية؛ فأخرجتها من ظُلُماتِ الجهل والظُّلم والاستكبارِ إلى نورِ الحقِّ والرحمة والعدل، في أَصْدَق معانيها وأَجْلَى صورِها.

وإنَّ دراسةَ السيرةِ بهذه المعاني العميقة والنصوص الواضحة، ستضفي على دارِسِها الأمنَ والطمأنينةَ وسعادةَ الحياة، والرغبةَ المستمرة في الدِّرَاسَة والتَّأَمُّل في دلائِلِها وفوائِدِها؛ مما يَدْفَع للاقتداءِ والتأسي.

ومادةُ السيرةِ النَّبويَّة مادة تربوية سلوكية قَبْل أن تكون مادةً معرفية.

وقد تم تأليف هذا الكتاب؛ ليكون مقررًا في المادة يحقق أهدافَ تقريرِها، ويشملَ مُفْرَدَاتِها، وقد جَرَى تَقْسِيم الكتاب إلى: تمهيدٍ، وخمسة فصول.

عُنِيَ التمهيدُ ببيان أَهْدَافِ دِرَاسةِ السِّيرَة النَّبوية، ومصادرِها وأقسامِها، وجملة مِن فوائدَ دراستها ذات الارتباط بمقاصدِ الشريعة وأحوال المتعبدين؛ عَسَى أن تكون مُسَاعِدةً في البِنَاء التربوي للأمَّة، وإخراجِ الجِيلِ الحَاضِر من مُشْكلاتِه وتوجهاتِه المُتَشَعِّبَة، والعودة به إلى المصدرِ الحقِّ والمنبَعِ الصافي (الكِتَاب والسُّنَّة)، وسيجد فيهما الهُدَى والشِّفَاء لكلِّ العِلَلِ والأمراضِ التي أصابته إذا أَخْلَص النِّيةَ ووَحَّد المقصِدَ، وارتفع عن الشهواتِ الهابطةِ، وتحرَّر من الأفكارِ الوافدةِ، واهتم بمعالي الأمور، وما السيرة النَّبوية إلا تطبيقٌ عمَلي للوحي المنزَّل على رسول الله ﷺ.

كما تم الحديث في التمهيد -بإيجاز- عن: جُغرافيةِ جزيرةِ العَرَب وأقسامِها وأحوالِها قُبَيل البَعْثَةِ النَّبويَّةِ، وعن حُرْمَةِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وما أَحاطَها الله به من القَدَاسَة، وعن أُصول العَرَبِ وقبائِلِهم وأحوالِهم السياسية والدينية والاجتماعية.

أما الفصول الخمسة: فقد تتبعت السياق التاريخي لأحداث السيرة النَّبوية فيما قَبْل البَعْثَة، ثم العهدين: المكي والمدني بعد النُّبوة والرسالة بإجمالٍ في الأحداث، واهتمام بالدروس والعِبَر.

فكان الفصل الأول: عن الرسول ﷺ من مولده إلى بعثته، حيث خُتم الفصل ببيان بعض إرْهاصات النُّبوة وبشائر الخير التي وقعتْ قبل نزول الوحي عليه.

أما الفصل الثاني: فخُصِّص للحديث عن العهد المكي: مِن البَعْثة والرسالة إلى الهجرة للمدينة النَّبوية.

والفصل الثالث: كان الحديث فيه عن الهجرة النَّبوية إلى المدينة، وترتيب أوضاع المدينة، وبناءِ المؤسسات، وتنظيم أحوال المجتمع.

وخُصص الفصل الرابع: للحديث عن الدفاع النبوي المتمثِّل في المواجهة مع المشركين من خلال السَّرايا وعَقْد المعَاهَدَات والغَزَوَات وما تخلَّلها من مواقف.

وكان الفصل الخامس: عن انتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجًا بفَتح مَكَّةَ، وتتابع الوفود مِن قَبَائِلِ العَرَب على رسول الله ﷺ في المدينة؛ وخاصة في العام التاسع وما تبع ذلك مِن أحداث ثم حَجَّة الوَدَاع ووفاة النَّبيِّ ﷺ، وخُتِم الفَصْل بصفاتِ النَّبيِّ ﷺ وأخلاقِه وشمائِلِه، وبتعريفٍ موجزٍ بزوجاتِه أمهاتِ المؤمنين الطاهرات، وحكمةِ تَعَدُّدِهِنَّ.

ولقد حرصنا في هذا الكتاب على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النَّبوية الصحيحة، والروايات المُعْتَمَدَة في أحداث السيرة النَّبوية؛ لأنَّ البناء العلمي والتربوي لا بد أن يكون مؤسَّسًا على نصوصٍ صحيحةٍ، ومصادرَ موثوقةٍ حتى يصح التأسي والاقْتِدَاء.

ونسأل الله ﷻ أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله من العمل الخالص لوجهه إنه سميع مجيب.

المؤلفون

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ...» الحديث[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ زَمَانٌ، لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَهْلِهِ وَمَالِهِ»[2].

(١) رواه مسلم (٢٤٩).
(٢) رواه البخاري (٣٥٨٩).

التمهيد

تعريف السيرة النَّبوية

السِّيرَةُ لغةً:

السِّـيرَةُ: الطريقـة. يُقـال: سَـار بهـم سِـيرَة حَسَـنة. والسَّـيرَةُ: الهَيْئَـة، وفـي التنزيـل العزيـز: ﴿سَـنُعِيدُهَا سِـيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طـه: ٢١]. وسَـيَّر سِـيرَة: حـدَّث أحاديـثَ الأوائـل[1].

السِّيرَةُ اصْطِلَاحًا:

السِّـيرَة فـي الاصطـلاح: لهـا دَلالات متنوعـة؛ فقـد تكـون مرادفـةً لمعنـى السُّـنَّة عنـد علمـاء الحديـث، وهـو مـا أُضيـف إلـى النَّبـيِّ ﷺ مِـن قـولٍ أو فعـلٍ أو تقريـرٍ أو صفـةٍ.

كمـا تَعْنـي السُّـنَّة: طريقـة النَّبـيِّ ﷺ وهَدْيه عنـد عُلَمـاء العَقِيـدة وأصول الدِّيـن، وهـو مِـن معانـي السـيرة. أمـا علمـاء التاريـخ؛ فالسِّـيرَة عندهـم هـي: أخبـاره ومغازيـه ﷺ.

وهـذه الـدلالات والمعانـي ليسـتْ مُتَضَـادَّة؛ إنَّمـا هـي متنوعـةٌ ومتكاملـةٌ، وبهـذا نسـتطيع أن نقـول فـي تعريـف السِّـيرَة النَّبويـة اصطلاحًـا: هـي دِرَاسـةُ حَيَـاةِ النَّبـيِّ ﷺ وأخبـار أصحابـه علـى الجُمْلـة، وبيـانُ أخلاقِـه وصفاتِـه وخصائصِـه، ودلائـل نبوتِـه، وأحـوال عصـرِه.

(١) لسان العرب، مادة سَيَّر (٤/ ٣٩٠).

فالسِّـيرَة النَّبويـة: تشـمل كل مـا يتعلَّـق بالنَّبـيِّ ﷺ، وأحـوال عصـره، وأخبـار أصحابـه؛ لأنَّ السـيرة هـي: فِعْلُـه ﷺ وإقْـرَارُه لفعل أصحابـه رضي الله عنهم[1].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ١٨).

أهْدَافُ ومَقَاصِد دِرَاسة السِّيرة النَّبويَّة

إنَّ دراسةَ السِّيرَة النَّبوية ليستْ كدراسةِ سِيرة بَطَلٍ مِن الأبطال فحسْب؛ وإن كان هو ﷺ بطلَ الأبطال، فلا تُقْرأ وتُتَعَلَّم لأجل المعرفةِ وإشباع رغبة حبِّ الاستطلاع، وزيادة الرصيد المعرفي فقط! وإنَّما تُدْرَس لأهداف ومقاصد عظيمة، نشير إلى بعضها:

١- معرفة مقاصد الشريعة وأحوال المتعبدين:

وذلك للبحث فيها عن الهُدَى والصراط المستقيم، ومرضاة رب العالمين؛ لأنَّ السيرة مصدرٌ مِن مصادِر التَّشْريع ومنهجٌ لحياة كلِّ مسلم ومسلمة، ولابد أن يُدرِكَ القارئُ للسيرة النَّبوية أهميتها: التربوية، والتشريعية، والاجتماعية، والإدارية، والسياسية؛ لأنها تطبيق عملي لنصوص الوحي في كافة مناحي الحياة الإنسانية.

٢- تحصيل الدروس والعِبَر:

إن السيرة العَطِرَة مليئةٌ بالدروس والعِبَر التي لا يدركها إلا مَن تَعَلَّمَها بقصْد الاتِّباع لصاحبِها ﷺ، والتربيةِ على مقاصدها وعِبَرها؛ فهي مادة تربوية سلوكية تبني الشخصية السوية المتكاملة، وتقوِّم السلوك المُعْوَج.

ولذا؛ فإنه يجب على العلماء والمُرَبِّين الاعتناءُ بدراسةِ السِّيرَة النَّبوية، والحرصُ على ما صَحَّ مِن أخْبَارِها؛ حتى يحصل التأسي والمتابعةُ على الوجه الصحيح.

وإن المناهج التربوية والدعوات الإصلاحية يجب أن تَقْتَبِس من هَدْي المصطفى ﷺ، وتَلْتَزِم به؛ اعتقادًا وسُلُوكًا ومَنْهَج تفكير، وتأخذ مِن التجارب الناجحة ما لا يتعارض مع الأدلة الشرعية.

٣- الاطِّلَاع على مَآثِر جِيل الصَّحَابة، وكيف تَحَقَّقَتْ لهم السِّيَادَة والرِّيَادَة:

السيرة النَّبوية مَعِينٌ لا ينْضَب وتُرَاثٌ لا يَبْلَى لكلِّ مَن رَجَع إليها، وتَأَدَّب بأدبِها، واقْتَبَس من مِشْكَاتِها، وقد فَقِه الصحابةُ ﷺ هذه المعاني في السيرة، وأدركوا أهميتَها، فكانت -مع القرآن الكريم- هي منهجَ التربيةِ للأجيال، ومادةَ البناء الفكري والسلوكي، ومحطَّ الاهتمام والعناية.

قال عليُّ بن الحسين زينُ العابدين[١]: «كُنَّا نُعَلِّمُ مَغَازِي رَسُولِ الله ﷺ وَسَرَايَاهُ، كَمَا نُعَلِّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآن»[٢]، وكان إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص يُحَفِّظ أبناءَه مَغَازِي رسول الله ﷺ وَيَعُدُّها عليهم، ويقول: «هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ، فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا»[٣].

وبهذا المنهج العَالي كان جِيلُ الصَّحَابةُ ﷺ، ثم التابعون، أَرْقَى أجْيَالِ الأمة وأَقْوَاها عِلْمًا وعَمَلًا وأَثَرًا في واقِع الحياة، وبناءِ الحضارة؛ فكانوا قادةً وسادة، معتزين بمنهجهم، مؤَثِّرين في غيرهم غير مُتَأَثِّرين؛ فقد حَقَّقتِ السِّيرَةُ النَّبوية للجيل الأُول السِّيَادَةَ والرِّيَادَة

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان مع والده الحسين ﷺ يوم قُتِل بكربلاء، شابًا، مريضًا؛ ولذلك لم يقتل. له ترجمة حافلة في الطبقات الكبرى (٥/ ٢١١)، وقال: «كان ثِقَة مأمونًا، كثيرَ الحديث، عاليًا رفيعًا وَرِعًا، مات بالمدينة سنة ٩٤ هـ ودفن بالبقيع».

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٤٢).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٢/ ١٩٥).

في كلِّ الميادين الخيِّرة النَّافِعَة، ونشروا العدل والأمن والإسلام في كلِّ بَلَد وَصَلُوا إليه، وانتشر فيه نورُ الحق.

وقد تَحَقَّقتِ السَّيادةُ والريادة للجيل الأول عندما صَدَقَ في التأسي والمتابعةِ للرسول ﷺ، فَتَمَكَّن من التطبيق الواقعي لنصوص القرآن والسُّنَّة، ولا بد لاسْتِئْنَاف الحياة الإسلامية الصحيحة مِن تَمَثُّل السِّيرة النَّبوية في الواقِع المُعَاش على مُخْتَلَف المستويات، وفي كل المواقِع والنَّواحِي، وأن تكون دراستُنا للسيرة النَّبوية بهذه المعاني العميقة، والنظرة الشاملة، والفقه الواعي، حتى نَصْنَعَ جِيلَ النَّهْضَةِ، وثُلَّة النَّصْر، وقَاعِدَة التَّمْكِين للأمة.

٤- تحصيل القدوة والتأسي بالنَّبيِّ ﷺ:

جعل الله في سيرته وتصرفاته ﷺ تنوعًا وشمولًا لكلِّ جَانِبٍ مِن جَوانِب الحياة ومواقفها المتغيرة؛ لتكون مساحةُ الاقْتِدَاء والتأسي وَاسِعَةً وشَامِلَة لكافَّة القُدُرَات البَشَرِيَّة بفُرُوقِها الفَرْدِيَّة وسَجَايَاها الفِطْرِيَّة.

فالرسول ﷺ قُدْوَةٌ لكلِّ المسلمين على مُخْتَلَف عُصُورِهم، وتَعَدُّد مواقِعِهم الجُغْرَافِيَّة، وأحْوَالِهم العِلْمِية، ومَرَاكِزِهم الإدارية، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢١- ٢٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية أصلٌ كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمِر الناس بالتأسي بالنَّبيِّ ﷺ يوم الأحزاب،

في صَبْرِه ومُصَابَرَتِه ومُرَابَطَتِه ومُجَاهَدَتِه وانْتِظَارِه الفَرَج مِن الله عز وجل، قال تعالى -للذين تَقَلْقلوا وتَضَجَّروا وتَزَلْزَلُوا واضْطَرَبوا- في أَمْرِهِم يوم الأَحْزَاب-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هَلَّا اقْتَدَيْتُم به وتَأَسَّيْتُمْ بشَمَائِلِه؟

ثم قال عز وجل -مُخْبِرًا عن عِبَادِه المؤمنين المُصَدِّقِين بمَوْعُود الله لهم، وجَعْلِه العَاقِبَةَ حَاصِلَةَ لهم في الدنيا والآخرة-: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، أي: هذا ما وَعَدَنا الله ورسوله مِن الابْتِلَاءِ والاخْتِبَارِ والامْتِحَانِ الذي يَعْقُبُه النَّصْرُ القَرِيب، والمُراد كما قال ابن عباس ﷺ، وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]»[1].

فالآيةُ الآمرة بالتأسي بالرسول ﷺ نَزَلَتْ بمناسَبَة غَزْوة الأحزاب حين رَمَى أهلُ الشرك المسلمين عن قوسٍ واحدةٍ، وتحزَّبوا عليهم، حيث زُلزِلَت النُّفُوس وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، وكاد أن يهتز الاقتداءُ لتأخر النصر؛ فجاءت لتؤكِّد أن الاقْتِدَاء يكون في مَوَاطِن الشِّدَّة والصَّبْر، والبَأْس والضِّيق، ومُؤشِّرات فوت الحياة الدنيا، كما يكون -أي: الاقتداء- في اليسر.

وتُبيِّن: أن الارتباط بالآخرة هو سبيل الصُّمُود والحِمَايَة مِن السُّقُوط؛ فالاقتداء يكون في اليُسْر والعُسْر، وفي كل الأحوال.

وإن قيمة الاقتداء وفائدته وعطاءَه، وعظيمَ ثوابِه؛ إنما يكون في

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٩١-٣٩٢).

العَزَائِم والقضايا الكبيرة التي قد يُمْتَحن صَاحبُها في صِدْق إيمانه وقوةِ يقينِه، فتفوتُه بعضُ النتائج في الدنيا ويَخْسَر المعركة، لكنَّ الاقتداء يحميه ويحُوْل بينه وبين السقوط، ويرتفع به من الوقوف عند النتائج القريبة إلى إبْصَار العَواقِب والمآلات؛ ذلك أن نقطة الارتكاز في الاقْتِدَاء هي رجاء اليوم الآخِر، واستمرار ذكرِ الله الذي يُجَلِّي هذه الحقيقة، ويُؤكِّد حُضُورَها واستمرارَها[1].

٥- التَّكَامُل والشُّمُول في فَهْمِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّة واحْتِرَام نُصُوصِها الصحيحة الثابتة:

لقد يَسَّر الله لهذه السِّيرَة مَن يَقومُ على حفْظِها والعِنَاية بأدق تفاصيلها حتى كأنك تَنْظُر إلى صَاحِبها ﷺ وأحوالِه رَأيَ العينِ، والتاريخُ شَاهِدٌ على أنه لا توجد سيرة في الدنيا مثل سيرته ﷺ مِن الوضوحِ والكمالِ والصِّدْق.

قال الأستاذ سليمان الندْوي: «إن حياةَ العظيمِ الذي يَجْدُر بالنَّاسِ أن يَتَّخِذوا منها قُدْوَة لهم في الحياة؛ ينبغي أن تَتوَافَر فيها أَرْبَعُ خصالٍ:

(١) أن تكون تاريخية؛ أي: أن التاريخ الصحيح المُمَحِّص يُصَدِّقُها ويَشْهَد لها.

(٢) أن تكون جامعة؛ أي: محيطة بأطوارِ الحياة ومناحِيها، وجميع شؤونها.

(٣) أن تكون كاملة؛ أي: متسلسلة لا يَنْقُص فيها شيء مِن حَلَقَات الحياة لذلك العظيم.

(٤) أن تكون عملية؛ أي: أن الدعوة إلى الفضائل والمبادئ والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه؛ لا بمجرد قوله، وأن يكونَ كلُّ ما دعا إليه بلسانه قد حققه بسيرته، وعَمِل به في حَياتِهِ الشخصيةِ والعائليةِ

(١) مقدمة السيرة النَّبوية قراءه لجوانب الحذر والحماية، لعمر عبيد حسنة (ص ٣١).

والاجتماعيةِ، وبهذا تكون أعمالُه مُثُلًا عُليا للنَّاسِ يَتَأَسَّوْن بها»[1].

٦- اتخاذُ السِّيرَة النَّبوية مَنْهَجًا مِعْيَاريًّا:

إن السِّيرَة النَّبويَّةَ ليستْ مُجَرَّدَ حَوَادِثَ تَاريخيةٍ تُؤْخَذ منها العِبَر والعِظَات فحسب، وإنما هي فَوْقَ هذا كلِّه، تجسيدٌ عَمَلي للوحي الذي يُقتدَى به، وهي منهجٌ واضِح يُهتدَى بِهُدَاه، وصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ يُسْلَك ويُتَّبَع؛ لأنها مَنْهَجٌ مِعياريٌّ غيرُ خَاضِع لحدود الزمان والمكان، وإنما تُقَاس إليه الأعمال والمواقف، وتُعَاير عليه الاجتهادات والآراء، وتُوزَن بميزانِهِ الحق.

قال الدكتور فاروق حمادة: «السيرة النَّبوية تجسيدٌ حيٌّ لتعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تُطبَّق في عَالِم الوَاقِع؛ فتعاليم الإسلام لم تنزل لتُحصَر بين جُدْرَان المَسَاجِدِ ودَاخِل أَرْوِقَةِ بُيُوت العِلْم الشَّرْعِي وكُلِّيَّاتِه، بل تَنَزَّلَتِ مِن الحَكِيم العَلِيم؛ لتكون سُلُوكًا إنسَانيًّا ومَنْهَجًا حَيَاتيًّا يعيشها الفردُ المسلمُ في نَفْسِه وشَخْصِه، ويُدركُها في واقِعِه ومُجْتَمَعِه، وَيَشِبُّ عليها؛ فتصبحَ جزءًا لا يتجزأ مِن كِيانِه، ويَتَصَرَّف على هَدْيِها في كلِّ صَغِيرة وكَبِيرة، وفي كلِّ مَوْقِفٍ وشَأْنٍ.

فالمبدأ النظري يُرَى مَاثِلًا قائمًا في شخصِ صاحبه، وهذا ما نجده في السيرة النَّبوية، حيث كان رسولُ ﷺ يُجسِّد تعاليم الإسلام كما أرادَها الله تعالى أن تُطبَّق في عَالَم الأحياء والبشر، وذلك في جميع أحواله وظروفه؛ نومًا ويقظة، سِلْمًا وحَرْبًا، جِدًّا ومداعبة، غَضَبًا ورضًا، فردًا وجماعة[2].

(١) الرسالة المحمدية لسليمان الندوي (ص ٦٨).
(٢) مصادر السيرة النَّبوية وتقويمها (ص ٢٠).

وتظهر شخصيةُ النَّبيِّ ﷺ من خلال السيرة النَّبوية في الصورة المُشْرِقَة للإنسان الذي يُمارِس إنسانيتَه بكل أَبْعَادِها، ويتفاعَل مع الواقِع بكل معطياته.

وندرك أن محمدًا ﷺ الإنسانَ -بكل نَوازِع الإنسان- قد تربَّع قِمَّة التَّسَامي الإنساني وهو المَثَل الأعلى الحقُّ للبشرية جميعًا.

كما يدرك الدارسُ للسيرة النَّبوية: التَّلازُم والتطابُق الذي لا يَنْفَصِمُ بين القول والعمل، والمبدأ والسُّلُوك في شخصيته ﷺ؛ فلا يأمر النَّاسَ بالبرِّ ويَنْسَى نَفْسَه، بل هو أول ملتزمٌ ومُطبِّق للأمر، ولو كان وحده.

ولقد اهتدَى بهذه السيرة الكريمة العَطِرة، واستدل بها على صدق نبوته ورسالته عددٌ غير قليل في حياته وبعد وفاته ﷺ مِن العُظَمَاء والكُبَرَاء، وآحَاد النَّاسِ وعامتهم، ومنهم: الجُلَنْدِي مَلِك عُمَان[1]؛ فقد قال لعمرو بنِ العاص رضي الله عنه عندما جاءه برسالةٍ مِن النَّبيِّ ﷺ: «والله لَقَدْ دَلَّنِي على صِدْق هذا النَّبيِّ الأُمِّي: أنه لا يَأْمُرُ بخَيرٍ إلا كان أولَ آخِذٍ به، ولا يَنْهَى عن شيءٍ إلا كان أول تَارِكٍ له، وأنه يَغلِبُ فلا يَبْطَر، ويُغْلَبُ فلا يُهْجِرُ - أي: لا يقولُ القبيحَ من الكلام-، ويَفِي بالعَهْد، ويُنْجِزُ الوَعْدَ، وأَشْهَدُ أنه نبيٌّ»[2].

فهذه القمة الرفيعة من الإنسانية في شخص محمدٍ ﷺ، والتي كانت تُدْرج على الأرض، وتسير في فِجَاجِها، عندما تُقَدَّم للإنسان على اختلاف زمانه ومكانه، ودينه، ولغته، تقديمًا صحيحًا، غير مشُوبة بأساطير وخرافات المحبِّين الجاهلين، وغير مشوَّهة بتحليلات

(١) الجُلَنْدَي -بضم أوله وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال- ابن عبد جمل الأزدي ملك عُمَان زمن البعثة النَّبوية، وخَلَّفَه مِن بَعْدِه ابنه جَيْفَر (انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر ١/ ٥٣٨).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٥٣٨)، ونَسَبَه عن وَثِيمَة في كتاب: «الرِّدَّة» عن ابن إسحاق.

الجَاحِدين والمنْكِرين، بل تُقدَّم حَيَّةً نابِضَةً يَرَاها القارئ وكأنه يعيش أحداثَها دون حُجُب التَّعَصُّب، أو غِشاوة العَاطِفَة الجاهلة، لا شك أنها ستستهوي القلوب، ويرى فيها أيُّ شَخْص إنسانيتَه التي يحِنُّ إليها؛ لأنَّ النُّفُوس السليمة جُبِلت على التسامي والتعلُّق بالمَثَل الأعلى.

وقد كان في قَدَر الله أن يكون محمَّدٌ ﷺ مظهرًا للكمال الإنساني، وطلب مِن النَّاس أن يَسْعَوا إليه، ويحاولوا التَّخَلُّق بأخْلَاقِه، ومُحَاكَاة سلوكه؛ لأن هذه هي الأخْلَاق المَرْضِيَّة الكاملة عند الله تعالى»[1].

(١) انظر: مصادر السيرة النَّبوية وتقويمها (ص ٢١- ٢٣) بتصرفٍ يسيرٍ.

النطاق الزماني للسيرة النَّبوية

البَعْثَة المحمدية هي خاتمةُ الرسالات كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّين... ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠].

ورسالته عامةٌ لجميع الإنس والجن، كما أن شريعتَه نَاسِخَةٌ لجميع شَرَائِع الرُّسُل؛ فلا يَقْبَل الله مِن أحدٍ غيرَ شريعته ﷺ، وهي تأتي حَسْب التسلسل التاريخي آخر النُّبُوَّات.

والسيرة النَّبوية في نِطَاقِها الزَّمَاني هي: مِن ولادته ﷺ عام الفيل وحتى وفاته في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السَّنَة الحَادِيَة عَشْرَة من الهِجْرَة النَّبوية، وجملتُها: ثَلَاث وستون سنة قمرية، ويُوافِقُها في التاريخ الميلادي مِن: (٥٧١ م- ٦٣٢ م)[(١)].

والنُّبُوَّات جميعًا تُمثِّل وَحْدَةً تاريخية ذات حَلَقاتٍ متعددةٍ، والأنبياء وأتباعُهم أمة واحدة، لها سِمَات مشتركة، والتاريخ الإسلامي بهذا المفهوم ليست بدايته مِن بَعْثَة محمَّدٍ ﷺ كما قد يظن البعض؛ وإنما بدايته الحقيقية مِن هبوط آدم وحواء عليهما السلام إلى هذه الأرض مسلمين لله رب العالمين؛ فإن آدم أبا البشر عليه السلام «نَبِيٌّ مُكَلَّم»[(٢)]، واستمرت ذريتُه عشرة قُرُون كُلُّهم على التوحيد، كما ثَبَت بذلك الخَبَر عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٣)].

(١) راجع: «التقويمان الهجري والميلادي»، تأليف: فريمان، وجرنفيل. ترجمة حسام الدين القدسي.
(٢) رواه أحمد (٢١٥٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على «مشكاة المصابيح».
(٣) رواه ابن جرير في التفسير (٤/ ٢٧٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٦) وصححه، وانظر تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:٢١٣] (١/ ٣٦٤).

ثم لما وقع الانحراف في التوحيد وظهر الشرك في البشرية، بَعَثَ الله نوحًا ﷺ؛ ليجدد مَعَالِمَ التوحيدِ، ويعيد المشركين إلى الحقِّ، ثم تَتَابَعَتِ الرُّسُل والأنبياء، يدعون إلى عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فأصلُ الدين واحدٌ، وهو التوحيد الذي هو إفْرَاد الله بالعِبَادة؛ أما الشرائع فهي متنوعة كما قال ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(١).

ومنذ وقوع الشرك في القوم الذين بُعِث إليهم نوح ﷺ انْقَسَمَتِ البشرية مِن حيث العقيدة إلى أُمَّتَين اثنتين:

- أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ مُوحِّدة.
- أُمَّةٌ مُشْرِكة.

وكل الذين صَدَّقوا الرُّسُل واتَّبعوهم مِن آدم ﷺ إلى محمَّد ﷺ هم المسلمون، ويمثِّلون أمةً واحدةً، وإن اختلفت أوطانُهم ولغاتُهم، وتَبَاعَدَتْ أَزْمَانُهم، واختلفتْ شرائِعُهم، كما قال تعالى بعد ذكر جملة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، فأتباع الرسل أمة واحدة، وهي: أمة التوحيد، وحزب الرحمن، وأهل الحق والإيمان، وهم المسلمون.

أما الذين كَذَّبوا الرُّسُل؛ فهم أمة الشرك والضلال، وهم حزب

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥). و(إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ): هم أبناء الرجل الواحد مِن نِسَاء شَتَّى.

الشيطان، وهم أمة واحدة مهما اختلفت أوطانهم ومذاهبهم وأزمانهم؛ فإن السِّمَةَ الجامعة لهم هي الشركُ وعبادةُ غير الله.

وهذا المفهوم يوضِّح مَنْزِلةَ السِّيرَة النَّبوية بيْن سِيَر الأنبياء عليهم السلام، وإن كان نطاقُها الزماني محدودًا بحياة النَّبيِّ ﷺ من الولادة حتى الوفاة؛ فهي امتداد لسير الأنبياء قبله، واستمرارٌ لتاريخ أمة الإسلام المهتَدين بهديه مِن بَعْدِه حتى قِيَام الساعة.

النطاق المكاني للسيرة النَّبوية

بُعث النَّبيُّ ﷺ في مَكَّةَ بَلَدِ الله الحَرَام، وفيها بيتُه المعظَّم الذي رَفَع قَوَاعِدَه إبراهيمُ الخليل وابنه إسماعيل جَدُّ العرب، والنَّبيُّ ﷺ مِن أهلها وقد وُلِد ونشأ فيها، ومكةُ يَوْمَئذٍ حَاضِرَةُ الجزيرة العربية الكبرى، ولها مكانةٌ دينيةٌ عندهم حيث يَحجُّون إليها كلَّ عام، ثم هَاجَر ﷺ إلى المدينة النَّبوية بعد ثلاث عشرة سنة من النُّبُوَّة، وفيها أُسِّس بناءُ دولة الإسلام، وابتدأ الدِّفَاع حتى فتح مكة وما حولها، ثم أتته الوفود مُسْلِمة ومستسلمةً في العام التاسع من الهجرة، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى كانت الجزيرةُ كلُّها خَاضِعَة لسلطان الإسلام، وأهلها؛ إما مسلمون، وإما مُعَاهَدون مُسَالَمون، والرسول ﷺ هو أول مَن جَمَع الجزيرة العربية بكاملها في وَحْدَةٍ واحدةٍ؛ وَحْدَة فِكْرِيَّة عَقَدِيَّة، ووَحْدَةٍ سياسية جغرافية؛ وَحْدةٍ على ملة الإسلام ودين التوحيد، وكانت قبل ذلك طوال تاريخها إماراتٍ ودولًا مُتَفَرِّقَة؛ ففي اليمن: كانت دولة مَعِين، ثم دولة سَبَأ، ثم حِمْيَر، ثم استعمرها الأَحْبَاش، ثم دخل عليهم الفُرْس وصارت الولاية في أبنائهم. وفي شمال الجزيرة: كانت في وقت البعثة إمارات الحيرة الخَاضِعَة للفُرس، والغَسَاسِنَة الخَاضِعِين لِلرُّوم.

أما الحِجَاز فتولَّى أمْرَها إسماعيلُ عليه السلام بعد بناء البيت العَتِيق (الكعبة المشرفة) ثم أولاده من بعده، ثم جدُّ أولاد إسماعيل: مُضاض

ابـنُ عمـرو الجُرْهُمـي، وطالـت ولايـة جُرْهُـم للبيـت حوالـي عشـرين قَرْنًـا، ثـم نزعتهـا منهـم خُزَاعَـة فحكمتهـا ثلاثمائـة سـنة، حتـى انتزعهـا قُصَـيُّ ابـنُ كِلاَبٍ، وجمـع قريشًـا فـي مكـةَ ومـا حولهـا، وذلـك منتصـف القـرن الخامـس الميـلادي.

فالجزيـرة العربيـة هـي النِّطَـاق المَكَانـي لحَرَكَـة السِّـيرَة النَّبويـة فـي عهـده ﷺ، وبعـد وفاتـه ﷺ حَدَثَـتْ رِدَّةٌ فـي الأطـراف والقُـرَى، ولكـن تَمَكَّـن أصحابُـه الكـرام بقيـادة خليفتـه الأول: أبـي بكـر الصديـق ﷺ مِـن قَمْـع المرتديـن وإعادتهـم إلـى الهُـدَى ودِيـن الحـقِّ فـي أقـل مِـن عـامٍ واحـدٍ، ثـم انطلقـوا بالدعـوة والفُتُوحَـات إلـى مَـن يليهـم مِـن أهـل الأرض مشـرقًا ومغربًـا حتـى دَانـوا بالإسـلام، وخَضَعُـوا لشـريعته وأحكامـه كمـا هـو معلـوم مِـن سـير الفُتُوحـات الإسـلامية التـي اسـتمرت فـي انطلاقتهـا طـوال القـرن الأول مِـن الهجـرة، فوصلـوا إلـى حـدود الصيـن شَـرْقًا وإلـى المحيـط الأطلسـي وحـدود فرنسـا غَرْبًـا. ولله الحمـد والمنـة.

عَالَمِيَّةُ الرِّسَالةِ المُحَمَّدِيَّة

الكرةُ الأَرْضِية بكاملها مَجَالٌ لنشر الإسلام، وأهلُها مدعوون جميعًا للدخول في الدِّين الحَقِّ الذي ارتضاه المَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ دينًا للبشريَّة جميعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد رَاسَل النَّبيُّ ﷺ مُلُوكَ الأرض في زَمَانِه، ودَعَاهم إلى الدخول في الإسلام؛ تنفيذًا لعالمية الدعوة الإسلامية كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالرِّسَالَة المحمدية رِسالةٌ عالمية لكل الأجْنَاس البشرية؛ فكما أن الأرض كلَّها نِطَاقٌ مَكَاني لحَرَكَة الدَّعْوَة على أيدي أتباعه ﷺ، فكذلك البشرُ كلُّهم على مُخْتَلَف أجْنَاسِهم وأزْمَانِهم مَدْعُوون للدخول في الدِّينِ الحقِّ الذي هو الإسلام، وهو رحمة لهم، ومنْقذٌ لهم مِن الضَّلَالَات والخُرَافَات والأَهْوَاء، والظُّلْم والجَوْر، لتُشرق عليهم أنوارُ الحَقِّ والعَدْل والطَّمَأْنِينَة، وتَحْفَظ لهم الإنسانية الصَّادِقة، والفِطْرة السَّلِيمة التي فَطَر الله الخلقَ عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

وقد جاء في الحديث الصحيح: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[1].

(١) رواه مسلم (١٥٣).

مَصَادِر السِّيرَة

معرفةُ مَصَادِر السيرة، والقدرة على التمييز بين المصادر بحسْب الأهمية والصدق في الأخبار؛ مما ينبغي لِدَارِس السيرة النَّبوية تَعَلُّمه، ومَصَادِر السيرة النَّبوية منها ما يكون مُتَعَلِّقًا بتفسِير الوقَائِع؛ بمعنى: التعليل للوقَائِع، وبيانِ البَواعِث، واستخراج الأحكام، والدُّرُوس والعِبَر منها، وهي: مصادر الشريعة [الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس]، والاستفادة منها وَفْق مَنَاهِج الاستدلال المُعْتَبَرة عند أَهْل العِلْم.

ومنها: ما يكون مُتَعَلِّقًا بإثْبَات الوَقَائِع والحَوادِث التاريخية.

وأهم مصادر السيرة النَّبوية:

١ - القرآن الكريم:

وهو أَصْدَقُ المصَادِر وأصَحُّهَا؛ لأنه مِن العَالِم الخَبِير، ونُصُوصُه ثَابتة بالتَّواتِرِ القَطْعِي، والنص القرآني عندما يتحدث عن الحَادِثَة والوَاقِعَة التاريخية؛ فإنه يُعطِي الصورة الواقعية عن الحَدَث كما أنه يُشِير إلى ظِلَال الحادثة وبواعِثِها، وصورتها الخَفيَّة في حَدِيث النَّفْس، ومَشَاعِرها وتَصَوُّراتِها، وهذا لا يتوفَّر لغير النَّصِّ القرآني الذي يَرْسِم الصورتين: الظاهرة والباطنة للحَدَث التاريخي.

وفي القرآن الكريم ذِكْرٌ لكَثِير مِن الأحداث التاريخية عن سيرة النَّبيِّ ﷺ مِثْلِ الغَزَوات، ودَلَائِل النُّبُوَّة، والصِّرَاع مع الكفار: مِن المشركين، والمنافقين، واليهود، والنصارى، وبيان عقائدهم ومواقفهم

من الدعوة، كما أن كُتب التَّفْسِير قَدْ حَوَت الكثير من الرِّوَايَات عن السِّيرة النَّبوية وأحْدَاثِها، وخَاصَّة في أسْبَاب النُّزُول للآيات. وتلك النصوص مِن الكَثْرة؛ حتى إن بَعْضَ البَاحِثين قد أَفْرَد حَدِيث القرآن الكريم عن السيرة النَّبوية في مُؤلَّفات مُسْتَقِلَّة[1].

٢- كتب السنة النَّبوية وشروحها:

مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسُّنَن الأَرْبَعة، ومسند الإمام أحمد، ومُوَطَّأ مالك، ومَعَاجِم الطَّبْرَانِي، ومُسْتَدْرَك الحاكم، وغيرها، وقد خُصِّصَت أبواب في الصحيحين والسُّنَن عن مَغازي الرسول ﷺ، وعن دَلَائِل نُبوته، وعن فَضَائِل الصَّحَابَة، وعن السِّيَر، وغير ذلك.

والمصدران المذكوران [الكتاب والسنة] مصدران مُهِمَّان لنوعي مَصَادِر السيرة النَّبوية؛ فلا بد مِن تَفَهُّمِهما وفَهْمِ أَحْكَامِهما حتى يكونَ لَدَى دَارِس السِّيرة مَقْدِرَةٌ صحيحة على اسْتِخْرَاج الدروس والعِبَر مِن وَقَائِع السيرة؛ فإنهما يمثِّلان المرجعية الشرعية التي لا بد منها في الاستفادة من دَرْس السيرة النَّبوية، وفَهْم أَهْدَافِها، ومَغْزَاها التَّرْبَوي.

٣- كتب السِّيرَة المخْتَصَّة:

اهْتَمَّ الصحابة وأبناؤهم، ومَن بَعْدَهم مِن التَّابِعِين، ومَن تَبِعَهم، بتدوين أخبار وحوادث السيرة النَّبوية وتعليمها لأبنائهم، بل كانوا يعلِّمون أبناءَهم مغازي رسول الله ﷺ ويحفِّظونهم إياها كما يحفِّظونهم السُّورة من القرآن، وكان أبرزُ مَن اهتمَّ بذلك: البَرَاءُ بن عَازِب رضي الله عنه

(١) انظر: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، لمحمَّد عزة دروزة (مجلدان)، وحديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ لمحمد بن بكر آل عابد (مجلدان).

الـذي كان يُملـي أخْبَـار السـيرة علـى تلاميـذِه فيكتبونهـا بيـن يديـه، وكـذا عبـد الله بـن عَبَّـاس ﷺ الـذي رُويـت عنـه مُدَوَّنَـات فـي السـيرة والمَغَـازي النَّبويـة، اسـتفاد منهـا مَـن جـاء بَعْـدَه، أمثـال: مُوسَـى بـن عُقْبَـة صَاحِـب المغـازي، وعبـد الله بـن عَمْـرو بـن حَـزْم الأنصـاري.

ومِـن التابعيـن الذيـن اهتمـوا بالسـيرة: أَبَـان بـن عُثْمَـان بـن عَفَّـان، (ت ١٠٥ هـ) الـذي جَمَـع كتـاب مغـازي رسـول الله ﷺ، وعُـرْوَة بـن الزُّبَيـر (ت ٩٤ هـ).

وجاء بعد هؤلاء طبقاتٌ مِن أهل العِلْم، أمثال:

أ- الإمـام الزُّهْـري (ت ١٢٤ هـ): الـذي وَصَلَـت إلينـا مَرْوِيَّاتـه فـي السِّـيرَة النَّبويـة مِـن خـلال كتـب المغـازي، وكتـب السـنة النَّبويـة، ولـه مَغَـازٍ مَطْبُوعـة فـي جـزءٍ، وهـي مسـتخرجة مـن مُصَنَّـف عبـد الـرَّزَّاق الصَّنْعَانـي، وقـد أَنْجَـز أحـدُ البَاحِثيـن فـي الجَامِعَـة الإسـلامية[1] رسـالةَ دكتـوراة عـن مغـازي الإمـام الزهـري، وهـي شـاملة لمعظـم أحـداث السـيرة النَّبويـة.

ب- مُوسَـى بـن عُقْبَـة (ت ١٤١ هـ): ولـه كتـاب مشـهور فـي المَغَازي، كان الأَئِمَّـة مِـن أَمْثَـال مالـكٍ يُوصُـون بـه، ومغازيـه مطبوعـة، غيـر أنهـا نُسْـخَة مُسْـتَخْرَجَة[2]، حيـث لـم يُعْثَـر علـى أَصْـل المخطوطـة.

ج- محمَّـد بـن إسـحاق (ت ١٥١ هـ): الـذي أَلَّـف كِتَابًـا شَـاملًا فـي المغـازي والسِّـير، وهـو أَسَـاسُ كَثِيـرٍ مِـن المؤلَّفَـات فـي السـيرة، واعتمـد عليـه أغلـبُ مَـن جَـاء بَعْـدَه، لكـن أَصْـل سـيرة ابـن إسْـحَاق مَفْقُـود، ولـم

(١) مغازي الإمام الزهري لمحمَّد عواجي - مجلدان، نشر المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة.

(٢) محمَّد باقشيش، مَغَازي مُوسَى بن عُقْبَة (مجلد) منشور في المغرب.

يُعْثَر إلا على قِطَع قليلة نشرها محمَّد حُمَيد الله، ولكن قَيَّضَ الله لسيرة ابن إسْحَاق مَن يَحْفَظَها؛ فقد هَذَّبها عبدُ المَلِك بن هِشَام، واسْتَدْرَك على ابن إسحاق بعضَ أشياء في الأنْسَاب والأشْعَار، وهي الموجودة الآن باسم: «سيرة ابن هشام» مطبوعة في أربعة أجزاء.

د- محمَّد بن عمر الواقِديُّ (ت ٢٠٧ هـ): له كتاب المغازي، وهو كَبِير، وقد فُقِد بَعْضُه، والموجود منه مطبوع في ثلاثة مجلدات.

هـ- محمَّد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠ هـ): له كتاب: «الطبقات الكبرى»، وقد خَصَّص القسم الأول من الكتاب عن السيرة النَّبوية، ويقع في مجلدين.

و- ابن عبد البَرِّ القُرْطُبي (ت ٤٦٣ هـ): له كتاب: «الدُّرر في اختصار المغازي والسِّيَر»، وهو كتاب موجز في السيرة النَّبوية، وله نقد وترجيح في بعض الروايات.

ز- ابن حَزْم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ): له كتاب: «جوامع السيرة»، وهو كتاب لطيف وموجز.

ح- ابن القيِّم (ت ٧٥١ هـ): الذي خَصَّص قسمًا كبيرًا مِن كتاب: «زَاد المَعَاد في هَدْي خَيْر العِبَاد» عن مغازي رسول الله ﷺ وجهاده، وقد اهْتَمَّ بِبَيَان فِقْه الأحداث والأحكام من خِلال المغازي، وهذا تقدُّمٌ كبير في منهجية دراسة السيرة النَّبوية والاستفادة من أحداثها.

٤- كتب الدَّلَائِل والشَّمَائِل المُحَمَّدِيَّة:

وهي قِسْمٌ كَبِير من السيرة النَّبوية، وقد تَضَمَّنتْ كُتُب السُّنة شيئًا منها، وكذلك كُتب المغازي تَضَمَّنتْ شيئًا منها، لكن جَرَت عَادة

العُلَمَاء بإفْرَادِها بمُصَنَّفَاتٍ مستقلة؛ لما لها مِن أهمية وتَخَصُّص، وقد أُلِّفَ في دَلائِل النُّبُوَّة كُتُبٌ كثيرةٌ، ومِن أهمها وأوعبها كتابان، هما:

- دلائل النبوة لأبي نُعيم الأَصْبَهَانِي (ت ٤٣٠ هـ).
- دلائل النبوة للبَيْهَقِيِّ (ت ٤٥٨ هـ).

وهما مطبوعان، وكتاب البيهقي أشمل وأفضل.

- وفي الشمائل النَّبوية أَلَّف التِّرْمِذِيُّ (ت ٢٧٩ هـ) صَاحِب السُّنَن كِتَاب الشمائل، وهو كتاب لَطِيف مُسْنَد، وقد اختصره الشيخ ناصر الدين الألباني، وحَكَم على أسانيده.

ولأبي الشيخ ابن حِبَّان (ت ٣٦٩ هـ) كتاب: «أخلاق النَّبيِّ ﷺ وآدابه»، وهو كتاب غزير المادة.

وللحُسين بن مسعودٍ البَغَوي (ت ٥١٦ هـ) كتاب: «الأنوار في شمائل النَّبيِّ المختار»، وهو مطبوع في مجلدين.

٥- كتب تراجم الصحابة:

فقد تَضَمَّنَتْ الحديث عن مَواقِف الصَّحَابة ومشاهدهم مع رسول الله ﷺ وجهادهم ومشاركاتهم المختلفة في عصر النبوة.

ومِن أشهر كتب تراجم الصحابة:

أ- كتاب: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البَرِّ، وهو مطبوع في أربعة مجلدات.

ب- كتاب: «أُسْد الغَابَة في مَعْرِفَة الصَّحَابَة» لابن الأَثِير علي بن محمَّد الجَزَري (ت ٦٣٠ هـ)، وقد جَمَعَه مِن أربعة كتب مع الاستدراك عليها، وهي:

١- كتاب معرفة الصحابة للحافظ ابن مَنْدَه (ت ٣٠٣ هـ).

٢- كتاب معرفة الصحابة للحافظ أبي نُعَيْم (ت ٤٣٠ هـ).

٣- كتاب الاستيعاب، لابن عبد البَرِّ القُرْطُبِي (ت ٤٦٣ هـ).

٤- كتاب أبي موسى المَدِيني (ت ٥٨١ هـ) الذي استدرك فيه على ابن منده، وقد طبع كتاب: «أُسْد الغَابَة» في سبعة مجلدات كبار.

ج- كتاب: «الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حَجَر العَسْقَلاني (ت ٨٥٢ هـ)، وهو مِن أوسع كتب معرفة الصحابة مِن حيث عَدَد التَّرَاجِم؛ إذ زَادَت على أكثر مِن اثنتي عَشَر ألف ترجمة، وقد استفاد الحافظ ابن حجر ممَّن سَبَقَه، واسْتَوْعَب المؤلَّفَات السَّابِقَة، وهو يَخْتَصِر الترجمة، ويهتم بذكر المَشَاهِد والمشَارَكَات للمُتَرْجَم مع النَّبيِّ ﷺ، وقد طُبِع كِتَاب ابن حَجَر عِدَّة طَبَعَات؛ آخِرُها عن دَار هَجَر بالقاهرة.

٦- كتب التاريخ العام المُدَوَّنَة على الحَوْلِيَّات أو على الموضوعات:

ما مِن مُؤَرِّخ للإسلام؛ إلا ويَذْكُر سِيرَة رسول ﷺ أثناء تاريخه، ومن أَشْهَر الكُتُب التاريخية العامة:

أ- «تاريخ الرسل والملوك» المعروف بتاريخ ابن جرير الطبري المتوفَّى ٣١٠ هـ، وقد عَرَض لسيرة النَّبيّ ﷺ في سياقها التاريخي، واستفاد من المؤلفات السابقة، وخاصة كتاب ابن إسحاق، وتاريخ الطبري مطبوع عدة طَبَعَات؛ مِن أفضلها: طبعة مُحمَّد أبي الفضل إبراهيم، في أحد عشر مجلدًا مع الفهارس، وهو مُرَتَّب على السِّنِين.

ب- «المُنْتَظَم في أَخْبَار الدُّوَل والأُمَم» لابن الجوزي (٥٧٩ هـ)، وهو كتاب كبير مُرَتَّب على السنين، وقد طبع مُؤَخَّرًا كاملًا في ١٦ مجلدًا.

ج- «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري (٦٣٠ هـ)، وهو كتاب حافل، ومرتب على السنين، وقد طبع في ١١ مجلدًا.

د- «تاريخ الإسلام ووَفَيَات المَشَاهِير والأعلام» للذهبي (ت ٧٤٨هـ)، ويعتبر مِن الموسوعات العامة في التاريخ والرجال، وقد نُشِر الكتاب عِدَّة نشرات، أفضلها: بتحقيق د. بشار عواد معروف.

هـ - «البداية والنهاية» لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، وهو كتاب حَافِل في التاريخ البشري منذ خلق الله آدم إلى عصر المؤلف، وقد اهْتَمَّ ابنُ كَثِير بالسيرة النَّبوية في كتابه هذا، وأطال وجمع ما لم يَجْمَع غيرُه، وساعدته حافظتُه، ومعرفتُه بالحديث والسُّنَّة؛ فَجَمَع بين كتب المغازي والسير وبين روايات المحدثين في كتبهم، وأقوال المفسرين، وأسباب النزول، وقد نُشِر كتاب: «البداية والنهاية» نشرات كثيرة، لكنها مكررة عن النشرة الأولى، وقد نشر أخيرًا نشرة محققة في ٢١ مجلدًا مع الفهارس عن دار هَجَر بالقاهرة، وتقع السيرة النَّبوية من منتصف المجلد الثالث حتى منتصف المجلد التاسع؛ أي: ما يعادل سبعة مجلدات، وقد شَمَل حديثُه عن السيرة الأقسامَ الثلاثة للسيرة النَّبوية، وهي: السيرة، والمغازي، والشمائل والدلائل.

٧- كتب تاريخ الحرمين الشريفين:

الحَرَمَان الشريفان [مكة والمدينة] هما موطنه ﷺ، وفيهما وبينهما وحولهما كانت مغازيه، وتحركاته، وبعوثه ورسله، ومِن أهمِّ الكُتُب في تاريخ مكة: كتاب الأزرقي (ت ٢٤٤ هـ): «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار»، ونُشِر في جزأين. وكتاب الفاكهي (ت القرن الثالث): «أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه» منشور في ستة أجزاء. وكتاب:

«شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام» لتقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ)، وهو منشور، وله كتاب: «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» منشور في ٨ مجلدات. و«أخبار المدينة» لعمر بن شَبَّة (ت٢٦٢ هـ)، وقد نُشِر منه أربعة أجزاء، وهو ناقص مِن أوله. وكتاب: «الوفا بأخبار دار المصطفى» للسَّمْهُودي (ت ٩٢٢هـ).

٨ - كتب الأدب والشعر العربي

تَضَمَّنَت المُؤَلَّفات في الأَدَب العربي، والدواوين الشعرية للشعراء المُعَاصِرين للدعوة والرسالة، قِطَعًا شِعْرِيَّة ونَثْرِيَّة تُشِير إلى وَقَائِع في السِّيرَة النَّبوية، ومِن الأهمية بمكان معرفة ذلك، لكن ينبغي أن يُتَثَبَّت مِن صِحَّة تِلْك النُّصُوص؛ فإن تلك الكتب قد دُوِّنَت دُون النَّظَر إلى مَنْهَج التَّثَبُّت، ولم تُوَثَّق رُوَايَاتُها، ومع هذا نجدُ عُلَمَاء السُّنَّة النَّبوية يَذْكُرون الأَشْعَار والأقوال الأَدَبيَّة في كُتُبِهم؛ فهي من المصادر التي يُحتاج إليها، ولكن يجب أن يَعرفَ البَاحِث قَدْرَها ومنزلتها من حيث التوثيق العلمي وصحة الإسناد، حيث يغلب على بعضِها الحكايات، والنَّوَادِر، والطُّرف التي لا يُعْرَف مَصْدَرَهَا، ولا تَخْلو مِن المُبَالَغَات.

أقْسَام السِّيرَة النَّبويَّة

تُقَسَّم السِّيرَة النَّبوية بالنَّظَر إلى مَرَاحِل حياة النَّبيِّ ﷺ إلى ثلاثة أقْسَام:

القسم الأول: تاريخ حياته ﷺ قبل النُّبُوَّة:

ويَتناول تَاريخ حَيَاتِه قَبْل النبوة، مِن الوِلَادة حتى البَعْثَة، وتُمثِّل أربعين سنة، ويَتناول هذا القِسْم:

- حَال العَرَب والجَزِيرَة قَبْل بَعثة النَّبيّ ﷺ والأَطْوَار التي مَرَّت بها مَكَّة المكرمة، وبِنَاء البيت العتيق؛ فإنها بيئة السِّيرَة النَّبوية والمُمَهِّدَة لها .

- الأحداث المتعلقة بالنَّبيِّ ﷺ قَبْل البَعْثة مِثْل وِلَادَتِهِ واسترضاعه، ونَشْأَته، والأعمال التي شَارَك فيها، إلخ، وهي في هذا القسم قليلة إذا قِيسَت بالأحداث التي بَعْد البَعْثَة.

القسم الثاني: تاريخ حياته ﷺ من البَعْثَة إلى الهِجْرَة:

ويتناول نبوته ودعوته ﷺ من البَعْثَة ونزول الوحي عليه في غَار حِرَاء حتى هِجْرَتَه إلى المدينة، وتُمثِّل ثلاثةَ عَشَر عامًا، ويُسمَّى: العَهْد المَكِّي، وهو عهد التأسيس والدعوة، وفيها نزول القرآن الذي قَرَّر دَلَائِل التوحيد، وصفات الباري، وكَشْفَ الشرك والردَّ على دَعَاوَى المشركين، وإثْبَات البَعْث والنُّشُور والجَزَاء في اليوم الآخِر بجنةٍ أو نارٍ، والدعوة إلى مَكَارِم الأخْلَاق، والانْتِهَاء عن المَسَاوئ،

وفيها الدعوة الفردية المباشِرَة، ثم الدعوة العامة، ومواقف المشركين واضطهادهم للمؤمنين، وصبر المؤمنين وتَحَمُّلهم الأَذَى، وهجرتهم إلى الحبشة، وحصار رسول الله ﷺ والمؤمنين وبني هاشم في الشِّعْب، والعَرْض على القَبَائِل، وحَادِثَة الإسراء والمعراج، وبَيْعَة العَقَبَة الأولى ثم الثانية، والهجرة إلى المدينة.

القسم الثالث: تاريخ حياته ﷺ من الهجرة حتى الوفاة:

ويَتناول حياته ﷺ مِن وُصُولِه إلى المدينة في (١٢ ربيع الأول سنة ١هـ) وحتى الوفاة في (١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ) ، ويُمثِّل عشر سنوات كاملة، ويُسَمَّى: العهد المَدَنِي، وعهد البِنَاء والمدافعة وانتشار الدعوة، وسِمَتُه العَامَّة: الدفاع والغزوات، التي بَلَغَت ثلاثين غزوة، والسَّرَايَا والبُعُوث الدَّعَوِيَّة التي زَادت على السبعين سَرِيَّة وبَعْثًا، حتى انتشر الإسلام وعَمَّ أرجاء الجزيرة العربية، وكذلك نزول التشريعات العبادية، وتنظيمات المجتمع: الإدارية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

والسيرة النَّبوية بالنظر إلى موضوعاتها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الشَّمَائِل والأخلاق النَّبويَّة:

ويدخل فيها الخَصَائِص التي اخْتُصَّ بها رسولُ الله ﷺ عن سَائِر الرُّسُل، وكذا ما اختص به من أحكامٍ عن سائر الأمة، وما اخْتُصَّتْ به أُمَّتُه بسببه عن سائر الأُمَم[1].

والشمائل هي:

١- الصفات الخَلْقِيَّة؛ أي: الصفة التي خَلَقَه الله عليها مِن حيث

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير (ص ٢٧٩ - ٢٨١).

طولـه وهيئتـه، وجسـمه ولونـه... وكـذا: صفـةُ جُلُوسـه، ومشـيته، وكلامـه، ونومـه، ولباسـه، وهـذا النـوع ترجـع فائـدة دراسـته إلـى أمـورٍ، منهـا:

- التأسي به ﷺ في هيئة جلوسه وقيامه، وكلامه، ونومه، ولباسه، إلخ.
- معرفـة فضـل الله علـى رسـولنا ﷺ؛ إذ جعلـه الله فـي أكمـل هَيْئَـة وأحسـن صـورة، وأجمـل سَـمْتٍ.
- مطابقـة مـا يـرى النَّائِـم عنـد رؤيتـه لرسـول الله ﷺ بتلـك الصفـة المنقولـة عـن الـرُّوَاة مِـن أصحابـه؛ فـإن الشـيطان لا يسـتطيع أن يتَصـوَّر أو يَتَشَـبَّه برسـولِ الله ﷺ كمـا فـي الحديـث الصحيـح الـذي رواه أبـو هريـرة، وأنـس رضي الله عنهما، وغيرهمـا، عـن رسـول الله ﷺ أنـه قـال: «**مَـنْ رَآنِـي فِـي الْمَنَـامِ فَقَـدْ رَآنِـي، فَـإِنَّ الشَّـيْطَانَ لَا يَتَمَثَّـلُ بِـي**»[1].

ولتعلـم أخـي أن الشـيطان مِـن عادتـه الكَـذِب والتغريـر بمَـن يطيعـه، وقـد يُـري النَّائِـمَ صـورةً ويُلقـي فـي رُوعـه أنهـا صـورةُ رسـولِ الله ﷺ وهـو كَاذِب عليـه، لكـن إذا رَأَى المسـلمُ فـي المنـام أنـه رَأَى رسـول الله ﷺ؛ فإنـه لا بـد أن يُطبِّـق مـا رَأَى علـى الصِّفَـة المنقولـة لرسـول الله ﷺ ليكـون قـد رَآه حَقًّـا؛ فـإن الشـيطان لا يسـتطيع التشـبُّه بالنَّبـيِّ علـى صُورَتِـه الحقيقيـةِ، وهـذا مِـن حمايـة الله لرسـوله وتكريمـه لـه، وصيانـة المسـلمين مِـن تغريـر الشـيطان بهـم فـي هـذا الجَانِـبِ.

٢- الصِّفَات الخُلُقِيَّة؛ أي: الآدَاب والأخلاق التي تَأَدَّب بها رسولُ الله ﷺ وهذه الصِّفَات كَثِيرة، مِثْل: الكَرَم، والشجاعة، والحَيَاء، والعفو، والحِلْم، واليُسْر، والسَّمَاحَة، والتقوى، والبَذْل، والعَطَاء، والتَّوَاضُع، والزُّهْد، إلخ، وهي صِفَاتٌ أَتَتِ الشريعةُ بها، وتَحَلَّى بها رسولُنا ﷺ، وهذا النوع هو المقصود

(١) رواه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦).

الأعظم مِن دِرَاسة الشمائل، وهو أكثر فائدة، وأوسع دائرة في التأسي والاتباع والاقتداء. ولقد سُئِلت أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂ مِن عددٍ مِن الصحابة والتابعين عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ، فكان جَوابُها شَامِلًا وَاسِعًا رَغْم وَجازَةِ لَفْظِه، قالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»(١).

قال الحافظ ابن كثير ﵀: «ومعنى هذا: أنه ﷺ مَهْمَا أَمَرَه به القُرْآن امْتَثَلَهُ، ومهما نَهَاه عنه تَرَكَه؛ هذا مع ما جَبَلَه الله عليه مِن الأخلاق الجِبِلِّيَّة الأصلية العظيمة التي لم يَكن أحدٌ من البَشَر، ولا يكون على أكمل منها، وشَرَع له الدِّين العظيم الذي لم يَشْرَعْهُ لِأَحَدٍ قَبْلَه، فكان فيه مِن الحَيَاء، والكَرَم، والشجاعة، والحِلْم، والصَّفْح، والرحمة، وسَائِر الأخلاق الكَامِلَة ما لا يحُدُّ ولا يُمْكِن وَصْفُهُ»(٢).

وقد وَصَفه ربه ﷻ بوصفٍ هو فوق كلِّ وَصْف، ومَدَحه بمِدْحَةٍ هي فوق كلِّ مِدْحة أحدٍ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال العوفي عن ابن عباس ﵄: «أي: وإنك لعلى دِين عظيم، وهو الإسلام. وهكذا قال مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ والضَّحَّاك. وقال عطية: لَعلَى أَدَبٍ عَظِيم(٣)... وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

النوع الثاني: دلائل النبوة والمعجزات:

الدلائل هي: المعجزات والبراهين الدَّالَّة على صِدْقِه في النُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، ودَلَائِل النبوة، منها: المَعْنَوي، ومنها: الحِسِّي الخَارِق للعَادَة، ويُسَمَّى مُعْجِزَة ودليلًا وبرهانًا، وآية مِن الآيات.

(١) رواه مسلم (٧٤٦)، ولفظه: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ».
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٤٥٦).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ٤٥٥).

والدلائل التي يؤيِّد الله بها رُسُلَه ويُجري بعضها على أيديهم، ليستْ مِن كَسْبِهم، ولا قدرتهم الذاتية، وإنما هي مَحْض فَضْلٍ مِن الله، وهِبَة منه؛ لتكون تأييدًا وتصديقًا لهم، وبيانًا لمنزلتهم عنده ﷻ.

ومِن سُنَّةِ الله ﷻ أنه لا يؤيِّد الكَاذِب عليه، وقد بَاء بالخِزْي والخُذْلَان كلُّ مَن ادَّعَى النُّبُوَّةَ مِن الكَذَّابين، مِثْل: الأَسْوَد العَنْسِي، ومُسَيْلِمَة الكَذَّاب، والمُخْتَار بن أبي عُبَيْد، وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

ودلائلُ نُبُوَّة نَبيِّنا محمَّدٍ ﷺ كثيرةٌ جِدًّا، وقد ذكر الإمام «البَيْهَقِيُّ» أنها تزيد على ألفِ دَلِيل[١]، بل ذَكَر «النَّوَوِيُّ» في «مُقَدِّمَة شرح صحيح الإمام مسلم»: أنها تزيد على ألف ومائتي دليل[٢].

ودَلَائِلُ النبوة جاءت بِحَسْب وُقُوعِها على مَرَاحِلَ:

١- ما وَقَع قَبْل البَعْثَة، مِثْل: بِشَارَاتُ الأنبياء به في الكُتُب السَّابِقَة[٣]، وأخبارُ الكُهَّان والجَان[٤]، وتسليمُ حَجَرٍ عليه بالنُّبُوَّة في مَكَّة[٥]. وشُقَّ صَدْرُه ﷺ وهو في بادية بني سعد[٦].

٢- ما وقع على يديه ﷺ بعد البَعْثة حتى تَوَفَّاه الله: ومِن أعظم ذلك: نزول

(١) دلائل النبوة (١/ ٠٦).
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢).
(٣) رواه البخاري (٨٣٨٤).
(٤) رواه البخاري (٦٦٨٣).
(٥) رواه مسلم (٨٧٢٢)
(٦) رواه مسلم (١٦٢).

الوحي بهذا القرآن العَظِيم على هذا الرسول النبي الأمي الذي لا يَعْرِف القِرَاءةَ والكِتَابَة، ومِثْل: نُزُول المطر بعد دعائه مباشرة[١]، ونَبْع الماء بين أَصَابِعِه[٢]، ودعائه في الماء القليل فيكون كثيرًا[٣]، وحَنِين الجِذْع الذي بمسجده عندما ترك الاستناد إليه[٤]، وانْقِيَاد الأشجار والبَهَائِم لأمره ﷺ[٥]، وشهادة الذئب ببَعْثَتِه ونبوته[٦]، وانشقاق القمر نصفين عندما طلبت قريش آية حتى رأوا ذلك[٧]، وتحقق وعد الله له بهزيمة المشركين في بدر، قال تعالى في سورة القمر المكية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤-٤٥]، وخَرَج رسول الله ﷺ من العريش يوم بدر وهو يتلو هذه الآيات، وأخبر ﷺ بمَصَارِع القوم في بَدْر وقال لأصحابه: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ الله»، قال عُمَرُ: «فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ الله ﷺ»[٨]، وأخبر عن مقتل أمراء مُؤتَة قَبْل أن يأتيَ الخبرُ بمَقْتَلِهم[٩].

٣- ما وقع بعد وفاته ﷺ مما أَخْبَر أنه سيقع، فَوَقَع كما أخبر:

فقد أخبر ﷺ عن فتح الحِيرَة، وبلاد فَارِس، وكَثْرَة المال، ففي صحيح البخاري عن عَدِي بن حَاتِم قال: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ:

(١) رواه البخاري (٣٥٨٢).
(٢) رواه البخاري (٣٥٧٣)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٣) رواه البخاري (٣٥٧٥)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٤) رواه البخاري (٣٥٨٥)، (٣٥٨٣).
(٥) رواه ابن ماجه (٤٠٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف ابن ماجه» (٣٩٥٧).
(٦) رواه أحمد (١١٨٤١)، وابن حبان (٦٤٩٤)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٢)، وفي «المشكاة» (٥٤٥٩).
(٧) رواه البخاري (٣٦٣٦) (٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٠) (٢٨٠٣).
(٨) رواه مسلم (٢٨٧٣).
(٩) رواه البخاري (٤٢٦٢).

«فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ -قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ[1] طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا البِلاَدَ-، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى»، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ؛ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»[2].

ومن ذلك:

- إخباره أن ابنته فاطمة ﵂ هي أول أهله لِحَاقًا به[3]؛ فوَقَع الأمر كما أخبر.

﵀ وإخباره أن زينب بنت جحش ﵂ هي أسرع زوجاته لحاقًا به[4]؛ فوقع الأمر كذلك.

---

(١) دُعَّار: جَمْع دَاعِر، والدَّاعِر: الخبيث المُفْسِد، والمراد هنا: قطاع الطريق. انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر) مادة: دعر (٢/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٣٥٩٥).

(٣) رواه البخاري (٣٦٢٦).

(٤) رواه مسلم (٢٤٥٢).

- وإخباره بقتل عمار رضي الله عنه[1]، وبصلح الحسن مع معاوية رضي الله عنهما[2].
- وإخباره بتقليد طائفة من أمته أعداء الإسلام حتى لو دَخلوا جحرَ ضَبٍّ لدخلوه وراءهم![3].
- وإخباره بتنافس أمته في الدنيا حتى أهلكتهم وفرقتهم[4].
- وإخباره ببشارة عظيمة لهذه الأمة، وهي: بقاء طائفة منصورة على الحقِّ إلى قِيَام الساعة[5].

٤- ما لم يقع حتى الآن، ولكنه أخبر ﷺ بوقوعه مستقبلًا: ومِن ذلك: أشراط الساعة التي أخبر بوقوعها ولم تقع حتى الآن، وكذا عود الجزيرة العربية مروجًا وأنهارًا، وخراب الكعبة، وخراب المدينة، وحسر الفرات عن جبل مِن ذهب، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، والخسوفات الثلاثة، بالمشرق، والمغرب، وجزيرة العرب، وخروج الدابة، وكلام السباع والجمادات للإنس[6].

وقد أخبر ﷺ عن فتح القسطنطينية، وروما، كما في مسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، عن أبي قبيل قال: «كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَسُئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَدَعَا عَبْدُ الله بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ، قَالَ: فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ الله: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ نَكْتُبُ، إِذْ سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا: قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَدِينَةُ

(١) رواه البخاري (٤٤٧)، ومسلم (٢٩١٦).
(٢) رواه البخاري (٢٧٠٤).
(٣) رواه البخاري (٧٣١٩) (٧٣٢٠).
(٤) رواه البخاري (٦٤٢٥) (٦٤٢٦)، ومسلم (١٠٥٢).
(٥) رواه البخاري (٣٦٤٠) (٣٦٤١).
(٦) انظر: «أشراط الساعة» ليوسف الوابل (ص: ٢١٠، ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٧٧، ٣٤٧، ٣٧١، ٣٨١).

هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا». يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ»[1].

وقد تحقق الفتح الأول للقسطنطينية على يد السلطان العثماني محمَّد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ[2] الموافق ١٤٥٣م، وبذلك تحقق الشطر الأول مِن الحديث؛ أما الشطر الثاني وهو: الإخبار عن فتح روما فلم يقع حتى الآن، وسيقع بحول الله كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

فوائد معرفة الدلائل:

وهي كثيرة ونشير إلى بعضها، فمنها:

١- زيادة الإيمان والتصديق، وهذا أمر يجده المؤمن في نفسه؛ فإن الإيمان المَبْنِي على العِلْم والمعرفة، والاطِّلَاع على البَرَاهِين الدَّالَّة على ذلك، ليس كالإيمان المُتَلَقَّى تَقْلِيدًا، ومِن المعلوم: أنه كلما زَاد الإنسان مِن المعرفة في الشرع مع توفيق الله وهدايته له فإنه يزيد تصديقُه، ويَتَعَمَّق ويَرسَخ، وكلما عَلِم دليلًا مِن دَلَائِل نُبُوَّة النَّبِيِّ ﷺ زَاد إيمانُه، وتأكَّد تصديقُه وثَبَتَ على الصِّرَاطِ المستقيمِ الذي جاء به النَّبِيُّ ﷺ.

٢- زيادة المحبة لرسول الله ﷺ؛ فإن المحبة من الإيمان، وكلما اطَّلع المسلم على أحوالِ رسولِ الله ﷺ وأخلاقه، ودلائل نبوته، وبراهين صدقِهِ زَادتْ محبتُه، وهذا أمرٌ مُشَاهَد في أَحْوَالِ مَن تُعَاشِر مِن الناس؛ فالذي تُعَاشِرُه كثيرًا وتَعْرِف أحوالَه عن قُرْب تكون صداقتُك ومحبتُك له غيرَ محبةِ مَن لا تَعْرِف عنه إلا أمورًا عَامَّة مُجْمَلَة.

٣- الإيمان والمحبة يدفعان بالمسلم إلى الاقتداء، وتمام التأسي

(١) رواه أحمد (٦٦٤٥)، وقد صححه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» حديث رقم: (٤).
(٢) انظر: «المنح الرحمانية في الدولة العثمانية» لابن أبي السرور الصديقي (ص ٣٩).

والطاعة لأمره ﷺ، والابتعاد عما يَنْهَى عنه والنُّفُور منه؛ فالإيمان والمحبة الصادقة عَمَل وسُلُوك إيجابي، وبَاعِث قوي على الطاعة والاستجابة، وليس مجرد عواطف ومشاعر.

٤ - اليقين الجَازِم بظهور دين الإسلام وبقائه مهما كَثُر البَاطِل وأهلُه. وهذا يزيل اليأس والقُنُوط والضَّعْف الذي قد يُصِيب بعضَ النُّفُوس، فيأتي هذا اليقين الجازم ليدفعها إلى العمل الجاد، والثَّبَاتِ على الحق، والدعوة إليه، وموالاة المؤمنين، والبَرَاءَة من الكفار والمشركين.

النوع الثالث: السِّيَر والمَغَازِي:

والمقصود بها تاريخُ رسولِ الله ﷺ، وجهاده في نشر الدعوة في العهدين: المكي والمدني، ويدخل في هذا النوع تعاملاته المختلفة مع أهله، ومع أصحابه، ومع غير المسلمين، وما يقع مِن الصحابة بين يديه أو يبلغه فيقرهم عليه أو يعدل لهم فيه، وسيأتي تفصيل ذلك في فصول الكتاب.

ثمَرَات دِرَاسة السِّيرَة النَّبوية

الأهـدافُ والمَقَاصِـد التـي ذَكَرْنَـا بعضهـا -فيمـا مَضَـى- ينبغـي أن تُرَاعَـى فـي المنهـج التعليمـي، وأن يجعلهـا المعلِّمـون والمُرَبُّـون نُصْـبَ أَعْيُنِهِـم فـي تدريسـهم وتعاملهـم مـع طُلَّابِهـم، وعلـى أسـاس تلـك الأهداف والمقاصـد تُبنَـى الشَّـخْصِيَّة المُتَكَامِلَـة للفـرد المسـلم والجيـل كُلِّـه، كمـا كان فـي عهـد النبـوة والقـرون المفضَّلَـة.

ومِـن المُقَـرَّر عنـد أَهْـل العِلْـم: أنـه لـن يَصْلُـح آخِـرُ هـذه الأُمَّـة إلا بمـا صَلَـح بـه أَوَّلُهـا، والمنهـج الـذي أخـرجَ خيـرَ الأجيـالِ وأعلاهـا وأكملهـا، حقيـقٌ بالاتِّبَـاع والاهتمـام والاعتمـاد عليـه فـي مناهجنـا التعليميـة والفكرية، وفـي بِنَـاء الأمـة: الاجتماعـي، والسياسـي، والإداري.

والثَّمَـرَات التـي يَجْنِيهـا الـدَّارِس مِـن دِرَاسَـتِه للسِّـيرة النَّبويـة كَثِيـرة وواسِـعَة، وغيـر مَحْصُـورة، لكـن نَذْكُـر بعضهـا:

١- تحقيـق شَـطْر الشَّـهَادة التـي هي الرُّكْـن الأَعْظَـم مِن أركان الإسـلام:

وذلـك بتحقيـق توحيـد المتَابَعَـة للرسـول ﷺ؛ فـإن الشَّـهَادة بـأن محمـدًا رسـول الله، تسـتلزِم أربعـة أمـور كمـا قَـرَّر أهـلُ العلـم[1].

أ- تَصْدِيقُـه ﷺ: فيمـا أخبـر عـن الله، وصفـات كمالـه ونعـوت جلالـه، وأسـمائه وصفاتـه، وعـن أوامـره ونواهيـه، وعـن جَـزَاء المتَّقِين المسـتجيبين فـي جَنَّـات النَّعِيـم، ومـا فيهـا ممـا لا عَيْـن رَأَت، ولا أُذُن سَـمِعَت، ولا خَطَـر

(١) انظر: «الأصول الثلاثة» للشيخ محمَّد بن عبد الوهاب (ص ١٤).

على قلب بَشَر، وما وَصَف لنا رسول الله ﷺ، وما ذُكر فيها لعباد الله المؤمنين، وما ذكر عن عقوبة المُكذِّبين المُعْرِضين مِن العذاب الأليم، في نارٍ تَلَظَّى، وجحيم مُقِيم تَذُوب فيه الجِبَال الرَّاسِيَات، وغير ذلك من الأخبار عن الأمور الغيبية والحوادث المنتظَرَة، وعن الملائكة والجن والشياطين.

ب- طاعته ﷺ فيما أمر: بالاستِجَابَة لأمره، والانْقِيَاد له، وتنْفِيذ ذلك في وَاقِع الحياة بمختلَف صُوَرِها: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والثقافية، وعدم التَّقَدُّم بين يديه، وتقديره، والتَّحَاكُم إلى شَرْعِه، والرِّضَا به، والتسلِيم التَّام له، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

ج- اجتِنَابُ ما نَهَى عنه وزَجَر: فكل ما نَهَى عنه رسولُ الله ﷺ وَاجِبٌ اجْتِنَابُهُ والبُعدُ عنه، وعن الأسْبَاب والوَسَائِل المُفْضِية إليه؛ فإن الوسَائِل لها حُكم المَقَاصِد، وأعظم ما نَهَى عنه هو الشِّرك بكل صُوَرِه وأنْوَاعِه؛ فهو أخطر الذنوب وأعظمُها، وهو أعظم الظُّلْم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»(١). وقال النبيُّ ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(٢).

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).
(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

فاجتناب المنَاهِي والمُحَرَّمَات حَتْمٌ على كلِّ مُكَلَّفٍ، وعلى المرء المسلم أن يجعلَ بينه وبين الحَرَام وِقَايَة وحِمَى؛ حتى لا يَقَع في شيءٍ مِن مَحَارِم الله.

د- أن لا يُعبد الله إلا بما شَرَع رسولُ الله ﷺ وعلى طريقتِهِ ومَنْهَجِه:

وهذا أَصْل في المتابَعَة والاقتِدَاء، وضَابِط في العِبَادة المشروعة، فلا يزيد العبدُ على المشروع ولا ينقص؛ إنما يتَّبِع ولا يبتَدِع، قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[1]. أي: مردود على صاحبه، وغير مقبول عند الله، بل يعاقَب فاعلُه ولا يُثَاب؛ لأنه شَرَّع أمرًا ليس عليه أمرُ رسول الله ﷺ وتَقَرَّب إلى الله بأمرٍ لم يَشْرَعْهُ رسولُ الله ﷺ، وابتَدَع في الدِّين بِدْعَة حتى لو كان قصدُه حَسَنًا، فلا يكفي حسنُ النَّوَايَا بل لا بد مِن الدَّلِيل الشَّرْعِي؛ فإن العبادة ليست بالهوى والرَّغْبَة، والاسْتِحْسَان العقلي؛ إنما هي بالاتباع لهَدْي النَّبيِّ ﷺ والاستِمْسَاك بالكِتَاب والسُّنَّة.

٢- زِيَادة المَحَبَّة للرَّسُول ﷺ:

مِن ثَمَرَات دِرَاسة السِّيرة النَّبوية: زِيَادة المحبة للرسول ﷺ المقتضِيَة لزيادة الإيمانِ، والرغبةِ في المتابعة، والطاعةِ لأمرِهِ، واجتنابِ نهيهِ، وتوقيرِهِ واحترامِ أمرِهِ، والاهتداءِ بهَدْيِهِ، وترك البِدَع والخُرَافَات التي أَحْدَثَها أهلُ الأَهْوَاء ومَن لا عِلْم لهم، مِثْل: المُغَالاة في الإطْرَاء والتقديس المنهي عنه، الذي يُلْغِي الطبيعةَ البشرية للرسول ﷺ، وقد نَهَى ﷺ عن ذلك فقال: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ الله، وَرَسُولُهُ»[2].

(١) رواه مسلم (١٧١٨).
(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

وهـذا الغُلُـوُّ تَرَتَّـب عليـه كثيـرٌ مِـن المخَاطِـر العَقَديَّـة والتَّربَويَّـة، وأبعـدَ شـخصيةَ الرسـول ﷺ عـن مَجَـال المتابعـةِ والاقتـداءِ، وأحـلَّ تلـك المتابعـةَ والأسـوةَ فـي الشـيوخ المربِّيـن الذيـن يَسْـلُكون هـذا المَسْـلَك، ويصـوِّرون فـي أَذْهَـان أتباعِهِـم هـذه الصـور عـن رسـول الله ﷺ؛ ليكونـوا هـم بطُـرُقٍ خاصـة ومُجَاهَـدَات -كمـا يذكـرون!- الذيـن ينقلـون الصـورة ويتمثَّلُونهـا، والأتبـاع يقتـدون بهـم!

إن شـخصيةَ الرسـول ﷺ شـخصيةٌ إنسـانيةٌ بشـريةٌ، كمَّلهـا الله بالوَحْـي، وعَصَمَهـا مِـن الخطـأ فـي إبـلاغ الرسـالة عـن الله؛ فهـذه ميزتُـه العُظْمَـى أنـه رسـول يُوحَـى إليـه، وقـد خَضَـع فـي حَمْلِـه وولادتـه، ورضاعتِـه، وشـبابِه، ومرضِـه، ووفاتِـه، وسـائرِ أحوالـه للسُّـنن الفِطْريَّـة والقوانيـن الطبيعيـة التـي يَخْضَـع لهـا سَـائِرُ البَشَـر؛ فلقـد كان حملُـه طبيعيًّـا اسْـتَغْرَق مُـدَّة الحمـل الطبيعيـة نفسـها، كمـا كانـت ولادتـه طبيعيـة كسـائر الـولادات، وعَانَـى مِـن فَقْـد الأم والأب ككثيـرٍ مـن البَشَـر، وخَضَـع لكفالـة الأقـارب.

ولمـا بَلَـغ سَـنَّ الشَّـبَاب عَمِـل فـي الأعمـال الموجـودة فـي مجتمعـه: كالرعـي، والتجـارة، وتَـزَوَّج وأنجـب، وفَقَـد الابـن، والبنـت، والزوجـة، والصديـق، وتَعَـرَّض لـلأذى والمَـرَض، والنَّصْـر والهَزِيمَـة، وجُـرِح فـي الحَـرْب، ممـا يمكـن أن يَحُـلَّ بـكلِّ إنسـان[1].

إن حقيقـةَ المحبـةِ للرسـول ﷺ تسـتلزِمُ سُـلُوكَ طريقتِـهِ وهَدْيِـهِ، واتبـاع سـنتِهِ وتطبيقِهـا فـي واقِـع حياتِنـا وسـلوكِنا؛ محبـةً وتقديـرًا، وإجـلالًا، وتعظيمًـا، وتجريـد التوحيـد لله ﷻ، والابتعـاد عـن وسـائل الشـرك والحـذر منهـا، وتـرك الغلـو والاعتقـاد فـي الأمـوات والمقبوريـن.

(١) مقدمة السيرة النَّبوية قراءه لجوانب الحذر والحماية، لعمر عبيد حسنة (ص ٧٠).

٣- التَّعَرُّف على مَنْهَج النَّبيِّ ﷺ في الدَّعْوَة:

مِن دراسة السيرة النَّبوية بمختلف مواقِفِها وصورِها: نَتَعَلَّم المنهجَ الدعوي الذي سَار عليه رسولُنا ﷺ، وكيف تَعامَل مع أخطاءِ الناس، وجفاءِ الأعراب، ومكايدِ الأعداء، ودسائسِ المنافقين؛ فقد كان رؤوفًا رحيمًا، وكان حَرِيصًا على هِدَاية الخَلْق إلى الحَقِّ، وكان حَكِيمًا في مُعَالَجة المشكِلَات والمواقف المختلفة، وكان حليمًا يعذُر الجَاهِلَ حتى يتعلَّم، وبهذا المنهج وهذه الأخلاق استطاع رسولُ الله ﷺ إخراجَ الأمة الأمية من ظُلُمات الجَهْل والتَّعَصُّب، والشَّتَات والتَّفَرُّق، إلى نُورِ الإسلام، وهدايةِ الرحمنِ، والتَّرقِّي في ذلك حتى كانت خيرَ أمة أخرجتْ للناس.

إن النَّاظرَ في أحوال العرب في جاهليتهم، وما فيهم من قسوة الطباع، وقوة العصبية، والتعلُّق بعبادة الأصنام، وطاعة الجان والكهان، وتقديس التقاليد والعادات، وموروث الآباء والأجداد من غير تأمُّلٍ ولا بُرهَانٍ؛ ليعجب: كيف تحوَّلت أخلاقُها وتبدَّلت طباعُها في وقتٍ وجيزٍ؛ فصارتْ أمةً ذات عِلْم وحَضَارة، وأخلاقٍ ساميةٍ، وجهادٍ في سبيل الله لهداية الخلق جميعًا إلى الهُدَى والنُّور؟!

لقد كان رسول الله ﷺ ممتثِلًا لقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال عبد الله بن الزبير -كما في صحيح البخاري[١]-: «أُمِر رسولُ الله ﷺ أن يأخذَ العفوَ مِن أَخْلَاق النَّاسِ». أي: يتجاوز عن أخطائهم، وما لا ينبغي مِن أقوالهم وأفعالهم.

(١) رواه البخاري (٤٦٤٤).

والوَقَائِع الدَّالَّة على ذلك كَثِيرة جدًّا، منها:

- قصة الأعرابي الذي جَذَب بِرِدَاء رسول الله ﷺ، حتى أَثَّرَت حاشيةُ الرِّدَاء في صفحة عاتِقِه ﷺ طالبًا منه أن يعطيه مِن مال الله، فكان رَدُّ رسولُ الله ﷺ أن نَظَرَ إليه بكل هُدوء ثم تبسَّمَ في وجهه، وأمر له بعطاء![1].

- وقصة الشاب الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا» . قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا، وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَالله يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» . قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» . قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[2].

فقد نَاقَشَ النَّبِيُّ ﷺ الشَّابَّ مناقَشَةً عقلية منطقية، وأحسن التصرُّفَ معه، ولم يزجره وينهره رَغْم الجرأة وسوء الأدب في طلبه، وتَدَرَّج معه في الخِطَاب حتى اقتنع، وتبيَّن له خطؤه في هذا الطَّلَب.

---

(١) رواه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٢١١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» حديث رقم: (٣٧٠).

وقصة الأعرابي الذي بال في طائفة من المسجد النبوي، فكان التصرُّفُ معه حَكِيمًا مُرَاعيًا لعددٍ مِن المَصَالِح الشرعية[1].

والمنهج النبوي في الدعوة مستمدٌ مِن قول الله ﷻ له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فمَعَالِم المنهج النَّبَوِيِّ في الدعوة من خلال الآية السابقة، هي:

الإخلاص لله وابتغاء ثوابه، والدعوة إلى سبيلِهِ وَحْدَه لا سبيل غيرِه.

العلم الشرعي بكلِّ ما يدعو إليه مِن عقائدَ وأحكامٍ، وآدَاب، وهو الحكمة المأمور بها في الآية.

التذكير بالله وصفاته ودلالات تلك الصفات والأسماء، وبعظمته ودقة خلقه وبديع صنعه، واستشعار رقابته، وإحاطته بالعبد، وبيان ثوابه وعقابه، والدال عليه مِن الآية قوله: ﴿وَالْمَوْعِظَةِ﴾.

الرحمة والشفقة بالمدعوين، والإحسان إليهم، وإلانة الكلام معهم حتى تكونَ الموعظة والتذكير حَسَنة، وإحْسَانًا.

استعمال الأسلوب الأَمْثَل والمُنَاسِب لكل حَالة، والمعبَّر عنه في الآية بالحِكْمَة، والتي تعني وضع الشيء في مَوْضِعِه، وهذا أحد معانيها.

٤- التعرف على مَنْهَج النَّبيِّ ﷺ في العبادة والسلوك مِن أهمِّ مَعَالِم المنهج النبوي في العبادة والسلوك:

(١) رواه البخاري (٦٠٢٥)، ومسلم (٢٨٥).

- إخلاصُ العبادة لله ﷻ، وعدم تحميل النَّفْس ما لا تُطِيق، والحثُّ على لُزُوم السُّنَّة والجماعة، والحَذَر من البِدَع والمُحْدَثَات. وأنه إذا عَمِل عَمَلًا دَاومَ عليه، وقال: «**أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا، وَإِنْ قَلَّ**»(١).

- كثرة الذكر لله ﷻ، والمحافظة على الأذكار في كلِّ أحواله؛ أذكار الصباح والمساء، والذكر عقب الصلاة، والذكر المطلق، والذكر في المناسبات، (عند دخول المنزل، وعند الخروج منه، وعند النوم، وعند دخول المسجد، وفي السفر، وعند ركوب الدابة، إلخ). وكثرة الاستغفار والتوبة، واللجوء إلى الله، وكذا الصيام، والصَّدَقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحُسْن المُعَاشَرَة للناس ولأهله.

- الزُّهْد في الدنيا، والزَّاهِد هو الذي يجعل الدنيا في يده لا في قلبه، فينفق ما يحصله منها في طاعة الله، مما يجب عليه مِن النفقات، وفي سدِّ حاجة المحتاجين؛ فإن هذا الإنفاق هو الباقي للإنسان الذي يُحسب في رصيده في الآخرة؛ فقد رَوَتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂: أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»(٢).

فهذا الحديثُ وأمثالُه يبيِّن حقيقةَ معنى الزُّهْد، وأنه فِعْل إيجابي تِجَاه النَّفْس والمجتمع، وليس أمرًا سلبيًّا -كما قد يفهم البعض!- أو قعودًا عن الكَسْب والعَمَل، وقد قال النبي ﷺ: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»(٣).

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٧٨٣).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» حديث رقم: (٢٥٤٤).
(٣) رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

وقد قال أهل العلم: «إن الزهد هو ترك ما لا ينفع في الآخرة»[1]. أي: والحرص على ما ينفعك في الآخرة.

الورع، وهو: ترك ما تُخْشَى عقوبتُه في الآخرة. أي: مما لم تَتَّضِح حُرْمتُه، لكن فيه شُبْهَة، أو في تَرْكِه صِيَانة للعِرْض، أما المحرَّم فمِن الواجب تركُه وليس مِن الورع فحسب، وقد قال ﷺ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»[2]. فالورع استبراء للدِّين والعِرْض.

٥- تَنْمِيَةُ الوَلَاء للنبيِّ ﷺ، والبَرَاءَة مِن أعدائِه في المَاضي والحَاضِر:

في دراسة السيرة النَّبوية والاطلاع على أحواله ومواقفه ﷺ، وأحوال الصحابة رضي الله عنهم، ينمو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ويَزْدَاد ويَتَرَسَّخ، ويَتَرَتَّب على هذا: البَرَاءَة مِن الكفار والمشركين، وكل أعداء الملة والدِّين في الماضي والحَاضِر، مع العدل والقسط وَفْق أحكام الشريعة. والولاء والبراء من أعظم العناصر التي تُحَافِظ على هُوية الأُمَّة وتَمَيُّزِها، وهو حِصْنٌ قَويٌّ يجب الاهتمام به حتى تَضْمَن الأمةُ استقلالَ شخصيتِها وتميُّزها.

والولاء والبراء عَمَل قلبي مؤثِّر في السُّلُوك، ومُنْضَبِط بأحكام الشريعة، ويَرْتَبِط بالمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥) وما بعدها.
(٢) رواه البخاري (٥٢) (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الله أَلَا إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٦- التَّعَرُّف على آثارِ فُتوحات وتضحيات في تحرير الأمم والشعوب:

مِن ثَمَرَات دِرَاسة السيرة النَّبوية: التَّعَرُّف على آثار ما بذله المسلمون في تحرير الأمم والشعوب، وإزَالَة الظُّلْمِ عنها، وإخراجِها مِن الظُّلُمَات وعِبَادة الطاغوت، إلى عَدْل الإسلام ورحمته، وتحكيم شرعه الذي ضَمِن لهم العَدْل وتحقيق الإنسانية الحَقَّة، وممارسة الإنسانِ لحقوقِه الطبيعية الفطرية كما أَرَاد له خَالِقُه، فأُتِيحَت له الحرية، وأُزِيلَت من أمامِه العَوَائِق التي تمنعه من الاختيار الصحيح؛ فإن هذه الفتوحات كما هو معلوم ليس لإجبار الناس على اعتناق الإسلام، وإنما هو لإزالة المَوَانع والحَوَاجِز والأنْظِمَة التي تَصُدُّ عن سبيل الله، ولا تتيح الحرية للناس ليختاروا لأنفسهم بعد تَمَعُّنٍ وتَأَمُّل في دَلَائِل التَّوْحِيد، وهم يَرَوْن أمام أعينهم النموذج المثالي مطبَّقًا في الوَاقِع بكل نظافتِه وعدله واستقامته، فلا يكتفون بدعوتهم إلى مُثُلٍ ونظرياتٍ جميلةٍ غير مطبَّقةٍ في الواقع، وإنما يدعونهم إلى أمرٍ بَيِّن يشاهدون تطبيقه في الواقع.

إنها فتوحات لتمكين الناس مِن رؤية الحق وَاقِعًا مُعَاشًا، ولذلك كانت الفتوحات الإسلامية ذات طبيعة مستقرة؛ لأنها مطابقة للفِطْرَة التي فَطَرَ الله الناس عليها، فاستقبلتها النفوس السليمة بكل ترحابٍ

وقَبلَتْها؛ فالفتوحات الإسلامية وجهاد النَّبيّ ﷺ إنقاذ للبشرية من ظلمِ بعضهم بعضًا، ومن جَوْر الأَدْيَان المُبْتَدَعَة والمُحَرَّفة إلى رَحْمَةِ الإسلامِ وعَدْلِه، وسَعَة الدنيا والآخِرَة كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه أمام رستم: «إنَّ اللهَ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ العِبَاد مِن عِبَادَة العِبَاد إلى عِبَادَة ربِّ العِبَاد، ومِن جَوْر الأَدْيَان إلى عَدْلِ الإسْلَام، ومِن ضِيقِ الدُّنْيَا إلى سَعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَة»[1].

٧- بَيَانُ مَوْقِف الرَّسُولِ ﷺ من المنافقين ومَكَائِدِهِم:

مِن ثَمَرَات الدراسة للسيرة النَّبوية: التَّعَرُّف على موقفِ الرسولِ ﷺ من النِّفَاق والمنافقين، وكيف تَجَاوَز مكائدهم الكثيرة حتى فَضَحَهم الله، وعرفهم رسولَ الله ﷺ بسِيمَاهم ولحنِ قَوْلِهم، بل عَرَّفه الله بأسمائِهم، فأخذ المسلمون حِذْرَهم منهم، رَغْم ما أَصَاب بعضُهم مِن آثار دَسَائِسِهم، بل حتى رسولَ الله ﷺ وَصَلَه أذاهُم في أهلِه عندما جاء عُصْبَةٌ منهم بالإفْكِ، لكن جَعَلَ الله في ذلك خَيْرًا، ورَفَع دَرَجَةَ مَن ابْتُلي مِن المؤمنين بسببهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النور: ١١][2].

وهذا فيه درس للمؤمنين على مَرِّ الأزمان؛ ليأخذوا حذرهم ويحتاطوا في أمرهم، ولا يقعوا في شيءٍ مِن حَبَائِلِهم ودعاواهم التي يُزَخْرِفُونها ويُظْهِرون منها إرادةَ الإصْلَاح وهم في وَاقِع أمْرِهم مُفْسِدون مُخَادِعون للهِ ولرسولِه وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، كما قال

(١) تاريخ الأُمم والرسل لابن جرير الطبري (٣/ ٥٢٠).

(٢) انظر تفصيل ذلك في صحيح البخاري (٤٧٥٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٧)، وتفسير ابن كثير (٦/ ١٩ - ٢٦).

تعالى في وصفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

٨- الاطِّلَاع على مَوَاقِف اليهود من الرِّسَالَة والرَّسُول ﷺ:

مِن الثمرات المهمة: التَّعَرُّف على مواقف اليهود مِن الرسالة والدعوة النَّبوية، فقد عَامَلَهم رسولُ الله ﷺ عن قُرْبٍ، وعَقَدَ معهم مُعَاهَدَاتٍ ومواثيقَ، ولكنهم غَلَب عليهم طَبْعُهم وحَلَّتْ عليهم الشَّقَاوَة، فَنَقَضوا العهدَ معه قبيلة تِلْوَ الأخرى، وحَاق بهم نتيجة غَدْرِهم، ومَكَّن الله رسولَه منهم؛ فأجلى بَعْضَهم، وقَتَلَ بَعْضَهم جَزَاءَ غَدْرِهم وخِيَانَتِهم العُظْمَى في مَيْدَان المُوَاجَهَة مع الأحزاب الكافرة، فكان ذلك حُكمَ الله فيهم، وقضاءَه العَادِل؛ لشَنَاعَة فِعْلِهم ومَكْرِهم بالمؤمنين.

فأين المعتبرون؟!

وكيف يُوثَق في يهود وهذا تاريخهم؟!

وقد عَرّفنا الله مِن أخْبَارِهم مع رُسُلِهم مِثْل هذه المواقف الغَادِرَة، والطُّرُق المُلْتَوِيَة، وواقِع التَّعَامُل معهم في قضية فلسطين يثبت هذا الخُلُق المُتَأَصِّل في المحاربين منهم، وأنهم كلما عَاهَدُوا عهدًا نَبَذَه فريقٌ منهم، قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

٩- عدم اليأس والثِّقَة بِنَصْر الله لدينه ولأوليائه الصالحين:

المُطَّلِع على سيرة النَّبيِّ ﷺ وسَيرِ دعوته، يُلَاحِظ في أول الأمر شدةَ

الضُّغُوط التي وَاجَهَها ﷺ ثم يَرَى بعد ذلك انتقالها من نصرٍ إلى نصرٍ، وازدياد أتباع الدعوة مِن أهل مكة، ثم مِن النُّزاع مِن القَبَائِل رغم الأَذَى الشَّدِيد والمواجَهَة القوية من المشركين، وتنويعهم الأساليب في محاربة الدعوة وأهلها، ويدرك بكل يقينٍ عِنَايَة الله وتوفيقِه لرسوله ﷺ وللمؤمنين ونصرهم على عَدُوِّهِم، وهذا مما يُقَوِّي الثِّقَة في نُفُوس المؤمنين في كلِّ مكانٍ وكلِّ زمانٍ، بأن العاقبةَ لهم، والتمكين سيكون لدينِه وحملتِه، فيجدُّوا ويجتهدوا ويثبُتوا حتى يأتيهم النصرُ، وما يرونه من ظُهورِ الكفارِ وسيطرتهم في فَتْرَة من فَتَرَات الزَّمَن لن يكون وَضْعًا دائمًا، بل سَيَزُول ويَظْهَرُ أهلُ الحَقِّ، وهذا مِن أعظمِ العَوامِل على محاربة اليأس، والقيام بالواجب الشرعي حسب المقدرة والاستطاعة، والاجتهاد في ذلك، ومغالبة الكفار حتى يمتلك المسلمون زمامَ القوة وعُدَّة النَّصرِ عليهم.

واعلم أن النصرَ مِن الله، وله شروطٌ ومستلزماتٌ لا بد مِن التَّحَقُّق بها حتى يأتيَ نصرُ الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فشرط التمكين والاستخلاف في الأرض، وحصول الأمن وانتفاء الخوف، هو: عبادة الله وحده لا شريك له، الذي هو الإيمان والعمل الصالح المذكور في أول الآية.

١٠- التَّمَسُّك بالدِّين والصَّبْر على ما يُلَاقي المرءُ في طَرِيق الدعوة:

لقد لَاقَى رسولُ الله ﷺ صُنُوفًا مِن الأَذَى في سبيل الدعوة إلى الله، وإبلاغ ما أُنْزِل إليه مِن رَبِّه؛ فقد اتهمه المشركون في عقلِه وسُلُوكِه، وهو بَرِيء مِن ذلك، وأعداؤه يَعْرِفون هذا، لكن الخصومة والمغَالَبَة والاعْتِدَاء وَصَل بهم إلى هذا الأمر، فقالوا عنه ﷺ: إنه مجنون، وشاعر، وساحر! وقالوا عن ما جاء به مِن الوَحْي والهُدَى: أساطير! ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ فَرَدَّ الله عليهم كَذِبَهم فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣][(١)]؛ لأنهم ادَّعوا أن الرسولَ ﷺ يأتي بالقرآن مِن عندِ رَجُلٍ نصراني، كان يمتهن النِّجَارَة عند الصَّفَا، وهو أَعْجَمِي، وهذا القرآن: لسان عربي مبين؛ فكيف يَتَّفِق أن يأتي الأعجميُ الذي لا يَعْرِف العربيةَ بهذا القرآن العربي الفَصِيح؟!

إن هذا محال!

ولكن كما قيل: الخصومة حجاب سَاتِر عن إدراك الحق.

لقد وَاجَه رسولُ الله ﷺ كلَّ أَنْوَاع الأَذَى في العَهْدِ المَكِّي بالصَّبْر[(٢)]، وكذلك أصحابه صَبَروا على ما لا يُصْبَر عليه عَادَة، مع أنهم عَرَب، وعَاشُوا في بيئةٍ تتصف بسرعة الغضبِ والانتقامِ، وتُقَدِّس الثَّأْر.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٣)، والسيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٣).

(٢) ومع ذلك أخذ ﷺ في البَحْث عن مَخْرَج مِن الوَضْع الذي هو فيه؛ فأَذِن لأصحابه بالهِجْرَة إلى الحَبَشَة، ثم أخذ يَسْعَى في طَلَب النُّصْرَة من خَارِج مَكَّة حتى وَجَدَ الأنصار، فَهَاجَر، ثم شَرَعَ الله له الدفاع، فَجَاهَد ورَدَّ الأَذَى عن أصحابه، ولكن يَبْقَى الصبر له قيمته وأثره، والدفع محتاج للصبر، والعبادة محتاجة للصبر للقيام بمتطلباتها، وترك المعاصي والشهوات محتاج للصبر؛ فهو صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على أَقْدَار الله المؤلمة.

وحـروب العـرب وأيامهـا فـي الجاهليـة غالبهـا كانـت لأسـبابٍ تافهـةٍ: كحـرب البَسُـوس، وحـرب دَاحِـس والغَبْـرَاء[1].

إن الصبـرَ قيمـةٌ خُلُقِيَّـة مرتبطـةٌ بالإيمـان بـالله واليـوم الآخِـر، والإيمـان بـأن مـا يَفُـوت الإنسـانَ فـي الدنيـا يأتيـه فـي الآخـرة؛ ولهـذا لمـا آمَـن الصحابـةُ بمعانـي الصبـرِ هـذه تحمَّلـوا الأَذَى؛ حتـى إن سـميةَ أمَّ عَمَّـار ﷺ، وهـي جاريـة ضعيفـة لا يُؤْبَـه لهـا فـي مجتمـع مَكَّـة، تَصْمُـد أمـام الجَبَابِـرَة ولا يَفْرَحـوا منهـا بكلمـةٍ تَخْـدِش فـي دينِهـا حتـى لَاقَـت وجـهَ الله شـهيدةً فـي سـبيل الله.

وبـلال ﷺ يعجزهـم رَغْـم مـا صبُّـوا عليـه مِـن الأَذَى، وكثيـرٌ مِـن الصحابـة ﷺ أصابهـم الأذى وصَبَـروا، ورسـول الله ﷺ ناله الأذى الجسـدي بعـد الأذى المعنـوي، فضُـرِب وحُوصِـر، وأُخـرِج مِـن أرضِـه وأحـبِّ البِـلَادِ إليـه مكـة المكرمـة، فَصَبَـر وضَحَّـى بذلـك حتـى أظهـره الله عليهـم، ومَكَّنَـه منهـم يـوم الفتـح، فمـا انتقـم، ولكـن عَفَـا وأَكْـرَم[2].

قـال تعالـى: ﴿وَالْعَـصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَـفِي خُـسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ وَتَوَاصَـوْا بِالْحَـقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ﴾ [العصـر: ١- ٣].

وقـال تعالـى: ﴿وَلَمَـنْ صَـبَرَ وَغَفَـرَ إِنَّ ذَلِـكَ لَمِـنْ عَـزْمِ الْأُمُـورِ﴾ [الشـورى: ٤٣].

وقـال تعالـى: ﴿وَإِنْ تَصْـبِرُوا وَتَتَّقُـوا لَا يَضُرُّكُـمْ كَيْدُهُـمْ شَـيْئًا﴾ [آل عمـران: ١٢٠].

(١) انظر: نهاية الأرب للنويري (١٥/ ٣٩٦).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٢- ٤٢٦).

جُغْرَافِيَّة بِلَاد العَرَب

بِـلَاد العَـرَب هـي شِـبْه جَزِيـرَة تَحُدُّهـا البِحَـار مِـن ثَـلَاثِ جِهَـات: البحـر الأحمـر مـن الغَـرْب، والخَلِيـج العَرَبِـي مـن الشَّـرْق، وبَحْـر العَـرَب مـن الجَنُـوب. وقـد تُسَـمَّى: جَزِيـرَة العـرب مِـن بـاب التَّغْلِيـب، وهـي تقـع فـي الجـزء الجنوبـي الغربـي مـن قـارة آسـيا، وتمثِّـل رابطًـا بيـن قـارات العَالَـم القديمـة: آسـيا، وإفريقيـا، وأوروبـا، وهـذا الموقـع أكسـبها أهميـةً تجاريـة وسياسـية؛ حيـث تمـر بهـا أشـهر الطُّـرُق التجاريـة القديمـة التـي تربـط آسـيا مـع دول حـوض البحـر المتوسـط.

والجزيـرة العربيـة تمثِّـل مـع امتدادِهـا فـي بـلاد الرافديـن والشـام ومـص، أرض النُّبُـوَّات ومَهْـد الحَضَـارَات، وتنقسـم جغرافيـة بـلاد العـرب إلـى أقسـام:

١- تِهَامَـة، وهـي: الشـريط السَّـاحِلي علـى البحـر الأحمـر الممتـد مـن خليـج العقبـة فـي الشـمال حتـى بـاب المَنْـدَب فـي اليمـن جنوبًـا، ويَضِيـق ويتَّسِـع بحسـب قُـرْب جبـال السَّـرَوَات مـن البحـر أو بعدهـا.

٢- الحِجَـاز، وهـي: سلسـلة مـن المُرْتَفِعَـات الفَاصِلـة بيـن تِهَامَـة ونَجْـد، وهـي مُوَازِيَـة لتِهَامَـة مـن الشـرق، وتُسَـمَّى: جبال السَّـرَوَات، واسـم الحجـاز يشـمل: الجبـال والسَّـاحِل خاصـة، مِـن الليـث جنوبًـا إلـى المدينـة ويَنْبُـع شَـمَالًا.

٣- نَجْد، وهي: ما ارتفع من الأرض شرقي جبال السَّرَوَات وتأخذ في الامتداد شمالًا إلى صحراء النفود الكبير، وشرقًا إلى صحراء الدَّهناء الفَاصِلة بين نجد والأَحْسَاء، ويقع في قلبها: مدينة الرياض، وفي طرفها الشمالي الغربي: منطقة القَصِيم، وفي جنوبها: وادي الدواسر والأفْلَاج والخرج، وفي شمالها: حَائِل.

٤- الأحساء والبحرين، وما جاورها على الخليج العربي، إلى الكويت في رأس الخليج.

٥- اليمن، وتشمل الجزء الجنوبي من جبال السروات وما يقابلها من سَهْل تهامة إلى عَدَن.

٦- حضرموت وعُمَان وإمارات الخليج العربي، (دولة الإمارات العربية المتحدة وقَطَر).

٧- صحراء الرُّبْع الخَالِي في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، ولها امتدادان إلى الشمال، أحدهما: صحراء النفود غربي الرياض، والثاني: صحراء الدهناء شرقيها، ويشكِّلان في شمال الجزيرة صحراء النفود الكبير. ومناخ جزيرة العرب صحراوي ما عدا المرتفِعَات التي يعتدل جَوُّها صيفًا، والأمطار قليلة، لكنها على المرتفعات الجنوبية أكثر، ويوجد بها عددٌ من الواحات التي اشتغل أهلُها بالزراعة، أما الغالبية من السكان فكانوا في زمن البَعْثَة يعملون في الرعي، وينتقلون من مكانٍ إلى آخر حسب الخصب ونزول المطر، ويشتغل طائفةٌ منهم بالتجارة؛ خاصة أهل مكة واليمن وحَواضِر الخليج.

وقد امتنَّ الله على قريش بالأمن، وبرحلتي الشتاء والصيف التي يرحلونها في التجارة وطلب الرزق. قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١

إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قريش: ١- ٤].

وتعتبر الجزيرة العربية موطن الشعوب السامية، وقامت بها عددٌ مِن الدول والحواضر القديمة، مثل: عَاد قوم هود بالأحْقَاف، ومثل: ثَمود قوم صالح بالحجاز وشمال الجزيرة، ومثل: أهل مَدْيَن قوم شعيب في الشمال الغربي للجزيرة، ومثل: دول مَعِين، وسبأ، وحِمْيَر في اليمن، ودولة كِنْدة في نَجْد، كما قامت في مكة المكرمة بعد بناء إبراهيم وابنه إسماعيل الكعبة المشرفة إمارات الجُراهِمة، ثم خُزَاعَة، ثم قريش حين جَمَعَهم قُصَيُّ بن كِلاَب.

مكانة مكة المشرفة وحرمتها

لقد أَمَر الله ﷻ أن تكون مَكَّةَ بَلَدًا آمنًا، وحَرَمًا مُعَظَّمًا، فَشَرَع حرمتها يوم خلق السماوات والأرض، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة: « ... فَإِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا»[1].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ممتنًا على قريش أهل البلد الحرام: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ... ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

فمكة المشرَّفة جعلها الله واحةَ أمنٍ وسَلَامٍ، وشَرَع ذلك وأَوْجَبَه؛ يأمن النَّاس كلهم، بل حتى الطير والنبات، ومَن دَخَل مكة وَجَبَ أن يُؤمَّن ولا يُؤذَى؛ فهو بجوار بيته الذي وضعه للطاعة والعبادة وبارك فيه، وجعله سببًا للهداية وأقام فيه آياتٍ بيناتٍ، منها: مَقَامُ إبراهيم الذي رَفَع قَوَاعِدَ البيتِ بأمر الله، وطهَّره للطائفين والقائمين، والعاكفين،

(١) رواه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

والركع السجود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

فهو مثابة للناس يثوبون إليه؛ أي: يرجعون مرة بعد مرة؛ لما يجدون في ذلك مِن الخير العظيم، وتكفير الذنوب والسيئات، ومضاعفة الحسنات، وما فيه مِن الأمن والراحة والطمأنينة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

ففي هذه الآية: بَيَان لأهمِّ وَسَائِل الأمن، وهو: توحيد الله، والبُعد عن الشرك ووسائله وأسبابه.

وقد حَذَّر النَّبيُّ ﷺ من ذلك فقال: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَه»(١).

ورَوَى الإمام أحمد من حديث عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الْحُرْمَةَ -أي: حرمة مكة- حَقَّ تَعْظِيمِهَا، فَإِذَا تَرَكُوهَا وَضَيَّعُوهَا هَلَكُوا»(٢).

ألا فليتقِ اللهَ سُكَّان حَرَمِ الله والوافِدين إليه وليعظِّموا هذا الحَرَم، بإقامة شَعَائِرِ الله وتعظيمها: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢).

(٢) رواه أحمد (١٩٠٤٩)، وابن ماجه (٣١١٠)، وحسنه ابن حجر كما في «الأربعين المكية» حديث: (١٣).

تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وليحذَروا مما حَذَّر الله منه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

فهذا وعيد شديد لمن يَهُمُّ بسيئةٍ في حَرَم الله؛ فكيف بمَن فَعَل السيئةَ، أو تَرَكَ الواجبَ عليه مِن: الصلاة، والزكاة، والصوم، وبرِّ الوالدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلخ.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ في تفسير الآية السابقة: «لَوْ أن رَجُلًا هَمَّ فِيه بإِلحَادٍ وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ؛ لَأَذَاقَهُ الله عَذَابًا أَلِيمًا»(١).

ومِن العجب: أن أهلَ الجاهلية كان لهم نصيبٌ من تعظيم البلد الحرام، ومُرَاعَاة حُرْمَتِه؛ فكان أحدُهم يَلْقَى قَاتِلَ أبيه أو أخيه في البَلَد الحَرَام فلا يعرض له حتى يَخْرُج مِن البَلَد الحَرَام، وإذا أصابتهم غارةٌ أو اعتداءٌ لجأوا إلى الحرم للاحتماء به. وهذه امرأة من أهل الجاهلية توصي ابنها بتعظيم الحرم، وتحذِّره مِن الظُّلْمِ فيه، فتقول:

أُبُنَيَّ لا تَظْلِم بمكةَ... لا الصغير ولا الكبير

أبني مَن يَظْلِم بمكة... يَلْقَ آفات الشرور

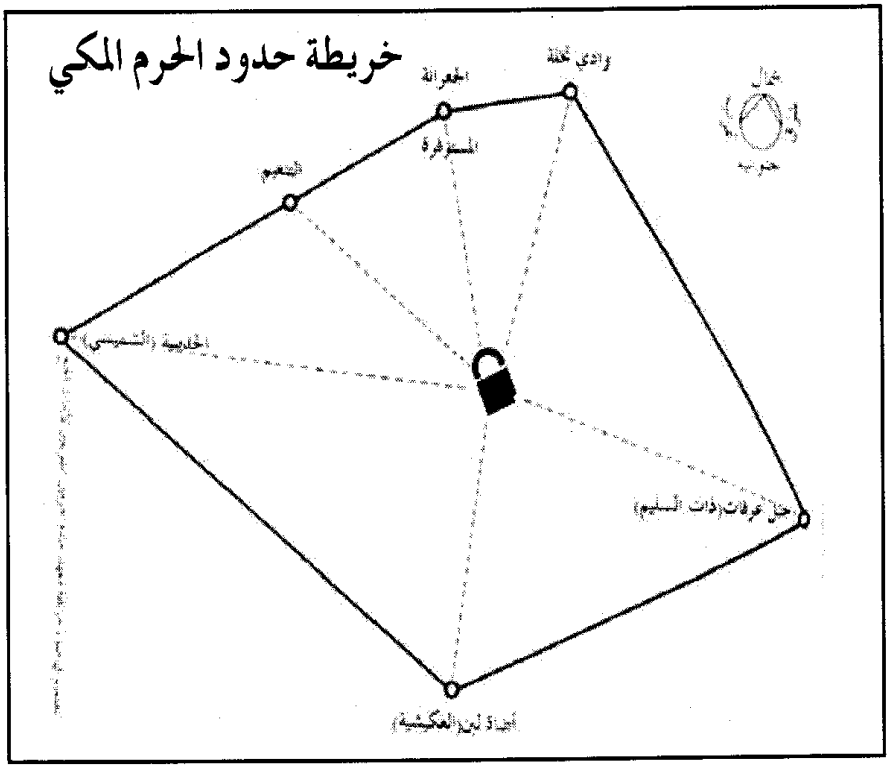
أبني قد جَرَّبْتُهَا... فوجدتُ ظَالِمَها يَبُور

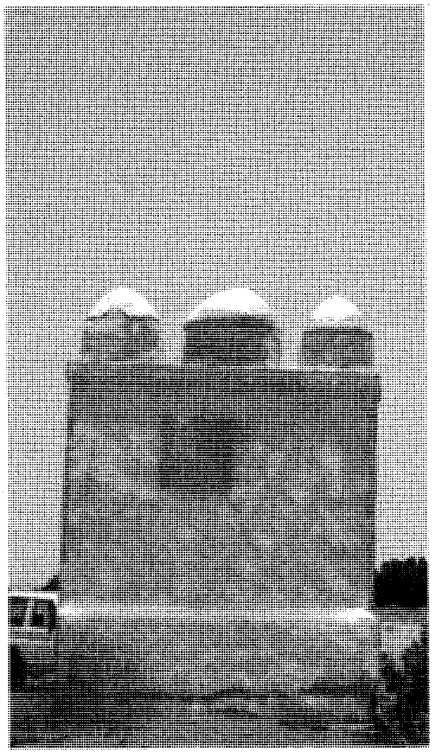
لقد أحاط الله مكة بثلاث دوائر؛ تعظيمًا لها، وحمايةً لحرمها، وسمَّاها: أمَّ القُرَى؛ لأن القُرَى كلها ترجع إليها؛ ففيها الكعبة المشرفة قِبْلَة المسلمين.

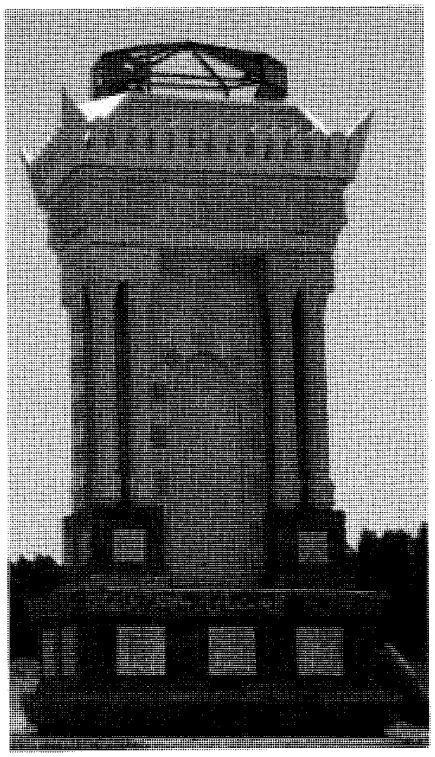
(١) رواه أحمد (٤٠٧١)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤١١)، وقال: «إسناده صحيح على شرط البخاري».

الدائـرة الأولـى: دائـرة الحـرم بحـدوده المعلومـة، حيـث بيَّنهـا الله لإبراهيـم عليه السلام، ووضـع لهـا أعلامًـا تَوارَثَهـا النَّـاسُ حتـى بعثـة النَّبـيِّ ﷺ، فأمـر بتجديـد أعـلام الحـرم، ثـم قـام عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه فـي خلافتـه بتجديدهـا، ومـا زال أمـراء المسـلمين وحُـكَّام البلـد الحـرام يعتنـون بهـذه الأعـلام ويجدِّدونهـا؛ لارتباطهـا بأحـكام شـرعية وضحَّهـا النبـي ﷺ يـوم فتـح مكـة، بأنـه لا يُخْتَلـى خَلَاهـا، ولا يُعْضَـد شَـجَرُها، ولا يُنَفَّـر صيدُهـا، ولا تَحِـلُّ لُقَطَتُهَـا. كمـا أن الصـلاة فـي مسـجدها بمائـة ألـف صـلاة، بـل كل حرمهـا تفضـل فيـه أعمـال الخيـر والبـر كمـا ذهـب لذلـك جمـعٌ مـن العلمـاء.

(انظر: خريطة حدود الحرم وأعلامه)

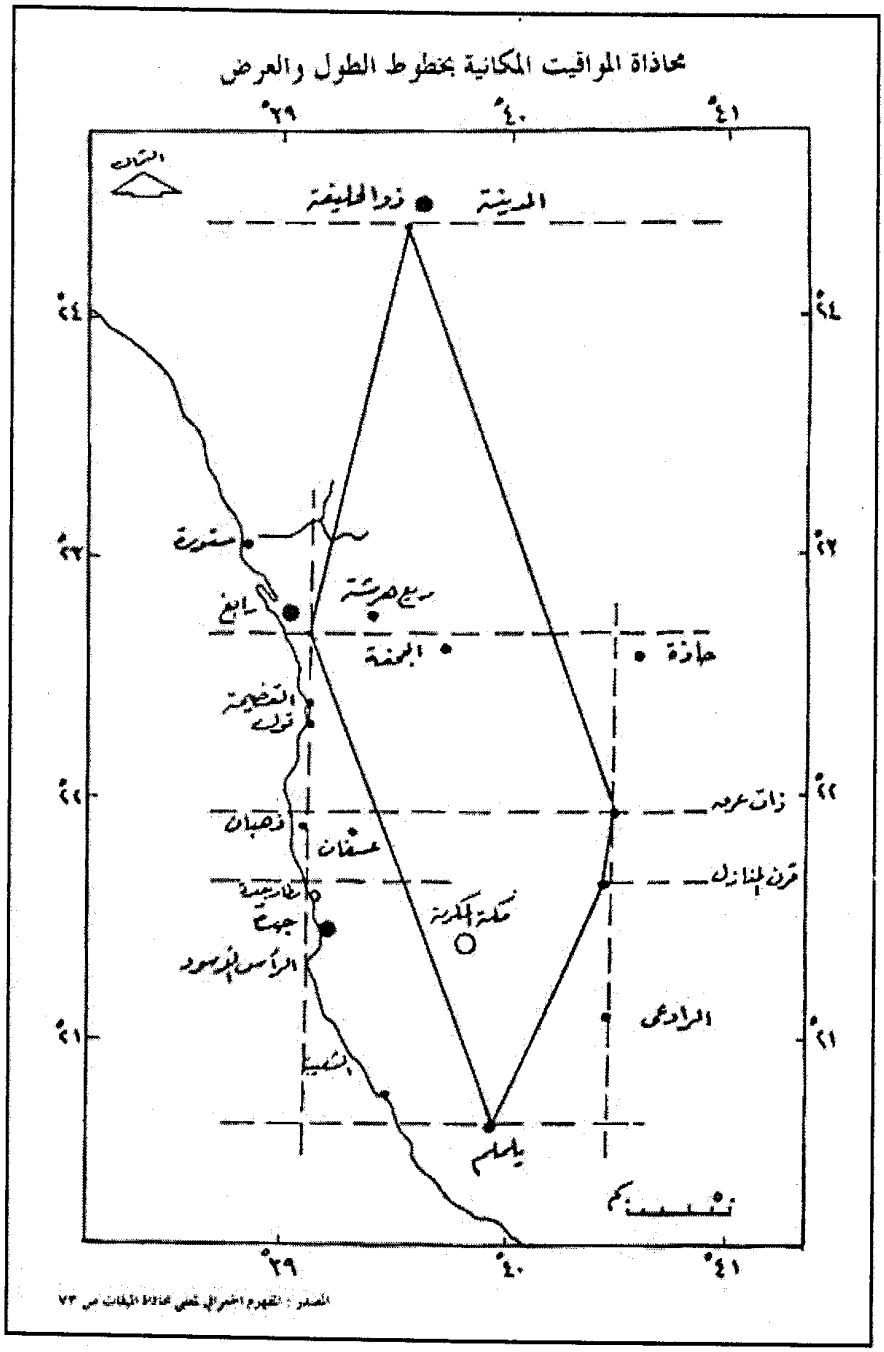






الدائـرة الثانيـة: دائـرة المواقيـت، وهـي مِـن وراء أعـلام الحـرم، وقـد أوجبـتِ الشـريعة أن لا يتجاوزهـا مَـن أراد الحـج أو العمـرة؛ إلا وهـو محرم، وأقـرب المواقيـت إلـى مكـةَ: وادي محـرم فـي طريـق الهـدى علـى مسـافة ٦٦ كـم، وأبعدهـا: ميقـات أهـل المدينـة ذي الحليفـة ٤٢٠ كـم.

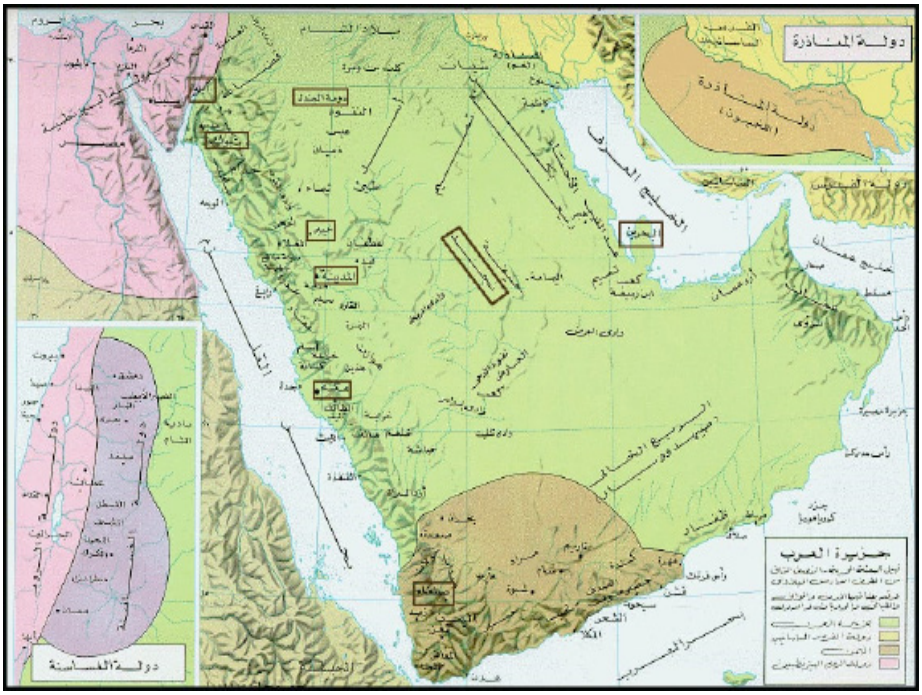
(انظر: خريطة المواقيت)



المصدر : المفهوم العصري لعلم المواقيت ص ٧٣

الدائـرة الثالثـة: الجزيـرة العربيـة حيـث خصَّتهـا الشـريعة بخصائـص وأحـكام[1]. لتكـون حصنًـا واقيًـا، وحِمَـى مِـن بعيـدٍ للحـرم الآمِـن، والبلـد المقـدَّس «أم القـرى».

(انظر خريطة الجزيرة العربية)



(١) انظر ذلك مفصلاً في خصائص جزيرة العرب، لبكر بن عبد الله أبو زيد.

أصول العرب وقبائلهم

يقسِّم المؤرِّخون العَرَبَ في تسلسلهم وأصولهم إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

١ - العرب البائدة:

وهم القبائل والدُّوَل القديمة، مثل: عَاد، وثَمود، والعمالقة، وطَسْم، وجَدِيس، وأُمَيم، وجُرْهُم، وقد امتد ملك بعضهم إلى الشام ومصر. وهؤلاء قد اندرسوا ولم يبقَ منهم باقيةٌ إلا بعض آثارهم المادية التي خلَّفوها؛ لتكون عِبْرَة وعِظَة لمَن يأتي بعدهم، وبعضهم مذكور خبرُهم في القرآن الكريم، مثل: عَاد، وثَمود، وقوم شُعيب، وأن الله أهلكهم؛ بسبب كفرهم، وعدم استجابتهم لرسلهم.

٢- العرب القحطانية:

وهم العَرَب المنحدرة أصولهم مِن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قَحْطَان، ويُسَمُّون: العرب القحطانية، ويعرفون: بعرب الجنوب، ومنهم ملوك اليمن في دول مَعِين، وسبأ، وحِمْير، وبقي بعض ملوكهم وأمرائهم إلى أن قام عليهم الإسلام.

٣- العرب العدنانية:

نسبةً إلى عَدْنَان الذي ينتهي نسبُه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وموطنهم الأصل: مكة، وانتشروا في الشمال، وفي نَجْد

والبَحْرَيـن، وعلـى حـدود العـراق، ومِـن أشـهر فـروع العـرب العدنانيـة: مُضَـر، ورَبِيعَـة. ومِـن مضـر: القبائـل القيسـية والكنانيـة، وقريـش مـن كنانـة، ولقريـش فـروع شـتى: جُمَـح، وسَـهْم، وعَـدِي، وتَيْـم، ومَخْـزُوم، وزُهْـرَة، وعبـد الـدَّار، وعبـد مَنَـاف، والنبـي ﷺ مـن بنـي هاشـم بـن عبـد مَنَـاف بـن قُصَـي بـن كِلَاب.

قـال النبـي ﷺ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَـى كِنَانَـةَ مِـنْ وَلَـدِ إِسْـمَاعِيلَ، وَاصْطَفَـى قُرَيْشًـا مِـنْ كِنَانَـةَ، وَاصْطَفَـى مِـنْ قُرَيْـشٍ بَنِـي هَاشِـمٍ، وَاصْطَفَانِـي مِـنْ بَنِـي هَاشِـمٍ»[1].

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

شجرة نَسَب الرسول ﷺ إلى قُصَي

* **قُصَي:**

(١) عبد مناف.

(٢) عبد العُزَّى.

(٣) عبد الدَّار (وفيهم حِجَابَة البَيْت).

عبد العُزَّى:

١- هَاشِم.

٢- المطَّلِب.

٣- عبد شمس.

٤ - نَوْفَل.

* **هاشم:**

(١) عبد المطَّلِب.

١- عبد الله:

سيدنا محمد: رسول الله ﷺ.

٢- أبو طالب:

علي رضي الله عنه.

٣- أبو لهب.

٤ – الزبير.

٥ – الحارث.

٦ – حمزة.

٧ – العباس

- عبد الله (ومنهم العباسيون).

٨ – المقوم.

- **عبد شمس:**

١ – حبيب.

٢ – أُمَيَّة الأكبر.

٣ – أمية الأصغر (وهم العَبَلَات)، ومنهم: الثُّرَيَّا صاحبة عمر بن أبي ربيعة.

٤ – عبد أمية.

٥ – نوفل.

٦ – عبد العزى.

٧ – ربيعة عبد الله.

- **أمية الأكبر:**

١ – أبو العاصي.

من نسلِه: عثمان بن عفان، والعرجي الشاعر، ومروان بن الحكم وأولاده.

٢ – العاصي.

٣- العيص.

٤ - أبو العيص.

٥ - عمرو.

٦ - حرب.

٧- أبو حرب.

٨ - سفيان.

٩ - أبو سفيان.

حرب:

١ - أبو سفيان.

٢- الحارث.

٣- عمرو، وآخرون.

أبو سفيان:

١ - معاوية.

٢- عُتْبَة (من نسله: العتبي الشاعر).

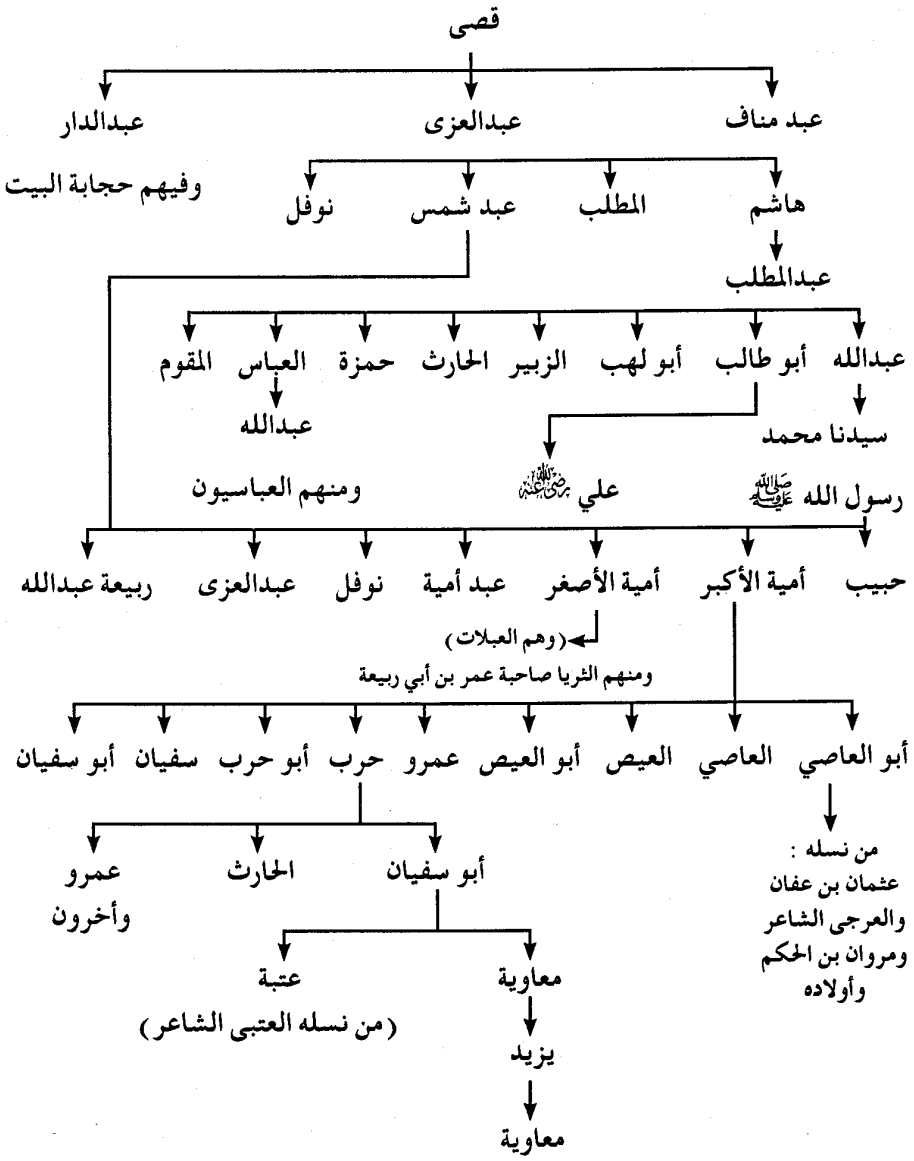
معاوية:

١ - يزيد.

يزيد.

- معاوية.

شجرة نسب الرسول ﷺ إلى قصي



شجرة نَسَب الرسول ﷺ إلى مُضَر

- **إلياس بن مضر:**

١- طَابِخَة.

٢- مُدْرِكَة.

٣- قَمْعَة.

- **مُدْرِكَة:**

١- خُزَيْمَة.

٢- هُذَيْل (ومنهم نيِّف وسبعون شاعرًا).

٣- خُزَاعَة (ومِن قَمْعَة كُثَيِّر الشاعر).

- **خُزَيْمَة:**

١- كِنَانَة.

٢- الهُون.

٣- أَسَد.

- **كِنَانَة:**

١- عبد مَنَاة.

٢- النَّضْر.

- عبد مَنَاة:

غفار: (منهم أبو ذر الغفاري، ومنهم كذلك: عَزَّةُ صاحبَةُ كُثَيِّر).

- **النَّضْر:**

- مالك:
- **فِهْر (قُرَيْش):**

١- غَالِب.

٢- مُحَارِب.

٣- الحَارِث.

- غَالِب:

١- لُؤَي.

٢- تَميم (وهو الأَدْرَم).

٣- قَيْس.

- **لُؤَي:**

١- كَعْب.

٢- عَامِر (ومن نَسْلِه: سَوْدَة بنت زَمْعَة أم المؤمنين).

- **كَعْب:**

١- مُرَّة.

٢- هُصَيصُ (ومنه جُمَح).

٣- عَدِي (ومن نسله: عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

- مُرَّة:

١- كِلَاب.

٢- تَيْم (ومن نسله: أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأمه: أم الخير سلمى).

٣- يقَظَة (ومنهم: مَخْزُوم الذين منهم: فاطمة أم عبد الله والد رسول الله ﷺ).

كِلَاب:

١- قُصَي.

٢- زُهْرَة (ومن زُهْرة: سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف)

زُهْرَة:

عبد مَنَاف:

١- وَهْب.

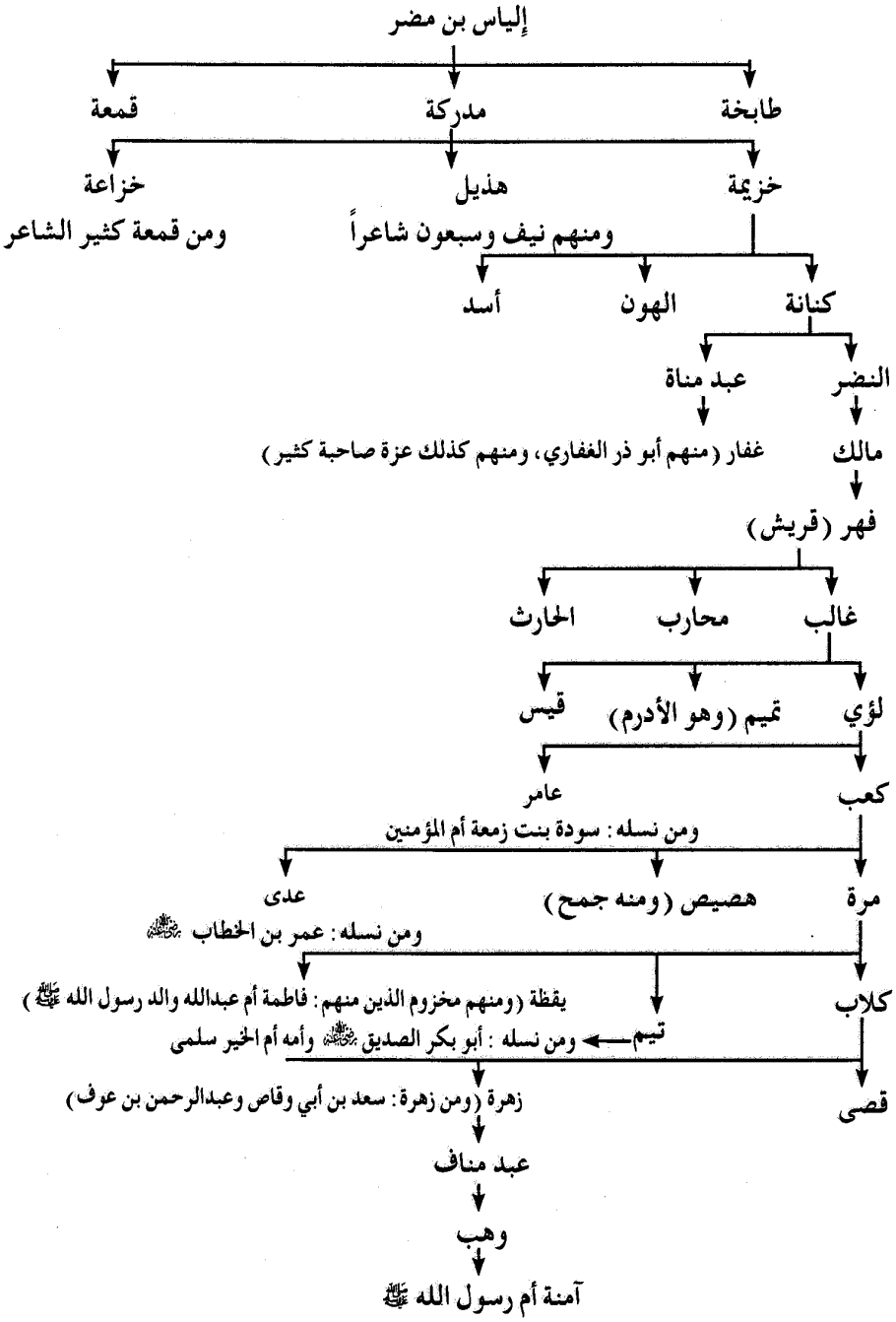
وَهْب:

آمِنَة أم رسول الله ﷺ.

وتَقْسِيم العَرَب إلى: عدنانية وقحطانية، هو رأي جَمْهَرَة عُلَمَاء الأنْسَاب، ويَرَى آخرون أن العرب جميعًا العدنانية والقحطانية ينتسِبون إلى إسماعيل عليه السلام، وعلى هذا الرأي: الإمام البخاري حيث تَرْجَم في صحيحه: "باب نِسْبَة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام. منهم: مِنْهُمْ أَسْلَمُ بْنُ أَفْصَى بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مِنْ خُزَاعَةَ"[1]، وأوردَ حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضَلُونَ بِالسُّوقِ، فَقَالَ: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا...**» الحديث[2]. وخُزَاعَة مِن القبائل القحطانية التي هَاجَرَتْ إلى الحجاز بعد خَرَاب سَدِّ مَأْرِب باليمن.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب (٤/ 180).
(٢) رواه البخاري (٣٥٠٧).

شجرة نسب الرسول ﷺ إلى مضر



أَحْوَال العَرَب قَبْل البَعْثَة النَّبَوِيَّة

١- الأحوال السياسية:

ينقَسِم سُكَّان الجزيرة العربية إلى بَدْوٍ وحَضَر، والنظام السَّائِد بينهم هو النظام القَبَلي، ولم يَعْرِفوا الاجتماع على دولةٍ إلا في أحوال قليلة، وعلى مساحات ضيِّقة؛ فالجزيرة العربية طوال تاريخها قبل الإسلام لم تعرف وَحْدَة سياسية جامعة، وحتى في الدول التي قامت في اليمن أو في أطراف الجزيرة في الشام والعراق، لم تَنصهِر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ، وإنما بقيتِ القبائل وحدات لها نفوذها واستقلالها، وأوضح مثال: حالة مكة قُبَيل وزمن البَعْثَة النَّبوية؛ فلا يوجد رأس للدولة له سلطات، ولا مؤسسات إدارية وسياسية، وإنما تآلف وتعاون قَبَلي على حسب الأُسَر وقوة رجالاتها.

والنظام القَبَلي تسود فيه الحرية؛ فقد نشأ العربي في الصحراء الواسعة ينتقل كما يشاء من غير قيود؛ ولذا كانت الحرية من خصائص العرب، يأبون الضَّيم والذُّل، ويفتخرون بالقبيلة، ويدافِعون عن حِمَاها وحُرُمَاتِها، ويشيدون بأيامها ومفاخرها، وينتصرون لكلِّ فردٍ مِن أفرادها سواء كان محقًّا أو مبطلًا؛ ولهذا كان من أقوالهم: «انْصُر آخَاك ظَالِمًا أو مَظْلُومًا»[1].

(١) وقد استعمل النَّبيُّ ﷺ هذا القول وبيَّن معناه الصحيح، وأن نصره ظالمًا: بردعِه عن الظلم.

ويقول شَاعِرُهم:

وهل أَنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

فالقبيلة لها شخصيتها السياسية المستقلة، تَعْقِد الأحْلَاف، وتَشُنُّ الغَارَات حسب مصلحتها، وأوامر رجالاتها.

ولهذا لم يكن لهم في آخر عهدهم أثرٌ في السياسة الدولية؛ لأنهم وحدات صغيرة متفرقة، بل خَضَعوا في بعض أطرافهم لنفوذ الدولتين الكبيرتين في ذلك الزمن: الفرس، والروم، واستُعمِرت اليمن من قبل الأحْبَاش، وبلغ الأمر بأبرهة الحبشي أن غزا الكعبة وأراد هدمها، ولم يستطع العرب مواجهته؛ لأنهم لم يجتمعوا له في جيشٍ واحدٍ، وإنما واجهوه قبيلة قبيلة، فلم يصنعوا شيئًا، وكان غاية ما صنعه بعضهم أن أرسلوا مع أبرهة مَنْ يَدُلُّه على الطريق إلى مكة كما فعل أبو رِغَال الطائفي الذي مات بالمُغَمَّسِ قُرْب مكة، وكَرِهَه العَرَب؛لخيانته، فصاروا يَرْجُمون قَبْرَه.

وعندما أراد سَيْف بن ذي يزن التَّحَرُّر من استعمار الأحباش، لجأ إلى سلطان الروم فلم يجبه، ثم لجأ إلى كسرى فارس فأَمَدَّه بعد جهدٍ.

٢- الأحوال الدينية:

أمم العرب القديمة وصَمَهم القرآن بالشرك وعبادة الأوثان؛ ولهذا أهلكهم الله لما جاءتهم الرسل بالآيات فلم يؤمنوا، ونَجَّى الله الرُّسُلَ ومَن استجاب لهم.

وكذا الدول التي قامتْ في اليمن: كانت وثنية يعبدون الكواكب والأصنام، وقد ذكر الله قصة سبأ، وأنهم كانوا يسجدون للشمس من

دون الله، وقد استجابت ملكتُهم لسليمان عليه السلام وأسلمتْ لله رب العالمين، لكن قومها الذين بقوا على الشرك سَلَّط الله عليهم سَيْل العَرِم؛ فأهلك طائفة منهم، وطوائف هاجروا وتفرَّقوا في الأرض حتى ضُرِب بهم المَثَل فَقِيل: تَفَرَّقوا أيدي سبأ.

وفي مكة المكرمة: رفع إبراهيمُ وابنه إسماعيل عليهما السلام القَواعِدَ من البيت، وجعله مَثَابة للناس وآمْنًا، ودَعَا لأهله بالأمن والبركة، وجِبَاية الخَيْرَات من كل مكان، فكانوا على التوحيد والحنيفية السَّمْحَة؛ ملة أبينا إبراهيم، ثم مع مرور الزمن ابْتُلوا بما ابْتُلي به غيرُهم، فَغَيَّروا ملةَ إبراهيم، وجاء عمرو بن لُحَيٍّ الخُزَاعِي بالأصنام وأمر العرب بعبادتها، وانتشرت نتيجة لذلك بينهم عبادة الأصنام، وبَالَغوا في ذلك كثيرًا.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رَجَاء العُطَارِدي قال: «كُنَّا نَعْبُدُ الحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ!»[1].

بل كان مِن العرب مَن يصنع الصَّنَم مِن عجوةِ التَّمْرِ، فإذا جاعوا أكلوه!

ومِن أصنام العرب المشهورة:

اللَّات: بالطائف، لثقيف.

العُزَّى: بوادي نخلة شرق مكة، وهي لقريش.

مَنَاة: في المُشَلَّلِ بِقُدَيْدٍ، وهي للأوس والخزرج.

(١) رواه البخاري (٤٣٧٦).

هُبَل: منصوب في جَوْف الكعبة.

إِسَاف وَنَائِلَة: منصوبان على بئر زمزم.

وَدٌّ: في دُومَة الجَنْدَل، وهو لبني كَلْب بن وبرة من قضاعة.

سُوَاع: في رهاط شمال شرق مكة، وهو لهُذَيْل.

يَغُوث: في جُرَش قرب بِيشَة، وهو لبني مَذْحِجٍ.

يَعُوق: في اليمن، وهو لقبيلة هَمْدَان.

نَسْر: في أرض حِمْيَر، وهو لذي الكَلاَع.

ومِن العرب مَن كان يعبد الجن، ويعبد الكواكب؛ فصارت الوثنية هي الغالب عليهم، ويوجد بقايا على الحنيفية، لكنهم أفراد قلائل.

وبعض العرب تأثَّر بديانة الفرس المجوسية.

أما اليهودية؛ فقد انتشرت في اليمن، وفي شمال الجزيرة في يثرب، وخيبر، ووادي القرى، حيث وَفَد عليها قبائل من اليهود من فلسطين عندما حصل عليهم الاضطهاد من الغزاة الكَلْدَانِيِّينَ، ثم الرومان.

أما النصرانية: فقد جاءت مع الأَحْبَاش، وانتشرت في بعض البلدان في اليمن، ونجران، وغيرها، وكان لها وجود في شمال الجزيرة وشرقها.

واليهودية والنصرانية قد حُرِّفتا، وبُدِّلت كثيرٌ مِن أحكامِهما فلم تعودا ديانتين صحيحتين، وقد بيَّن الله تعالى في القرآن الكريم أن اليهود والنصارى يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]. وأنهم يكتمون الحق ويخفونه، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال النبي ﷺ: «.... وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»(١).

فالذين بقوا على الدِّين الحق الذي جاءت به الرسل أفراد قلائل، وبقايا متفرِّقون في الأرض، كما يدل على ذلك قصة سلمان الفارسي وبحثه عن الحنيفية حتى قال آخر مَن صحبهم مِن القُسس عند وفاته: «لا أعلم أحدًا بقي على هذا الدِّين، ولكن أظلَّ زمانُ رسولٍ يُبْعَث في أرض العرب، ومهاجره إلى أرضٍ ذات نَخْل بين حَرَّتَيْن، فجاء سلمان إلى المدينة لأجل هذا، وقول القسيس هو مِن البشارات، ودلائل النبوة التي يعرفها أهل الكتاب مِن كُتُبهم الموروثة عن أنبيائهم، ولكن يد التحريف قد فعلتْ فعلها حتى خفي الحق وظهر الشرك، وقد اندرست معالم التوحيد، والبشرية بحاجة إلى مُنقِذٍ يخرجها من الضَّلَال والشِّرْك الذي وقعتْ فيه.

٣- الأحوال الاجتماعية والأخلاقية:

الأحوال الاجتماعية والأخلاقية فرعٌ عن التَّصَوُّر والاعتقاد، وهي أثرٌ مِن آثاره، فإذا فَسَد الإيمان، واختل التوحيد؛ ظَهَر أثرُ ذلك في السُّلُوك، وفي النظام الاجتماعي، والعلاقات بين الناس، وقد عرفنا ما كان عليه العرب، بل أهل الأرض قُبيل البعثة من فساد الاعتقاد

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وظهور الشرك والوثنية؛ لهذا كانت حياتهم الاجتماعية والأخلاقية مختلة كاختلال عقيدتهم، فقد سيطرت عليهم التقاليد والعادات، وأصبحت بمثابة القوانين المرعية، وكانوا يتعصبون للقبيلة، ويتفاخرون بالأنساب، ونظرتهم للمرأة غير متزنة، ولا يعطونها حَقَّها من الميراث، ويتزوج أحدهم بلا حَدٍّ، فقد يجمع بين عشر نساء أو أكثر، والطلاق بلا عدد، وإذا تُوفِّي زوجُ المرأة فقد تُحبس فلا تتزوج، وقد ينكحها أكبرُ ولد زوجها من غيرها! قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وكانوا يجمعون بين الأختين.

وكان بعضهم يَئِد البنات خَشْيةَ العار، وقد يقتلون أبناءَهم خشية الفقر، ولا يمتنعون عن المحرَّمات من الفواحش، وسفك الدماء، وأكل الربا، وظلم الضعفاء، والإغارة على بعضهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم وذراريهم، ويحتقرون بعض المهن الحرفية والصناعية، وكانت تنتشر فيهم الأمية، والجهل، وجُل معارفهم المفاخر والشعر، ومثالب الآخرين.

ومع هذا، فعندهم عاداتٌ حَسَنة وأخلاقٌ حميدةٌ، مِثْل: الكَرَم، والشَّجَاعة، وإِبَاء الضَّيْم، والعِفَّة، والذَّكَاء والفِطْنَة، وقُوة الحَافِظَة، والفُرُوسيَّة، والمُرُوءَة والنَّجْدَة، والفَصَاحَة، والحِفَاظ على الأحساب وصيانتها، فيأنفون من الكذب والغدر والخيانة، ويحبون الصَّرَاحَة والوضُوح؛ لصَفَاء فِطْرَتِهم وطبيعة حياتهم المبنيَّة على البساطة والحرية التي عاشوها؛ فلم يخضعوا لحكومةٍ أجنبيةٍ، ولم يَأْلَفوا الرِّقَّ والعبودية، وانحرافاتهم ناتجة عن جهلٍ بسيطٍ؛ فيسهل معالجتها، والرجوع بها

إلى أصل الفِطْرة وصفائِها، وكانوا واقعيين جادِّين، أصحاب صراحة وصرامة، وأصحاب صدق وشجاعة، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم.

ولم تكن أخلاقهم كأخلاق أهل المَدَنِيَّات مِن الفُرْس والرُّوم التي كَثُرت فيها الالتِوَاءَات، وأَدْوَاء التَّرَف حتى أفسدتها، وظَهَرَتْ فيها الفَلْسَفَات، وأثَّرت فيها المدنيات بأخلاطها وتعقيداتها، وطَبَائِع أهلِها المختلفة[1]، فكان جهلُهم جَهْلاً مُرَكَّبًا[2]، أو كما يقول مَالِك بن نَبِي: «إن العربي في ذلك الوقت هو إنسان ما قبل الحضارة، مثل المادة الخام يمكن تصنيعها، وتنظيم ما فيها مِن طاقات... وأما فارس والروم؛ فقد كانوا في مرحلة ما بعد الحضارة: كالخُرْدَة المستهلَكَة المبعثرة[3].

وقد كانت تلك الفَضَائِل في العَرَب رَصِيدًا حَسَنًا في نفوسِهم وفطرتِهم، زاده الإسلامُ كمالًا وجمالًا، ووجَّه تِلْك الأخلاق والفضائل وِجْهَة صحيحة حسب أحكامِ الشريعةِ ومكارِمِها العالية.

(١) «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي (ص ٤٥ - ٤٨).
(٢) الجهل البسيط: هو عدم العلم. والجهل المركب: هو عدم العلم مع الادِّعاء أنه يعلم.
(٣) «هَدْي السيرة في التغيير الاجتماعي» لحنان لحام (ص ١٨).

دروس وعبر:

١- أهميةُ الجزيرة العربية وموقعها الإستراتيجي، وشَرَّفُها العَظِيم باحتضانِها الكعبة المشرَّفَة، والبلد الحرام الآمِن «مكة المكرمة».

٢- نَقَاءُ عُنْصُر أهلها، وفصاحة لغتهم ولسانهم، واعتناؤهم بالأنساب ومَكَارِم الشِّيَم.

٣- حفظ الله لحَرَمِه مِن المستعمِر الخَارِجي، فبقيتْ فطرتُهم مَحْفُوظَة مِن التِوَاءَات المدنيات ومَفَاسِدها، وذات نقاء يسهل استصلاحها.

٤- كان في العرب جهل وأمية سَبَّبتْ لهم انحرافات في الاعتقاد والتصور؛ غير أن جهلهم لم يكن جهلا مركبًا ومُفَلْسَفًا، وعندما عُرِض عليهم الحق أسرعَ كثيرٌ منهم إلى الاستجابة.

٥- تفرُّق العرب وانعدام الوحدة السياسية بين أقاليم الجزيرة، وانتشار العصبية القَبَلِيَّة، وهي مِن مظاهر الجاهلية.

٦- كان العرب كغيرِهم من الأمم يتخبَّطون في ظُلُمات الجاهلية، مِن : انحرافٍ عَقَدي، وتفككٍ اجتماعي، واضطرابٍ سياسي، وتردٍّ اقتصادي؛ فكانوا أحوجَ ما يكونون إلى مَن يخرجهم مِن الظلمات إلى النور.

الفصل الأول

الرسول ﷺ من مولده إلى بعثته

الرسول ﷺ من مولده إلى بعثته

نسبه ﷺ:

هو أبو القَاسِم محمَّدُ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَنَاف ابن قُصَيِّ بن كِلَاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَي بن غَالِب بن فِهْر بن مَالِك بن النَّضْر بن كِنَانَة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة بن إِلْيَاس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدِّ بن عَدْنَان. وعَدْنَان مِن وَلَد إسماعيل بن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام.

وهذا السِّياق في نَسَبِه ﷺ إلى عدنان، اتَّفَقَ أهلُ السِّيَر وعلماءُ الأنساب عليه، ولا خلاف فيه، ويبلغ عددُ الآباء في هذا السِّيَاق: واحدًا وعشرين أَبًا.

أما سياق نسبه ﷺ مِن عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل؛ ففيه خلاف، وتَوَقَّف بعضُ أهل العِلْم في ذلك، ولكنهم لا يختلفون في أن عَدْنَان من ذرية إسماعيل عليه السلام، وعدد الآباء في هذا القِسْم من عدنان إلى إبراهيم مختلفٌ فيه، فأكثر ما قيل: أربعون أبًا. وأقل ما قيل: سبعة آباء[1].

وقد كَرِه ابنُ عباس رضي الله عنهما وكثيرٌ مِن عُلَمَاء السَّلَف رفعَ النَسَب النَّبَوي فوق عدنان، وكان ابن عباس يقول: «بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يُعرفون»[2]، وقال عروة بن الزبير: «ما وجدنا أحدًا يَعْرِف ما وراء عدنان»[3].

(١) «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (ص ٨٧).
(٢) «الإنباه على قبائل الرواة» لابن عبد البر (ص ٢١).
(٣) المصدر نفسه (ص ١٦).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

أما قائمة النسب من إبراهيم عليه السلام إلى آدم عليه السلام، فالاختلاف فيها شديد؛ سواء في الأسماء، أم في ترتيبها أم في عدد طبقات النَّسَب والآباء.

أما أمه: فهي آمِنَة بنتُ وَهْبِ بن عبدِ مَنَاف بن زُهْرَة بن كِلَاب ابن مُرَّة. ويلتقي نسبه مع نَسَب أمه في كِلَاب بن مُرَّة.

وأسماؤه ﷺ كما ورد في الصحيح، هي: أحمد، ومحمد، والمَاحِي، والحَاشِر، والعَاقِب[(١)]، وزاد مسلم: «وَالْمُقَفِّي، ونَبِيُّ الرَّحْمَة»[(٢)].

أسرته ﷺ:

تُعرف أسرةُ النَّبيِّ ﷺ بالأسرة الهاشمية؛ نِسْبَة إلى جَدِّه الثاني هَاشِم بن عبد مَنَاف بن قُصَي، وقُصَي هو الذي جَمَع قريشًا، وتولَّى أمرَ مكة وسدانة الكعبة بعد أن طرد منها خزاعة، وصار لقصي مِن مظاهر الرِّيَاسة: دار النَّدْوَة، واللِّوَاء، والحِجَابة للكعبة، وسِقَاية الحَاج ورفادتهم، وكان في قومه قريش: كالمَلِك لا يُعْصَى له أَمْر؛ فهو الذي أنزلهم مكة وملَّكَهم أمْرَهَا ونظَّم شؤونهم فيها، وقد أَوْصَى قُصَي بهذه المناصب لابنه الأكبر عبد الدَّار، فتولَّى عبدُ الدار ما كان يتولاه قُصَي، فلما مات قصي عَزَم بنو عبد مناف أن ينزعوا من بني عبد الدار ما بيدهم من الوظائف لما كانوا عليه من الفضل والشرف، فاختلفوا واختلفت قريش باختلافهم، وأشرفوا على الاقتتال، وعقدوا من أجل ذلك: حِلْف المطيَّبين، ثم اصطلحوا على أن تكون دار الندوة، واللواء، والحجابة لبني عبد الدار، ولبني عبد مناف: السقاية، والرفادة، والتي

(١) رواه البخاري (٤٨٩٦).
(٢) رواه مسلم (٢٣٥٥).

صارت بحكم القرعة لهَاشِم دون بقية بني عبد مناف، ثم خلَّفه عبد المطلب، وبعده العباس، وقد جاء الإسلام وهي بيده.

وكان هَاشِم موسرًا وذَا شَرَف في قومه، وهو أول مَن أَطْعَم الثَّرِيد للحجاج بمكة، وأول مَن سَنَّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

يقول فيه الشاعر[1].

عَمْرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقَوْمِه ... قومٍ بمكَّةَ مُسْنِتِينَ عِجَافِ

سُنَّتْ إليْهِ الرِّحْلَتَان كِلَاهُمَا ... سَفَرُ الشِّتَاءِ ورِحْلَةُ الأَصْيَافِ

وقد خَرَج هَاشِم إلى الشام تاجرًا، ومَرّ بيثرب (المدينة)، فتزوج سلمى بنت عمرو بن عدي من بني النجار، وأكمل رحلته إلى الشام، ومات بغزة من أرض فلسطين.

وقد حملت زوجته سلمى، فجاءت بولد سمته شَيْبَة، ولما علم عمه المطلب بن عبد مناف، خرج إلى يثرب وجاء به، ودخل مكة وهو مردفه على راحلته، فظن أهلُ مكة أنه غلام له، فقالوا: عبد المطلب. فَرَدَّ عليهم: إنه ابن أخي هاشم؛ فلزمه هذا اللَّقَب، وصَار يُعرفُ به[2].

وقد شَرُف عبد المطلب في قَوْمِه، وتولَّى ما كان لوالده هَاشِم، وحَصَلَتْ له أمورٌ زادتْ في شَرَفِه ومكانتِه، ومنها:

الأول: حَفْرُ بِئْرِ زَمْزَم:

وذلك أن بِئْرَ زَمْزَم التي نَبَعَت على يد إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام قد دُفِنَتْ؛ بسبب الحروب التي كانت في مَكَّة، فلم تُعْرَف، ثم إن عبد المطلب قد أُرِيَ مكانها في المنام وأُمر بحَفْرِها، فلما قام بذلك

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٢٢، ١٢٣).

نَازَعَتْهُ قريشٌ فيها، فقال لهم: «إن هذا أمرٌ قَدْ خُصصْتُ به»، فتحاكموا إلى كَاهِنَةٍ مِن العرب، وقَبْل أن يصلوا إليها أراهم الله آية عَلِموا منها اخْتِصَاص عبد المطلب بذلك، فتنازلوا عن مطلبهم[1].

الثاني: حادثة الفيل:

وهي أن أَبْرَهَة الحَبَشِي لما اسْتَوْلَى على اليَمَن بَنَى في صَنْعَاء كَنِسية سَمَّاها: «القُلَّيْس»، وأراد أن يَصْرِفَ إليها حَج العَرَب بَدَل الكعبة، فحمي لهذا رجلٌ مِن العرب فدنَّس «القُلَّيْس»؛ مما جعل أبرهة يَعْزِم على هَدْم الكعبة، فسار في جيشٍ كثيفٍ ومعه الفِيَلَة التي استقدمها من الحَبَشَة، ولما وَصَل «المُغَمَّس» قُرْب مكة مات دليلُه مِن العرب أبو رِغَال، وكانت العرب بعد ذلك تَرْجُم قَبْرَه.

وقد أخذ جنود أبرهة أموالَ أهلِ مكة، وفيها إبلٌ لعبد المطلب، فجاء عبد المطلب وكان رجلًا جميلًا مهيبًا حتى دخل على أبرهة، وطلب منه إرجاعَ إبِلِه، فقال أبرهة: «إنا جئنا لهدم البيت الذي هو عزكم وشرفكم، وأنت تطلب الإبل؟! فرد عبد المطلب: أنا رب إبلي، وللبيت رب يحميه».

وكان لهذه الكلمة أَثَرُها في نَفْس أبرهة؛ أما قريش فقد عَجَزَتْ عن المواجهة، وخرجت إلى رؤوس الجبال حتى لا تصطدم مع جنود أبرهة، وأراد الله ﷻ أن لا يكون لأهل الشرك فضلٌ على بيتِه فَحَمَاه ﷻ، حيث أرسل على أبرهة وجنودِهِ: طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فَهَزَم الله أبرهة، وأَهْلَكَ جُنْدَه وفِيَلَته، ومات هو في طريق عودته إلى صنعاء[2].

(١) المصدر السابق (١/ ١٢٦).

(٢) ابن هشام (١/ ٦٦)، وانظر: تفسير سورة الفيل في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣) وما بعدها.

وهذه الآية العظيمة؛ مما زاد في مَكَانة البيت، وتعظيم مكة والحَرَم عند العرب.

الثالث: نذر عبد المطلب:

وذلك أن عبد المطلب لما طَالَبَتْه قريشٌ بالمشَارَكَة في بِئْر زمزم، وكان وقتها ليس له من الأبناء إلا الحارث، فَنَذَر لله: إن رزقه عشرة من الولد، وبلغوا أن يحموه، أن يذبحَ أَحَدَهم لله! فَرُزِق عشرةً من الأبناء، وأراد أن يفي بنذره، فضرب القِدَاح عند الصنم هُبَل، وكان في جوف الكعبة، فخرج السهم على عبد الله، فأخذ عبد المطلب الشفرة وأراد ذبحه، فقالت له قريش: «لا تفعل ذلك حتى تُعذَر».

وأشاروا عليه أن يستفتي في ذلك كاهنةً معروفة في خَيْبَرَ، فذهب إليها عبدُ المطلب ومعه ركبٌ، وأخبروها، فقالت لهم: «ارجعوا عني اليوم حتى يأتني تابعي فأسأله»، فلما رجعوا إليها قالت: «كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرٌ مِن الإبل. قالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قَرِّبوا عشرًا من الإبل واضربوا عليه وعليها القِدَاح، فإن خرج عليه فزيدوا عشرًا، وهكذا حتى يرضى ربكم».

فلما رَجَعوا إلى مكة فعلوا ذلك، فكان السَّهْمُ كلَّ مرة يخرُج على عبد الله حتى بَلَغ عددُ الإبل مائة، فخرج السهم على الإبل فذبحوها، ونجا عبد الله من الذبح.

وقد وَرَد أن رجلًا جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «يا ابن الذبيحين»[1].

(١) ذَكَرَ قِصَّةَ النَّذْر: ابنُ إسحاق في السيرة (١/ ١٣) مِن غير إسناد، وأخرجها ابن جرير في التاريخ (٢/ ١٣٩) بإسنادٍ حَسَن عن ابن عباس. أما حديث: «يا بن الذبيحين»؛ فقد أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٣/ ٨٥)، وقال القرطبي: «روي من طريق معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ولا يثبت». انظر: «أحكام القرآن» (١٥/ ١١٣)،

والمراد: والده عبد الله وجَدُّه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[1].

ثم إن عبد المطلب زَوَّجَ ابنه عبدَ الله مِن آمِنَة بنت وَهْب بن زُهْرَة ابن كِلَاب بن مُرَّة.

وذكره ابن كثير في التفسير (٧/ ٣٥) وقال: «غريب جدًّا».

(١) عن الذبيح مِن ولد إبراهيم مَن هو: إسماعيل أو إسحاق؟ انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١١٣)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٣٣١).

دُرُوس وعِبَر:

١- طهارة نَسَب النَّبيِّ ﷺ وعلوه وشرفه بين العرب، واصْطِفَاء الله له، فهو خِيَارٌ مِن خيارٍ من خيار؛ فقد بُعِثَ مِن خير قُرون بني آدم، قَرْنًا فقرنًا حتى كان مِن القرن الذي كان فيه.

٢- فَضْلُ الله على أهل مكة وغيرِهم بإنباع الماء المبَارَك «ماء زمزم»، والشرف العظيم الذي حَصَل لجدِّ النَّبيِّ ﷺ في حفر زمزم بعد اندراسها.

٣- ضلال الجاهلية وفقدهم لمصدر الحق (الوحي)؛ ولهذا يرجعون عند المشكلات إلى الكُهَّان والعَرَّافين، وإلى الاستقسام بالأَزْلَام والقِدَاح، وهي وسائل لا توصِّل إلى الحق.

٤- ضعف العرب أمام أبرهة وجنوده؛ بسبب انحرافهم العقدي الذي أفقدهم الاعتماد والتوكل على الله وطلب النصر منه، كما أورثهم الفُرْقةَ والاختلاف.

٥- حادثة الفيل وإهلاك الله للظالمين، مقدمة وآية بين يدي البَعْثَة النَّبوية، وإظهار لمكانة الحرم وحماية الله له.

مولده ورضاعه ﷺ:

حَمَلتْ آمِنَة بنت وهب برسول الله ﷺ، وتُوفِّي والده عبد الله في يَثْرِب وأمه حامل به[1]. وولدته أمه في مكة عام الفيل في شهر ربيع الأول يوم الاثنين؛ هذا هو المتفق عليه بين الرواة والعلماء.

وتسمية يوم ولادته: ورد فيه حديث في صحيح الإمام مسلم، عن أبي قتادة رضي الله عنه أن أعرابيًا قال: يا رسول الله ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ -أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ»[2].

وأما تاريخ يوم ولادته من شهر ربيع الأول: ففيه أقوال كثيرة[3]، ذكر ابن كثير منها: يوم الثاني، ويوم الثامن، ويوم العاشر، ويوم الثاني عشر، ويوم السابع عشر، ويوم الثاني والعشرين[4].

والمشهور: الثاني عشر من ربيع الأول، وهذا يوافق ٢٠ من شهر إبريل (نيسان) عام ٥٧١ م، لكن علماء الفلك يقولون: إنه لا يوجد يوم اثنين في تلك السنة يوافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول[5].

أما مكان الولادة مِن مكة: ففيه روايات متعددة؛ في الدَّار التي عند الصَّفَا. وقيل: في شِعْب بني هاشم. وقيل: بِالرَّدْمِ. وقيل: بِعُسْفَانَ[6].

ووقوع الخلاف في المكان والزمان معقول؛ لأنه لا توجد سِجِلَّات

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٣٦).
(٢) رواه مسلم (١١٦٢).
(٣) «سمط النجوم العوالي» لعبد الملك العصامي المكي (١/ ٢٤٧- ٢٤٨).
(٤) «السيرة النَّبوية» لابن كثير (١/ ٩٩).
(٥) انظر: «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام وفي تحقيق مولده وعمره ﷺ» لمحمود باشا الفلكي (ص ٢٨) وما بعدها.
(٦) «سمط النجوم العوالي» لعبد الملك العمامي (١/ ٢٤٧ – ٢٤٨).

للمواليد في ذلك الزَّمَن، وإنما يعتمد الرواة على الذَّاكِرَة، وهي تصيب وتخطِئ، والرسول ﷺ لم يعرف أنه رسول ويكون في مركز الاهتمام إلا بعد نزول الوحي عليه على رأس أربعين سنة من عمره، فيتذكر الرواة بعض الأحداث والوقائع قبل ذلك ويحاولون استعادتها؛ ولهذا يقع الخلاف، وتتعدد الأقوال.

قال ابن إسحاق رحمه الله: "فلما وضعته أمه أرسلتْ إلى جَدِّه عبد المطلب أنه قد وُلد لك غلامٌ، فأتاها ونظر إليه، وحدثته آمنة بما رَأَتْ حين حملت به، وحمد الله وشكره، ثم سمَّاه: مُحَمَّدًا"[(١)].

وقد سأل نفرٌ مِن أصحاب النَّبيِّ رسولَ الله ﷺ أن يحدِّثَهم عن نفسه، فقال: «أنا دَعْوَة أبي إبراهيم، وبُشْرَى أخي عِيسَى، ورَأَتْ أمي حين حَمَلَتْ بي أنه خَرَج منها نورٌ أضاءَ له قُصور الشَّام، وَاسْتُرْضِعْتُ في بني سَعْد بن بَكْر»[(٢)].

وأول مَن أرضعه: ثُوَيْبَة: جارية لأبي لَهَب بلَبَن ابنٍ لها اسمه: مَسْروح، وأَرْضَعَتْ معه: عمَّه حمزةَ بن عبد المطلب، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[(٣)]، ولما بَشَّرَت ثُوَيْبَة أبا لَهَبٍ بمحمدٍ ﷺ أعتقها. وفي البخاري: «لما مات أبو لهب رَآه بعضُ أَهْلِهِ في النَّوم بشرِّ حالة، فقال له: ماذا لَقِيت؟ قال: لم ألقَ بعدكم رَخَاءً غير أني سُقِيتُ في هذه، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها، بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَة»[(٤)].

(١) سيرة ابن إسحاق (ص ٤٥).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٤٠)، وهذا الخبر رواه الحاكم في المستدرك وصححه، ومِن طريقه البيهقي في الدلائل (١/ ١٤٥). وقال ابن كثير في «السيرة» (١/ ٢٢٩): «إسناده جَيِّد قوي». والحديث له شواهد عند أحمد (١٧١٦٣)، وغيره.
(٣) «السيرة النَّبوية» للذهبي (ص ١٨).
(٤) رواه البخاري (٥١٠١).

وقد حضنته: أم أيمن بركة الحبشية ﵂، وهي مما ورثها رسول الله ﷺ عن والده.

أما مرضعته الثانية: فهي حَلِيمَةُ بنتُ أبي ذُؤَيْبٍ عبد الله بن الحَارِثِ السَّعْدِيَّة، حيث قَدِمَتْ هي وزوجها الحارث بن عبد العُزَّى مع نساءٍ مِن بني سَعْد يلتمسون الرُّضَعَاء، فأصابت حليمة رسول الله ﷺ وأخذته معها إلى أرضِ قومِها قُرْب الطَّائِفِ، وقد أدركت هي وزوجها أنهما أخذا نَفْسًا مباركة، إذ وجدا ذلك في سرعة حمارهما، ولبن ناقتهما، ثم بعد ذلك في غنمهما، ومكث ﷺ معها عامين حتى استكمل رضاعه، ثم وَفَدَت به على أمه في مكة، وحَرَصَت على بقائِه معها، فعادت به مرة أخرى، ولكن بعد مضي أشهر حَصَل له ﷺ حَادِثَة شقِّ صدره، وخشيت عليه مرضعته، فأعادته إلى أمه بمكة.

قال ابن إسحاق: «وإخوته من الرضاعة: عبد الله بن الحَارِث، وأُنَيْسَة، وخِذَامة وهي: الشيماء»[1].

حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ:

رَوَى الإمام مسلم من حديث أنس ﵁: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ حَلِيمَةَ، فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ»، قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ»[2].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٣٧ - ١٣٨).
(٢) رواه مسلم (١٦٢).

وهذه هي المرة الأولى التي يُشَقُّ فيها صَدْرُه، ثم إنه ﷺ حصل له شق الصدر والتطهير مرة ثانية ليلة الإسراء والمعراج[١].

وفي هذا عناية الله ﷻ بنبيه ﷺ، وإعداده للنبوة والرسالة.

وَفَاةُ أُمِّهِ وَجَدِّه ﷺ:

تُوفِّيت أُمُّ رسولِ الله ﷺ وهو ابن ست سنين، فقد ذهبت به لزيارة أخواله من بني النَّجَّار في يَثْرِب، وفي طريق عودتها إلى مكة ماتت بالأَبْوَاء ودُفِنتْ هناك، وقد وقف النَّبيُّ ﷺ على قبر أمه بعد البعثة، فبكى وأبكى، وقال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»[٢].

وقد كَفَله جَدُّه عبدُ المطلب، وأَحَبَّه وشُغِفَ به، وكان يجلسه على فِرَاشِه، لكنه تُوفِّي بعد سنتين من وفاة أمه ﷺ، وعمر النَّبيِّ ﷺ ثمان سنوات.

كَفَالةُ عمِّه أبي طالب:

بعد وفاة عبد المطلب، قام على أمر رسول الله ﷺ عَمُّه شقيق والده أبو طالب بن عبد المطلب، وقد رُزِقَ حبَّ رسولِ الله ﷺ، فكان شفيقًا عليه، ورفيقًا به، وكان أبو طالب قليلَ المال، وله عيال كثير.

وقد عمل ﷺ في أول شبابه في رَعْي الغَنَم، فقد كان يرعاها بالأُجْرَة؛ ليكسب بيده، ويأكل مما يكسب، قال ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه مسلم (٩٧٦). والأبواء: بلدة معروفة على طريق المدينة أيام القَوَافِل، وهي تقع شرق بلدة مستورة، ويُعرف واديها: بالخُرَيْبَة.

(٣) رواه البخاري (٢٢٦٢).

والقيراط: جزءٌ يسيرٌ من الدينار. وأخبر ﷺ أنه: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[1].

وبعد بلوغه ﷺ واستقلاله ردَّ الجميل لعمِّه؛ فأخذ بعض بنيه -علي ابن أبي طالب- ليرعاه ويكفله، وبُعث ﷺ بالنبوة والرسالة وعلي معه في بيته.

وتذكر الروايات: أن رسولَ الله ﷺ رَافَق عمه أبا طالب إلى الشام وهو في العاشرة من عمره، وفي هذه الرحلة تأتي قصة بحيرا الراهب، وما رأى مِن آيات النُّبُوَّةِ في رسولِ الله، ونصحه لأبي طالب أن لا يَدْخُل به بلاد الشام؛ خوفًا عليه من اليهود، والرومان النصارى، وسياق الخبر عند الترمذي[2]. فيه ألفاظ أنكرها نُقَّادُ الحَدِيث مثل الإمام الذهبي[3].

وقد ادَّعى بعض المستشرقين في العصر الحديث أنه تَرَتَّب على تلك المُقَابَلَة بين رسولِ الله ﷺ وبحيرا الراهب، أن رسول الله تعلَّم منه ما جاء به مِن الوحي بعد ذلك! وهو كلام ساقط متهافت؛ فرسول الله ﷺ أميٌّ؛ لا يقرأ ولا يكتب، والمقابَلَة كانت لبضع ساعات أيام شبابه، وحداثة سنه؛ فكيف يتعلم فيها -كما يزعمون!- هذا العِلْم المُفصَّل الذي جاء به بعد البَعْثَة والنُّبُوَّة؟! إن هذا غير ممكن. ورسول الله ﷺ لم يتعلَّم على يد أحدٍ مِن البشر؛ فقد كان أميًّا؛ لا يقرأ ولا يكتب، وإنما عَلَّمَه الله، وأوحى إليه وحيًّا، وأنزل عليه القرآن مفرَّقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة بحسب الأحوال والوقائع حتى تَمَّ الوحي، واكتمل التشريع.

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).
(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٠).
(٣) «السيرة النبوية» للذهبي (ص ٢٨).

دُروس وعِبَر:

١- بعد فقد النَّبيِّ ﷺ لوالده ثم والدته، ذَاق مَرارة اليُتْم الكامل، وفي حالته عَزَاء لكل يتيم يُصَاب بمثل مُصابه، وقد تَوَلَّى الله إعدادَه وتربيته، وسخَّر له مِن أقاربه مَن يَحُوطُه ويحفظه، ويقوم على شئونه.

٢- كانت حَلِيمَة راغبةً في الحصول على رَضيعٍ أهلُه أغنياءٌ، وما أخذت محمدًا اليتيم إلا لأنها لم تجد غيره، فكان في اختيار الله لها خير وبركة حيث حمدت ذلك، ورأت البركة مِن أول يوم أخذت فيه هذا اليتيم، وهكذا ما يختار الله للإنسان يكون فيه الخير، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٣- نشأة النَّبيِّ ﷺ الأولى في البَادِيَة -وهي أَصْفَى وأقرب إلى تزكية الفطرة بجوِّها الطَّلْق ورِبَاعِها الفَسِيحَة- أكسبتْه الفُتُوَّة، وقوة الجَسَد والأعضاء، وفَصَاحَة اللِّسَان.

٤- في حادثة شَقِّ صَدْرِه آية مِن الآيات، وعناية من الباري برسوله، وحماية له وحفظ مِن الشيطان ونزغاته، وهي إِرْهَاص مُبَكِّر للنبوة.

٥- في رعيه ﷺ للغَنَم دَرْس للشباب في طَلَب الكسب الحلال، وإن قَلَّ دَخْلُه، وفيه بَيَان للذوق الرفيع والإحساس الرقيق عند رسول الله ﷺ، فقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، لكنه ﷺ أَقْبَلَ على العمل والكسب بنفسه؛ حتى لا يكون كَلًّا على غَيْرِه، وهذا دَلَالة على شَهَامَةٍ في الطَّبْعِ، وبذلٍ للوُسْع، وبر في المعاملة، وسَعْي لطلب الرِّزْق.

٦- كما أن رَعْي الغنم قد أتاح له الهدوء الذي تتطلبه نفسه

الكريمة، والمتعة بجمال الصحراء، والتطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ومناجاة الله تعالى في هدأة الليل وظِلال القمر، كما أتاح له لونًا من التربية النفسية على: الصَّبْر، والحِلْم، والأَنَاة، والرَّأْفَة، والرَّحْمَة، والعِنَايَة بالضعيف، وحفظه عن الهلكة، ومَوَاطِن الخَطَر[1].

وفي هذا كله دُرْبَة على سياسة الأمم والشعوب.

(١) «السيرة النبوية» لعلي محمَّد الصلابي (١/ ٧٧).

حِفْظُ الله لرسولِه ﷺ من أَوْضَارِ الجَاهِلِيَّة

نشأ ﷺ كما هو معلوم في مجتمع جاهلي يَعْبُدُ أهلُه الأَصْنَام، ويدعونها من دون الله، ويذبحون لها، ويعتقدون في السَّحَرَة والكُهَّان، ويستقسِمون بالأزلام، ويتعاملون بالربا والميسر، ويشربون الخمر، ويقطعون السبيل، ويسيئون الجوار، إلى غير ذلك مِن انحرافاتٍ الجاهلية، ولكن الله تولَّاه وحَفِظَه، فلم يشاركهم في شيءٍ مِن انحرافاتِهم.

وهو ﷺ لم يجلس إلى معلِّمٍ يعلمه، وإنما تولته عنايةُ الله ورعايته.

يقول ﷺ: «ما هَمَمْتُ بقَبِيح مما كان أهل الجاهلية يَهُمُّونَ به غير مرتين من الدَّهْر كلتيهما يعصمني الله منها؛ قلتُ ليلة لفِتىً كان معي مِن قريش بمكة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر لي غنمي حتى أَسْمُرَ هذه الليلة بمكة كما يَسْمُرُ الفِتْيَان. قال: نعم. فخرجتُ فجئت أدنى دارٍ من دُور مكة فسمعت غناءً وضربَ دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، فلهوتُ بذلك الغناء وبذلك الصوت، فغلبتني عيني فما أيقظني إلا حَرُّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت كما سمعت في المرة الأولى، وصار لي ما صار في الأولى. قال ﷺ: فوالله ما هَمَمْتُ بعدها بسوءٍ مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بِنُبُوَّتِهِ»[1].

(١) «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ٤٣). وقال: «أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٣)، والبزار، كما في كشف الأستار برقم: (٢٤٠٣). وقال البوصيري كما في المطالب العالية:

وكان أهلُ الجاهلية لا يتحفَّظون مِن كشف العورات، ولما شارك ﷺ بنقل الحجارة في بناء الكعبة وعليه إزاره، قال له عمه العَبَّاس رضي الله عنه: «يا بن أَخِي، لو حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ على مَنْكِبَيْك دُونَ الحِجَارَةِ، قَالَ: فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا ﷺ»[1].

مشاركاته ﷺ في الأعمال العامة

لم يكن رسولُ الله ﷺ قَبْل البَعْثَة بمَعْزِلٍ عن المجتمع، بل كان يشارِك في الأمور العامة التي بها مَصَالِح ومنافِع، ويجتنبهم فيما فيه انحراف.

ومِن أشهر الأمور التي شَارَك فيها:

١- حَرْبُ الفِجَار:

وسُمِّيت بهذا الاسم؛ لانتهاكهم حُرْمَة الأشهر الحُرُم بالقِتَال فيها، وفِجَارَات العرب كثيرة، لكن التي شَارَك فيها رسولُ الله ﷺ -وله من العُمُر خمسة عشرة سنة- هي التي كانت بين قريش وكِنَانَة، وبين قَيْس عيلان، وكانت قَيْس هي البَادِئَة بالقِتَال في الشهر الحرام، ومشاركة النَّبيِّ ﷺ هي أنه كان يُجَهِّز لأعمامِه النَّبْل للرمي به[2]، وكان الظَّفَر فيها لقريشٍ وكِنَانَة على قَيْس.

٢- حِلْفُ الفُضُول:

سُمِّي حِلْفُ الفُضُول لأقوالٍ، منها: أن الذين شَارَكوا فيه كان يُسمَّى

رواه إسحاق بن راهويه بإسنادٍ حَسَن. وقال ابن حجر: هذه الطريق حَسَنة جليلة، وقال: وهو حديث حسن متصل، ورجاله ثقات».

(١) رواه البخاري (٣٦٤)، ومسلم (٣٤٠).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٢١). والحديث المروي: «كُنتُ أَنْبُلُ على أعمامي يومَ الفِجَار» ذكره ابن إسحاق بإسنادٍ منقطعٍ؛ فهو ضعيف.

كلُّ واحدٍ منهم: الفَضْل. وقيل: لأنهم دَخَلوا في أمر فضل غير مُتَعَيَّن عليهم. وقيل -وهو الأقرب-: مِن الفَضِيلَة؛ أي: الأمر الذي دَخَلوا فيه وتَعَاقَدُوا عليه، وهو: نُصْرَة المظلوم، أمرٌ فَاضِل حَسَن مِن مَكَارِم الأَخْلَاق.

وسبب الحِلْف: أن رَجُلًا مِن زُبَيْدٍ قَدِم مَكَّةَ ببِضَاعَةٍ، فاشتراها منه العاص بن وائل السَّهْمِي، ولكن لم يُعْطِه الثَّمَن ومَطَل به، فطلب الرجل مَن ينصره عليه فلم يجد أحدًا في أول الأمر، فَرَقَى جبلَ أبي قُبَيْس، ونَادَى بأعلى صوته، وقال في ذلك شِعْرًا يصف مظلمته:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضاعَتُهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

ومُحْرِمٌ أَشْعَثُ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ والَحَجَرِ

إِنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... ولَا حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغَدِرِ

فَمَشَى في ذلك الزُّبَيْر بن عبد المطلب وقال: "ما لهذا مترك!!"،حتى اجتمعت قَبَائِل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعَان التَّيْمِي، وتَعَاقَدُوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو غيرهم إلا نصروه وقاموا معه حتى يَنالَ حَقَّه، وقد شَهِد هذا الحِلْفَ رسولُ الله ﷺ، وقال بعد أن أَكْرَمَه الله بالرِّسَالَة: «لقد شَهِدتُ في دارِ عبد الله بن جُدْعَان حِلْفًا ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ ، ولو دُعِيتُ بمِثْلِه في الإسلام لأَجَبْتُ»[1]. وهذا الحِلْف يُنَافِي الحَمِيَّةَ الجاهلية، ويُعَدُّ مِن مكارم الأخلاق، ومِن مَفَاخِر العَرَب وقيامِهم بحُقُوق الإنسان.

(١) انظر: «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ٤٥). وقال: «أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٠)، قال الساعاتي في الفتح الرباني (٢١/ ٩): إسناده صحيح».

٣- بناء الكعبة المشرفة:

أَرَادتْ قُريشٌ بِنَاء الكعبةَ لما وَقَعَتْ بعضُ جُدْرَانِها من أَثَر السَّيْل، وأخذ بعضُ السراق كنزَها ولم تكن مسقوفة، فأجمعوا على ذلك، وأن لا يدخل في بنائها إلا الطَّيب مِن أموالهم، ولا يدخل فيها مالٌ مِن ربا أو مهر بغي.

وأول مَن بدأ نَقض الجُدْرَان: الوليد بن المُغِيرَة المَخْزُومِي وتَبِعَه النَّاسُ، وكانوا يَهابون ذلك، ثم أخذوا في بنائها ورفعوها ثمانية عشرَ ذراعًا، ولكن قَصَّرَتْ بِهِم النَّفَقَةُ الحلالُ فأنقصوا مِن مساحتها التي على قَوَاعِد إبراهيم عليه السلام، وأَخْرَجوا من الجهة الشمالية ستة أَذْرُع وشيئًا[1]. وحجروا عليه، ووسَّعوا في الحِجر، وجعلوا لها بابًا واحدًا، ورفعوه حتى لا يدخلها إلا مَن أَرَادوا.

وقد شارك معهم النَّبيُّ ﷺ، وكان ينقل الحجارة، ولما اختلفوا في وضع الحجر الأسود، وكاد يقع بينهم الشرُّ؛ احتكموا لأول دَاخِلٍ من باب الصَّفَا، فكان رسول الله ﷺ هو أول دَاخِل، ولما رأوه قالوا: "هذا الأمين"، ووُفِّق ﷺ في حَلِّ الإشْكَال بحلٍّ أَرْضَى الجميع، وحَقَّق العَدْل وقَطَع الفتنةَ، فَدَعَا بثوبٍ ثم وَضَع الحجرَ الأسود فيه، وقال: «ليأخذ كلُّ رجل بطرفِ الثوب»، ثم رفعوه؛ فأخذه بيده الكريمة، ووضعه في مكانه[2].

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٣).

(٢) «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ٤٨). والخبر أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٢٥) من حديث السائب بن عبد الله، والحاكم في المستدرك؛ وقال: «صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي». وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح».

حياته ﷺ الخاصة:

كان ﷺ يُحِبُّ مكارمَ الأخلاق، ومشهود له بين قَوْمِه بالصِّدْق والأَمَانَة، وقد عرفنا مِن قَبْل أنه اشتغل برعي الغنم في مُقْتَبَل عُمُرِه. ثم اشتغل بالتجارة عن طريق المُضَارَبَة والمُشَارَكَة بالجهد والعمل، حيث لم يكن عنده رأس مال، وكانت خَدِيجَةُ بنت خُوَيْلِد امرأةً غنيةً.

ولما عَلِمَت بصدقِ النَّبيِّ ﷺ وأمانته أعطته مالَهَا ليتاجِر فيه، فخرج إلى الشام وباع واشترى، وكسب شيئًا كثيرًا، وكان معه مَيْسَرَةُ غُلام خديجة، وقد ذَكَر لَها من أخلاق النَّبيِّ ﷺ وصدقِه وأمانته ما رغَّبَها في الزَّوَاج منه، فأرسلت إحدى صديقاتِها في ذلك، وتم زواجه ﷺ مِن خديجة وله من العُمُر ٢٥ سنة، بينما كان عمرها ٤٠ سنة، وقد رزقه الله منها الذرية الطيبة الطاهرة: القَاسِم، وعبد الله، وزَيْنَب، ورُقَيَّة، وأم كُلْثُوم، وفَاطِمَة.

وقد مات الأبناء وهم صغار، أما البنات: فأدركن الإسلام وأسلمن وتزوجن، وكانت وفاتُهن قَبْله إلا فاطمة.

ولم يتزوَّج رسولُ الله على خَدِيجَة حتى ماتت. وكانت نعم الزوجة في عَقْلِها وتَصَرُّفِها ونُصْرَتِها لرسولِ الله ﷺ، وقد أَثْنَى عليها رسول الله كثيرًا، وبلَّغها السَّلاَم من رَبِّها ومِن جبريل عليه السلام، وبَشَّرَها ببيتٍ في الجنة مِن قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ[1].

(١) رواه البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢). وانظر: «صحيح السيرة» (ص ٤٦) والقصب: هو اللؤلؤ المجوف.

دُرُوس وعِبَر:

١- كان رسول الله ﷺ بَشَرًا مِن البشر، ويجد في نفسه من الغَرَائِز والمُيُول ما يجده الشَّبَاب، فكان يشعر بما في السَّمَر واللهو مِن المُتْعَة، وتحدثه نفسه بذلك، لكنَّ الله عَصَمَه عن كل مظهرٍ مِن مَظَاهِر الانْحِرَاف، وكل ما لا يَتَّفِق مع ما يَعُدُّهُ الله له مِن النُّبُوَّةِ[1].

٢- شُعُور أهلِ الجاهلية بالخَطِيئَة؛ ولهذا سَمُّوا الحَرْبَ التي انْتَهَكُوا فيها حُرْمَة الحَرَم بحرب الفِجَار، وتَجَنَّبوا في نفقات بِنَاء الكعبة الأموال المحرَّمَة والمكَاسِب غير النظيفة، ومع الأسف يوجد مِن المسلمين مَن يتعامِل بتلك المكاسِب!

٣- الفِطَر السليمة، تُنْكِر الظُّلْم وتأبَاه، وتحب العدل والإنصاف، ولهذا تَنَادَى رجال من قريش لعَقْدِ حِلْف الفُضُول ونصرة المظلوم، وخاصة في حَرَم الله، والأمر المُلْفِت للنَّظَر: أن هذا الحِلْف لم يكن له أثرٌ بعد البَعْثَة في الدِّفَاع عن المظلومين والمعذَّبين من المسلمين! وهذا يعطي مُؤشِّرًا لأَثَر العقيدة في المَواقِف، وأنه لا يُنتظَر نُصْرَة المؤمنين الموحِّدِين إلا مِن أمثالِهم من أهلِ الإيمان والإسلام لا من غيرِهم.

٤- الحل الذي فَعَلَه رسولُ الله ﷺ لمشكلة نزاعهم على الحجر الأسود كان حلًّا حكيمًا عادلًا، والله يوفِّق مَن يشاء مِن عباده، وهو مقدمة لما يعده الله له من القيام بأمر النبوة والرسالة.

٥- كان رسولُ الله ﷺ عِصَاميًّا في حياته، فعمل في صِبَاه برعي الغنم على قِلَّةِ دَخْلِه الاقتصادي -قراريط-، كما عمل في شبابه

(١) «السيرة النبوية» للصلابي (١/ ٨٢).

بالتجارة على سبيل المقارَضَة والمُضَارَبة، وفي هذا درسٌ للناشِئَة، وحَثٌّ على العَمَل وإن قلَّ دخله.

٦- زواجه ﷺ من امرأة أرملة، وتكبره بسنين كثيرة، وما جعل الله في ذلك الزواج من الخير والبركة؛ فيه درسٌ للشَّبَاب وضرورة مراجعة الصِّفَات التي يشترطها بعضٌ منهم في الزوجة، وأن كِبَرَ السِّنِّ، وسَبْق الزَّوَاج غير مؤثِّر إذا وُجِدَتْ صِفَات مُكَافِئَة مِن الخُلُق والدِّين.

إِرْهَاصَات النُّبُوَّة وبَشَائِر الخَيْر

اقْتَضَتْ حكمةُ الله أن يجري بعضَ الأحداث والبَشَائِر تهيئةً لاستقبالِ نُبُوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، فكان من ذلك أمورٌ، منها:

١- بشارات الأنبياء السابقين به:

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

٢- إخبار اليهود عن بعثته ﷺ:

عن سَلَمَةَ بنِ سَلَامَةَ بن وَقْشٍ رضي الله عنه وكان مِن أصحابِ بَدْر، قال: «كان لنا جار يهودي مِن يهود بني عبد الأشهل، فخرج علينا يومًا من بَيْتِه قبل مَبْعَث النَّبيِّ بيسيرٍ، فوقف على المجلس، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أَحْدَث مَن فيه سِنًّا عليَّ بُرْدَة مُضْطَبِعًا فيها، فذكر البَعْثَ والقِيَامَة، والحِسَاب، والمِيزَان، والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك وأصحاب أوثان لا يَرَوْن أن بَعْثًا كَائِن بعد الموت. فقالوا: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنًا! قال: نعم، قالوا: ويحك! وما آية ذلك؟

قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليَّ فقال: إن يستنفِذ هذا الغُلَامُ عُمُره يدركه. قال: سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بَعَث الله تعالى رسوله ﷺ وهو حي بين أَظْهُرِنَا -يعني اليهودي-؛ فآمَنَّا به وكَفَر به بغيًا وحَسَدًا»[1].

٣- تَسْلِيم الحَجَر عليه بالنبوة قبل البعثة:

عن جَابِر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إني لأَعْرِفُ حَجَرًا بمكة كان يُسَلِّم عليَّ قَبْل أن أُبْعَث، إني لأَعْرِفُهُ الآن"[2].

٤- إخبار الكهان والجان ببعثته ﷺ:

كان الجنُّ يَسْتَرِقون السَّمْعَ فيأخذون الكلمة والكلمتين مِن الحقِّ ثم يلقون بها إلى أوليائهم مِن الإِنْس، وهم الكُهَّان فيخلطونها بكهانتهم، ومِن هذا ما كان مِن الأخبار عن بَعْثَة النَّبيِّ ﷺ واقتراب زمانها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "ما سمعتُ عمرَ لشيء قط يقول: إني لَأَظُنُّهُ كذا إلا كان كما يَظُنُّ. قال: وبينما عمر جَالِس إذ مَرَّ به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إنَّ هذا على دينِهِ في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليَّ الرجل، فَدُعِيَ له، فقال له ذلك. فقال: ما رأيتُ كاليوم اسْتُقْبِلَ به رجلٌ مسلمٌ! قال: فإني أَعْزِم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتُكَ؟ قال: بينما أنا يومًا في السوق، جاءتني أعرف منها الفَزَع فقالت: أَلَم تَرَ الجِنَّ وإبْلاَسَهَا، ويَأْسَهَا مِن بَعْد إنْكَاسِهَا،

(١) انظر: «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ٢٣). وقال: «رواه ابن إسحاق بإسنادٍ متصلٍ، وصَرَّح فيه بالتحديث؛ فهو حَسَن».
(٢) رواه مسلم (٢٢٧٧).

ولُحُوقَهَا بِالقِلاَصِ، وَأَحْلاَسِهَا؟! قال عمر: صَدَق، بينما أنا عند آلهتِهم إذ جاء رجلٌ بعِجْلٍ فذبحه، فصرخ به صَارِخٌ لم أسمع صارخًا قط أشد صوتًا منه، يقول: يَا جَلِيحْ، أَمْرٌ نَجِيحْ، رَجُلٌ فَصِيحْ، يقولُ لا إله إلا الله، فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ: هَذَا نَبِيٌّ"[1].

ومن حديث جابر ﷺ قال: "إن أوَّلَ خَبَرٍ قَدِم علينا عن رسول الله ﷺ أن امرأةً كان لها تَابِعٌ، قال: فأتاها في صورة طَيْرٍ، فَوَقَع على جِذْعٍ لهم، قال: فقالت: ألا تَنْزِل فَنُخْبِرَكَ وَتُخْبِرَنَا؟ قال: إنه قد خَرَج رَجُلٌ بمكة حَرَّم علينا الزِّنَا ومَنَع مِن الفِرَار"[2].

٥- الرؤيا الصادقة:

وهي أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ مِن الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[3].

ومن حديث ابن عباس ﷺ: أن النَّبيَّ ﷺ قال لخديجة: "إني أرى ضَوءًا وأَسْمَع صَوْتًا، وإني أخشى على نفسي"[4].

٦- حادثة شق الصدر:

وقد حَدَثَت له ﷺ وهو مُسْتَرْضَع في بني سَعْد.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦٦).

(٢) رواه أحمد (١٤٨٣٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤٣): «رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجاله وُثِّقُوا». وانظر: «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ٢٤). ومعنى قوله: «ومنع من الفرار: قال أهل العلم: المراد الفرار من الزحف في قتال الكفار».

(٣) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) رواه أحمد (٢٨٤٥). وانظر نحوه في صحيح مسلم (٢٣٥٣).

الفصل الثاني

الرسول ﷺ من البعثة إلي الهجرة

الرسول ﷺ من البعثة إلي الهجرة

أول نزول القرآن في شهر رمضان:

كان رسول الله ﷺ قد أنكر بفطرته السليمة انحرافاتِ أهل الجاهلية وعبادتهم غير الله؛ ولذلك حُبِّب إليه الخَلَاء للتفكُّر والتَّأمُّل، ومباينة أهل الشرك، فكان يخلو بغار حراء الواقع في قمة جبل النور، وهو بعيد عن مباني مكة في ذلك الزمان، لكن الجالس في الغار يمكنه رؤية الكعبة المشرفة، فكان يمكث في خلوته الليالي ذوات العدد، فإذا انقضى زاده عاد إلى أهله ثم تزود لمثلها، وفي شهر رمضان المبارك أراد الله بالبشرية خيرًا فأرسل رب العزة والجلال أفضل ملائكته جبريل عليه السلام، إلى أفضل خلقه محمَّد بن عبد الله ﷺ بأول "سورة اقرأ"، وكان ذلك يوم الاثنين كما ثَبَت في صحيح مسلم عن أبي قَتَادَة أن رسول الله ﷺ سُئِل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه، ويوم أُنزل عليَّ فيه»[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «وُلِدَ نَبِيُّكُمْ محمَّدٌ ﷺ يوم الاثنين، ونُبِّئ يوم الاثنين»[2].

و«سورة اقرأ» أول ما نَزَل من القرآن الكريم، وبها نبِّئ رسولُ الله ﷺ؛ رَوَى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بُدِئَ به رسولُ ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة النوم، فكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءت مِثْل فَلَق الصُّبْح، ثم حُبِّب إليه الخَلَاء، وكان يخلو بغار حِرَاء

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

(٢) تهذيب سيرة ابن كثير» لمروان كجك (ص ١٠١).

فَيَتَحَنَّث[1] فيه الليالي ذَوَات العَدَدِ قَبْل أن يَنْزِعَ إلى أهْلِه ويَتَزَوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثْلِها، حتى جاءَه الحقُّ وهو في غَار حِرَاء، فجاءه المَلَك فقال: اقْرَأ، فقلتُ: ما أنا بِقَارِئ، قال: فأخذني فَغَطَّنِي حتى بَلَغ مني الجَهْد ثم أَرْسَلَنِي فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فَرَجَع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوه حتى ذَهَب عنه الرَّوْعُ"[2].

ومما يَلْفِتُ النَّظَرَ في الحديث: قولُ رسول الله ﷺ: «ما أَنَا بِقَارِئ»، جَوَابًا على قولِ جبريل: «اقرأ»، وهو تعبير واضِح عن عدم معرفته ﷺ القراءة؛ لأنه لم يَسْبِق له تعلُّم ذلك؛ فهو أُمِّي، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهذا مِن دَلَائِل نُبُوَّتِه[3].

شِدَّةُ الوَحْي على رسولِ الله ﷺ، وتَثْبِيت خَدِيجَة له:

لقد كان لِقَاء المَلَك برسولِ الله ﷺ شديدًا عليه رَغْم المُمَهِّدَات السَّابِقَة مِن سَماع الصَّوت، وتَسْلِيم الحَجَر، والرؤيا الصَّادِقَة الوَاضِحَة؛ إنه أمرٌ عَظِيمٌ وجَلِيلٌ أن يَتَلَقَّى القَلْبُ البَشَرِي كَلَامَ الله الخَالِق بواسطة المَلَك العَظِيم، رَجف له فُؤَادُ رسولِ الله ﷺ وارْتَاع حتى طَلَب من

(١) التَّحَنُّث: التَّعَبُّد.
(٢) رواه البخاري (٣).
(٣) «مِن مَعِين السيرة» لصالح الشامي ص (٣٠).

أَهْلِه أن يُزَمِّلُوه ويُدَثِّروه حتى يذهب عنه الرَّوْعُ، وكانت طَرِيقَةُ جبريل معه في أول لِقَاء فيها شدة وجهد ليبيِّن له عظمةَ الأمر، وضَخَامَة المسؤولية، والشدة التي سيلاقيها في نَشْر الدعوة؛ فهي من الإعْدَاد له ﷺ، والتهيئة النفسية.

قال ابن عباس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يُعَالِج من التنزيل شِدَّة، وكان مما يحرِّك شفتيه، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٧]، قال: جَمْعَهُ لك في صدرك وتقرَأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، قال: فاستَمِع له وأَنْصِت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريلُ اسْتَمَع، فإذا انطلق جبريلُ قرأه النَّبيُّ ﷺ كما كان قرأ»[1].

وقالت عائشة ﷺ: «ولقد رأيتُه يَنْزِلُ عليه الوحي في اليوم الشَّدِيد البَرْد فَيَفْصِمُ عنه وإن جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[2].

وقد وَقَفَت خديجة ﷺ مع رسول الله موقفًا جليلًا، فكانت تُهدِّئ مِن رَوْعِه، وتُثْبِت له بالدليل بعد الآخَر أن الذي جاءه هو الحق من ربه، وأن الله لا يخزيه؛ لما فيه من خِصَال الخيرِ والبرِّ، والمعروف، فقالت: «كلا، والله ما يُخْزِيك الله أبدًا؛ إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَحْمِل الكَلَّ، وَتُكْسِبُ المَعْدُوم، وتَقْرِي الضَّيْف، وتُعِين على نَوائِبِ الحَقِّ».

ثم انطلقتْ به ﷺ حتى أتت به رَجُلًا مِن أهل العِلْم، هو ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزّى -ابن عم لها-، وكان شيخًا كبيرًا

(١) رواه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).
(٢) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

قد عَمِي، وقد تَنَصَّر في الجاهلية، وكان -قبل ذَهَاب بَصَرِه- يَكْتُب الكِتَابَ العِبْرَاني، فكان يكتب من الإنجيل بالعِبْرَانِيَّة ما شاء الله أن يكتب، فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع مِن ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قَط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يدركني يومُك أَنْصُرْكَ نَصْرًا مؤزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ -أي: يلبث- وَرَقَةُ أن تُوفِّي، وفَتَر الوحيُ[1].

وذكر ابن إسحاق في السيرة رواية منقطعة فيها: «أن خديجة ﵂ قالت لرسول الله ﷺ: «أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبريل، فقال لخديجة: هذا جبريل قد جاء، قالت: قم فاجلس على فخذي، فقام رسول الله فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله وجلس في حجرها، فقالت. هل تراه؟ قال: نعم، ثم إن خديجة حسرت عن رأسها وألقت خمارها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا بن عم اثْبُتْ وَأَبْشِرْ، فوالله إنه مَلَك وما هذا بشيطان»[2].

فهذه القصة -مع غيرها- إن ثبتت؛ فهي مما يوضِّح رجحان عقل خديجة ﵂ واجتهادها في تثبيت رسول الله بالدليل بعد الآخر حتى

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٧٠ - ٢٧١)، وذكر رواية أخرى، لكن فيها انقطاع كذلك.

تهدأ نفسه، وتحصل له الطمأنينة.

فَتْرَة الوَحْي:

فَتَر الوحي كما في رواية البخاري ليعطي فرصة لرسول الله ﷺ ليتأمل، وتهدأ نفسه وتستطيع تحمُّل تكاليف الرسالة والنبوة، ثم إنه ﷺ اشْتَاق لعودة الوحي واستمراره، وكان يَترقَّب ذلك، ففي الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يتحدث عن فترة الوحي، قال: «فبينما أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء فإذا المَلَك الذي جاءني بحِرَاء قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض، فجثيت منه فَرَقًا حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زَمِّلُوني فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١- ٥]، قال: ثم حِمَي الوحي وتَتَابعَ[1].

فهذه الرواية تحدد بَدء الرِّسَالة، والأمر بالبلاغ والدعوة، والنذارة بعد النبوة، لكن من غير إعلان للعامة؛ فإن أول ما أَوْحَى إليه ربُّه أن يقرأ باسم ربه الذي خَلَق، وذلك نبوته ﷺ فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره بالتبليغ، ثم أنزل الله عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]، فنبَّأه باقرأ وأرسله بيا أيها المدثِّر.

وأما مُدَّة فَتْرَة الوحي فقد اختلفتْ أقوالُ العلماء فيها؛ فحكى بعضُهم أنها سنتان ونصف. وقال آخرون: إنها ستة أشهر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها أربعون يومًا[2]، (وهو الراجح)، ويفسِّر الحَافِظ ابنُ

(١) رواه البخاري (٤٩٢٦)، ومسلم (١٦١).
(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٧).

حَجَر معنى فَتْرَة الوحي: بأنها تأخُّر نزول القرآن، أما جبريل عليه السلام فكان يأتيه ولم ينقطع عنه[1]. ويذكر ابن كثيرُ فترة أخرى، وهي ليالي يسيرة، ونزلت بعدها سورة: «والضحى»[2].

الدعوة السرية:

بعد معاودة الوحي ونزول سورة: «يا أيها المدثر»، وسورة: «يا أيها المزمل»، قَام رسولُ الله ﷺ بإبلاغ الدعوة في نِطَاق أسرته ومعارفه، ومَن يَثِق به منهم، وهو ما عُرِف عند علماء السِّيَرة: بالدعوة السِّرِيَّة، حيث استمرت ثلاث سنوات.

وأول مَن عَرَف بأمر النبوة والرسالة زوجته خديجة رضي الله عنها فآمَنَت وصَدَّقت، وآزَرَت ونَصَرَت، ثم بقيَّة أهل البيت النبوي: مولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان غلامًا شابًا في حِجره ورعايته، وعَرَض رسولُ الله ﷺ الإسلام على أبي بكر الصديق؛ فَبَادَر إلى الإسلام من غير تردد حيث كان صَدِيقًا لرسول الله ﷺ، وقد رَوَى ابنُ إسحاق أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوةٌ وتَرَدُّدٌ ونَظَر؛ إلا أبا بكر، ما عَكَمَ عنه حين ذكرتُه، ولا تَرَدَّدَ فيه»[3]، وهذا وإن كان مرسلاً؛ إلا أنه يشهد له حديث أبي الدرداء عند البخاري، وفيه قول النَّبيِّ ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فَقُلتُم: كَذَبْتَ، وقال أبو بكر: صَدَقتَ، وواسَانِي بِنَفْسِهِ ومَالِهِ.... » الحديث[4].

وكان أبو بكر رضي الله عنه صَدْرًا مُعَظَّمًا، ورئيسًا في قريش مُكَرَّمًا، وصَاحِب

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٧).
(٢) «تهذيب سيرة ابن كثير» لمروان كجك (ص ١٠٣).
(٣) «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤٣٣).
(٤) رواه البخاري (٣٦٦١).

مـال، وكان مُحَبَّبًـا مُتَأَلِّفًـا لقومه.

وقـد اسْـتَفَاد مِـن هـذه الصِّفات فـي الدعوة إلـى الله، فإنه ﷺ بعـد معرفته للحـق وإسـلامه، أخـذ يدعـو إلـى الله وإلـى الإسـلام مَـن وَثَـق بـه مـن قَوْمِه، فأسْـلَم علـى يديـه ثُلَّـة مـن السـابقين الأوليـن، والعشـرة المبشَّـرين بالجنـة، والذيـن أصبحـوا فيمـا بعـد قـادة وسـادة في الأمـة؛ منهـم: الزُّبَيْـر بن العَـوَّام، وعُثْمَـان بـن عَفَّـان، وطَلْحَـة بـن عُبَيْـد الله، وسَـعْد بـن أبـي وَقَّـاص، وعبـد الرحمـن بـن عَـوْف، فجاء بهم إلى رسـول الله ﷺ فأسـلموا وصدقـوا. ثم جاء مـن الغَـد بعثمـان بـن مَظْعُـون، وأبـي عُبَيْدَة بـن الجَـرَّاح، وأبي سـلمة بن عبد الأَسَـد، والأَرْقَـم بن أبـي الأَرْقَـم، فأسـلموا ﷺ[1].

وهكـذا كان أبـو بكـر يدعـو إلـى الله، ويجتهـد ويأتـي بالرجـالِ تِلْـوَ الرجـال، ويتخيَّـر الثِّقَـات والأبطـال، وفـي هـذا دَرْس للدُّعَـاة، وأهميـة عُلـوِّ الهِمَّـة والاجْتِهَـاد فـي الدَّعْـوَة إلـى الله، مـع الإخـلاص وابْتِغَـاء ثَوَابِـه.

وقد أَسْلَمَ في السنوات الثلاث عددٌ مِن الرجال والنساء والشباب، ومِن الأحرار والعبيد ما يقارب الأربعين نَفْسًا، وقد دخل الإسلامُ أغلبَ البيوت في مَكَّةَ، لكنهم كانوا يُسْلِمون سِرًّا ويكتمون أمرَهم؛ خوفًا من المشركين، والمُتَأَمِّل في أسمائِهم وأنسابِهم يجد أنهم مِن كافة الطَّبَقَات وهكذا الحق يُقْبِل عليه الجميعُ، ولا يكون مَقْصُورًا على طائفةٍ أو قبيلٍ دون آخَر.

والحكمـة مـن سـرية الدعـوة فـي أول أمرهـا ظاهـرة؛ إذ إن مجابهـة المجتمـع بمـا يخالـف مـا هـم عليـه يحتـاج إلـى حكمـةٍ وإعْـدَادٍ، وتكويـن للعناصـر المسـتجيبة حتـى يَشْـتَدَّ عودُهـا ويكثـر عددُهـا، وتقـوى نفوسُهـم علـى تحمُّـل البَـلَاء، وفـي هـذا تعليـم للدعـاة إلـى الله وبيـان مشـروعية

(١) «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤٣٩).

الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة.

وقد اتخذ النَّبيُّ ﷺ دارَ الأَرْقَم بن أبي الأرقم المَخْزُومي التي تقع عند الصَّفَا مكانًا لاجتماعه بمَن أسلم مِن أصحابه[1]، وكان اختياره دار الأرقم لمواصفات في موقعها القريب مِن المسجد، ولكنه لا يقع تحت نَظَرِ قريش وهم في أنديتِهِم حول الكَعْبَة، وصاحبها كان شابًا عزبًا من بني مخزوم، وقد أسلم ولا يَعْلَم عن إسلامه أحدٌ مِن قَوْمِه، وكان والدُه كفيفَ البَصَر.

وقد اسْتَمَر اجتماعُ النَّبيِّ ﷺ بأصحابه في هذه الدار سِرًّا حتى بعد إعلانِ الدعوة والجهرِ بها، وبعد الهِجْرَة إلى الحَبَشَة؛ فقد أسلم عمرُ في السنة السادسة والنَّبيُّ ﷺ في دار الأرقم.

الدعوة الجهرية:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال ابن جرير: "وأنذر عشيرتك من قومك الأقربين إليك قرابة، وحذِّرهم مِن عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم"[2].

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ نَادَى رسولُ الله في قريش بطنًا بطنًا، فقال: أرأيتم لو قلتُ لكم: إن خَيْلًا بِسَفْحِ هذا الْجَبَل، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عليك كَذِبًا قط. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٥٣).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ٤٨١).

لَهَـبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة"[1].

وفي رواية للإمام مسلم: أن النَّبيَّ ﷺ صَعَد الصَّفَا فَنَادَى: «يا معشرَ قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المُطَّلِب، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عَبَّاس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صَفِيَّة عَمَّةَ رسولِ الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فَاطِمَة بنتَ رسولِ الله، سَلِيني بما شئت، لا أغني عنك من الله شيئًا»[2].

وقد بدأ رسول الله ﷺ النِّذَارَة بما كانوا يعلمونه في شخصه الكريم، ولا ينكرونه؛ بدأ بقَضِيَّةٍ لا يختلفون فيها، وهي صدقه ﷺ، فأجابوه: "ما جَرَّبْنَا عليك كَذِبًا"، وهم يعلمون استحالة أو استبعاد الخبر، فمكة آمنة، وكل العرب تَدِين لحرمة مكة وقدسيتها؛ فأنَّى أن تُغِير عليها خَيْلًا، ومع ذلك كان لديهم استعدادٌ لقَبول هذا الخَبَرِ مِن رسولِ الله ﷺ؛ لأنّهم لم يجرِّبوا عليه كَذِبًا. فأعلن إنذارَه لهم بقضيَّة كبرى، وحقيقة عظمى؛ أنذرهم يومَ البَعْث والجَزَاء، أنذرهم عذاب الله الجَبَّار لمن كَذَّب به واسْتَكْبَر.

وانطلق النَّبيَّ ﷺ بعدها يدعو إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، لا يَصْرِفُهُ عن ذلك صَارِفٌ، ولا يردُّه عن ذلك رادٌّ، ولا يصدُّه صادٌّ.

وكفارُ قريش في أول أَمْرِهم غير منكرين لما يقول، بحيث كان إذا مَرَّ بهم في مجالسهم يشيرون إليه: "إن غلام بني عبد المطلب ليُكلَّم مِن السَّمَاء، إلى أن عَاب آلهتهم، وذكر آباءَهم الذين ماتوا على الكفر؛

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) رواه مسلم (٢٠٦).

فانتصبوا لعداوتِه وعداوة مَن آمن معه، يعذِّبون مَن لا مَنْعَة عنده أشد العذاب، ويؤذون مَن لا يَقْدِرون على عذابِه.

واشْتَدَّ الأمرُ، وتَنَابَذ القومُ، ونَادَى بعضُهم بعضًا، وتآمرت قريش على مَن أسلم منهم، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، وحدب على النَّبيِّ ﷺ عمُّه أبو طالب، ومَنَع الله عن رسول به وببني هاشم وبني المطلب دون أبي لهب[1].

لقد طُبِع أبو طالب بحبِّ رسول الله ﷺ، فكان يحنو عليه، ويُحسِن إليه، ويُدافِع عنه ويُحَامي، ويخَالِف قومَه في ذلك، مع أنه على دينهم وخُلَّتِهم، ولم يختره الله للإسلام؛ لتبقى هيبتُه في نُفُوس قريش، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ فهذا أبو طالب وأبو لهب، كلاهما مِن أعْمَام النَّبيِّ ﷺ، كافران لم يؤمنا به ﷺ، أحدهما: في ضحضاح من نار[2]، والآخر في الدَّرْك الأَسْفَل من النار.

قال ابن القَيِّم رحمه الله: "وكان مِن حكمة أحكم الحاكمين: بقاؤه على دينِ قومِه؛ لما في ذلك من المصَالِح التي تبدو لمن تَأَمَّلَها"[3].

ومنها: بقاء احترامِهم له وهيبتِهم منه، ومجاملته؛ لأنه سيدٌ مطاعٌ في أَهْلِه، وأهل مكة لا يَتَجَاسَرون على مكاشفتِه بشيءٍ يؤذيه، ما دام على دينِهم ومِلَّتِهم.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٦٩).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩). عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ». وهذا بسبب نصرته لرسول الله ﷺ وحياطته له.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٢).

ما لَقِيه النَّبيُّ ﷺ مِن أَذَى المشركين

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ في الله، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ في الله، ومَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَت عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بينِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذو كَبِدٍ، إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»(١).

وعن عُرْوَة بن الزُّبَيْر قال: سَأَلْتُ عبدَ الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدِّ شيء صَنَعَه المشركون بالنَّبيِّ ﷺ. قال: بَيْنَا النَّبيُّ ﷺ يصلي في حِجْر الكعبة؛ إذ أَقْبَل عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، فَوَضَع ثَوْبَه في عُنُقِه، فَخَنَقَه خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَل أبو بكر حتى أخذ بِمَنْكِبِه، ودَفَعَه عن النَّبيِّ ﷺ، قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ الله... ﴾ الآية [غافر: ٢٨](٢).

وغَضِب أبو جهل مِن صلاة النَّبيِّ ﷺ عند الكعبة عَلَنًا، فقال: هل يُعفِّر محمَّد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم. فقال: واللات والعزّى لئن رأيتُه يفعل ذلك لأَطَأَنَّ على رَقَبَتِه ولأعفِّرنَّ وَجْهَه. فَأَتَى رسولَ الله ﷺ وهو يصلي زَعَمَ ليَطَأَ على رَقَبَتِه، فما فَجَأَهُم منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ ويَتَّقي بيديه، فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه لخَنْدَقًا من نارٍ. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لَاخْتَطَفَتْهُ الملائكة عُضْوًا عُضْوًا»(٣).

لقد كان النَّبيُّ ﷺ وهو يعيش في هذه الأَجْوَاء التي تَتَصَاعَد منها

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٣٨٥٦).
(٣) رواه مسلم (٢٧٩٧).

أَبْخَرَةِ الكَرَاهِية والحِقْد والغِلِّ، يشعرنا أن الذي كان يهيمن عليه أثناءَها إنما هو التفكير في دعوته، وبذل كل الطاقة لنشرها؛ محاولًا الوصول إلى قُلُوب الناس، وبذلك كان ﷺ أُنْمُوذجًا لأصحابِه ﷺ في الصَّبْر والتَّحَمُّل في ذاتِ الله تعالى.

شِدَّةُ طُغْيَان كُفَّار قريش:

لقد وَقَفَ كُفَّار قريش مِن النَّبيِّ ﷺ موقفًا لا يَقِفُ مِثْلَه إلا سَلَفُهُم مِن أمثال: فِرعون وهَامَان وقَارون[1].

ومن أوجه مشابهتهم لأولئك: الاسْتِكْبَار عن الإيمان مع تيقنهم بصدق ما يُدعَون إليه مِن الحقِّ، قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

رَوَى ابنُ إسْحَاق عن الزُّهْرِي: «أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأَخْنَس بن شَرِيق، خَرَجوا ليلةً يَتَسَلَّلون، يَتَسَمَّعون من رسولِ الله ﷺ وهو يصلي بالليل في جَوْف بَيْتِه، وأخذ كلُّ رَجُلٌ منهم مَجْلِسًا، وكلًّا لا يَعْلَم بمكان صاحبه، فلما أصبحوا تفرَّقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقالوا: لا نعود، فلو رآنا بعض السُّفَهَاء لوقع في نَفْسِه شيءٌ، ثم عادوا لمثل ليلتهم، فلما تفرَّقوا تلاقوا فتلاوموا كذلك، فلما كان في الليلة الثالثة وأصبحوا جمعتُهم الطريق، فتعاهدوا أن لا يعودوا، ثم إن الأَخْنَس بن شَرِيق أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمَّد؟ فقال: يا أبا ثَعْلَبة، والله لقد سمعتُ أشياءَ أعرفها وأعرف ما يُراد بها. وسمعت أشياء ما عرفتُ معناها ولا ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا، والذي حَلَفْتَ به كذلك. ثم

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤٧) مِن حديث ابن مسعود ﷺ أنّ النَّبيَّ ﷺ وَصَف أبا جهل بأنه فرعون هذه الأُمَّة، وفي سنده انقطاع.

أتى أبا جهل فقال: ما رأيك؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرَفَ؛ أطعموا فَأَطْعَمْنَا، وحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تَجَاثَيْنَا على الرُّكَب، وكُنَّا كَفَرَسِي رِهَان، قالوا: منَّا نبيٌّ يَأْتِيه الوَحْي من السماء؛ فمتى نُدْرِك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدِّقُه. فقام عنه الأخنس وتركه»[1].

كم كانت قوةُ التأثير بالقرآن الكريم قويَّة على السَّامِعِين؛ فهؤلاء صناديد الكفر يَتَسَلَّلون ليلًا ليستمع كلٌّ واحدٍ منهم قراءته ﷺ، لا يملكون لأنفسهم دَفْعًا دون استماع القرآن يَتَدَفَّق من فِي النَّبيِّ ﷺ غَضًّا طَرِيًّا، ولكن غَلَبَة الهَوَى والكِبْر على العَقْل، والمُنَافَسَة بالبَاطِل أَذْهَبَتْ ذلك الأَثَر، فلا درَك لهم مِن الهَلَاك؛ فأبعدهم الله.

وعن المُغِيرَة بن شُعْبَة رضي الله عنه قال: إن أَوَّلَ يوم عَرَفْتُ فيه رسولَ الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل، إذ لَقِيَنَا رسولَ الله ﷺ، فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم، هلُمَّ إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله. فقال أبو جهل: يا محمَّد، هل أنت مُنْتهٍ عن سبِّ آلهتنا، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بَلَّغْتَ، فوالله لو أني أعلم أنَّ ما تقول حقًّا ما اتَّبَعْتُك. فَانْصَرَفَ رسولُ الله ﷺ، وأَقْبَلَ عليَّ فقال: والله، إني لأَعْلَم أن ما يقول حقًّا، ولكنّ بني قُصَي قالوا: فينا الحِجَابَة، فقلنا: نعم. فقالوا: ففينا النَّدْوَة. قلنا: نعم. ثم قالوا: فينا اللِّواء. فقلنا: نعم. وقالوا: فينا السقاية. فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا؛ حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منّا نبيّ، والله لا أفعل[2].

---

(١) السيرة النبوية «لابن هشام» (١/ ٣١٥). وقد صَرَّح ابنُ إسحاق بالتحديث عن الزُّهْرِي، وذكره الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٤٧٠)، وقال: «أخرجه محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات عن سعيد بن المسيب، بسندٍ صحيح».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» للذهبي (١/ ١٣٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٢٠٧).

وعن ابن عباس ﷺ: أن الوَلِيد بن المُغِيرَة جاء إلى رسول الله ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمِّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا؟ قال: لِمَ؟ قال: لِيُعْطُوكَهُ، فإنّك قد أَتَيْتَ محمدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ. قال: قد علِمتْ قريشٌ أني من أكثرها مالًا. قال: فَقُل فيه قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَك أنّك مُنْكِرٌ له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجلٌ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزٍ، ولا بقَصِيدَة مني، ولا بأشعار الجَنِّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حَلَاوة، وإن عليه لطَلَاوَة، وإنّه لمُثْمِرٌ أَعْلَاه، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وإنه ليَعْلُو ولا يُعْلَى، وإنه لَيَحْطِمُ ما تَحْتَه. قال: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حتى تقولَ فيه، قال: فَدَعْنِي حتى أُفَكِّرَ فيه، فَلَمَّا فَكَّر قال: هذا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُه عن غَيْرِه. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١- ١٣][1].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي قَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَ أَمْرَنَا وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيُكَلِّمْهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ. فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَأَتَاهُ عُتْبَةَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الله؟ فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ. ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبَدُوا الآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعَمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمَ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنَّا وَالله مَا رَأَيْنَا أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِه مِنْكَ؛ فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا وَعِبْتَ دِينَنَا، وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ حَتَّى لَقَدْ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢)، وقال: «صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

طَارَ فِيهِمْ: أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى!

أَيُّهَا الرَّجُلُ: إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ؛ فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ شِئْتَ، وَنُزَوِّجَنَّكَ عَشْرًا، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ، جَمَعْنَا لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَرَغْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿حم ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١-١٣].

فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنْ تُكَلِّمُونَهُ إِلَّا قَدْ كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. ثم قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً[1] مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ؛ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ الرَّجُلُ بِالْعَرَبِيَّةِ فَلَا تَدْرِي مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ»[2].

فكل هذه الروايات دَلَائِل على أن القومَ لديهم في أنفسهم اعترافٌ بالحقِّ، وإصرار على الباطل، واعتصام بالدنيا، وركون إلى الجَاه والمَنْزِلَة، وانتهى الأمر بكبار هؤلاء إلى قَلِيب من قُلُب بَدْر الكبرى جِيفَة نَتِنَة: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧].

---

(١) البَنِيَّة: المراد الكعبة لأنها بَنِيَّة إبراهيم عليه السلام.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٨٤٠٩)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٠٢) بأطول من هذا. وانظر: «البداية والنهاية» (٤/ ١٥٥). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٠): «فيه الأجلح الكندي مختلف في توثيقه، وبقية رجاله ثقات».

دُرُوس وعِبَر:

١- ثَبَاتُ النَّبيِّ ﷺ على الحقِّ، والدعوة إلى الإسلام كما أمره الله؛ فبدأ أولًا سِرًّا، حتى إذا وَجَد أنصارًا، أمره الله بالإعلان، فأعلن ثَابِتًا غير هَيَّاب. والإعلان والإسرار في البلاغ هو بحسب الأحوال والمصالح الشرعية، والأصل الإعلان، والإسرار استثناء.

٢- تَعَرَّض رسولُ الله ﷺ لمُغْرَيات كثيرة من المشركين، ولم تُغيِّر من مَنْهَجِه شيئًا، حيث استمر في دعوته إلى الحق بكل ثَبَاتٍ وطمأنينة إلى ما معه مِن الحق.

٣- أُوذِيَ أصحابُه ﷺ، وواجههم المشركون بألوانٍ مِن الأَذَى والتعذيب، فصبروا حتى اجتازوا المِحْنَة، ونَصَرَهم الله ومَكَّن لهم.

٤- تعدد الأساليب التي وَاجَه بها المشركون دعوةَ الحق وتَنَوُّعها -معنوية وحسية-، وهكذا أهل الباطل في كلِّ زمان يعملون بكل جِدٍّ في نُصْرَة باطلهم، لكن يجب على المسلمين الثَّبَات والصَّبْر والتَّعَاون لردِّ عُدْوَان المشركين بالأساليب المناسبة لكل حالة.

الهجرة إلى الحبشة وأسبابها

اشتدَّ أَذَى المشركين على مَن آمن، وفَتَنُوا جماعة؛ حتى إنهم كانوا يضربونهم ويُلقونهم في الحرِّ، ويضعون الصَّخْرَة العظيمة على صَدْر أَحَدِهم في شدة الحرِّ، حتى إن أحدَهم إذا أُطْلِق لا يستطيع أن يجلس من شدة الألم، فيقولون لأحدهم: اللاتُ إلهك من دون الله؟ فيقولُ مكرهًا: نعم. حتى إن الجُعَل ليمر فيقولون: وهذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم![1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ الله ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ؛ فَأَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّه بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ الله بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي الله، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَد»[2].

كان بلالٌ ﷺ عبدًا لبعض بني جُمَح مُوَلَّدًا مِن مُوَلَّدِيهِمْ، وكان صادقَ الإسلام، طاهرَ القلب، وكان أُمَيَّة بن خَلَف يُخْرِجُه إذا حَمِيَتِ الظَّهِيرَة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صَدْرِه، ثم يقول له:

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٦)، وقد صَرَّح ابنُ إسحاق بالتحديث. وانظر: «السيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ١٨٥).

(٢) رواه ابن ماجه (١٥٠)، وحَسَّنَه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٢٢).

«لا والله، لا تـزال هكـذا حتـى تمـوت، أو تكفـرَ بمحمـدٍ، وتعبـد الـلات والعـزى. فيقـول وهـو فـي ذلـك: أحـدٌ أحـدٌ!»[١].

وكان رسـول الله ﷺ إذا مَـرَّ بعَمَّـار بـن يَاسِـر وأمِّـه، وأهـل بيتِـه وهـم يُعَذَّبـون، يقـول: «صَبْـرًا آل يَاسِـر، فـإن مَوْعِدَكُـمُ الجَنَّـةَ»[٢].

ومَرَّ الخبيثُ عَدُوُّ الله أبو جهل عمرو بن هشام بسُمَيَّة أمِّ عَمَّار[٣] وهي تعذَّب وزوجُها وابنُها، فَطَعَنَها بِحَرْبَة في فَرْجِها فَقَتَلها -رضي الله عنها- وعن ابنها وزوجها-[٤].

وكان الصديـق رضي الله عنه إذا مـرَّ بأحـدٍ مِـن المَوالِـي يُعـذَّب يشـتريه مـن مَوَالِيـه، ويُعْتِقُـه؛ منهـم: بـلال وأمُّـه حَمَامَـة، وعَامِـر بـن فُهَيْـرة، وأم عُبَيْـس، وزِنَّيْـرَة، والنَّهْدِيَّـة وابنتهـا، وجاريـة بنـي عَـدِي؛ كان عمـرُ يُعذِّبُهـا علـى الإسـلام قبـل أن يُسْـلِم[٥]، حتـى قـال أبـوه -أبـو قُحَافَـةَ-: «يـا بنـي، أراك تَعْتِـقُ رِقَابًـا ضِعَافًـا، فلـو أَعْتَقْـتَ قَوْمًـا جُلْـدًا يَمْنَعُونَـكَ، فقـال لـه أبـو بكـر: إنـي أريـد مـا أريـد. فيقـالُ: إنـه نَزَلَـتْ فيـه: ﴿وَسَـيُجَنَّبُهَا الْأَتْـقَى ۝١٧ الَّذِى يُـؤْتِى مَـالَهُ يَـتَزَكَّى﴾[٦] [الليـل: ١٧ - ١٨].

وكانـت سَـيِّدَةُ خَبَّـابِ بـن الأَرَتِّ رضي الله عنه تُوقِـدُ نَـارًا فَتُلقِيـه عليهـا، فـلا يُطْفِـئ لهيبَهـا إلا وَدَكُ ظَهْـرِه[٧].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٣٧).
(٢) رواه الحاكـم (٥٦٤٦)، والطبرانـي فـي الأوسـط (١٥٠٨)، وقـال الهيثمـي فـي المجمـع (٩/ ٢٩٣): «ورجالـه رجـال الصحيـح، غيـر إبراهيـم بـن عبـد العزيـز المقـوم، وهـو ثقـة».
(٣) سُمَيَّة بنت خَيَّاط، كانت أمةً لأبي حُذَيفَة بن المُغِيرَة المَخْزُومي، وكان ياسر حَلِيفًا لأبي حذيفة، فزوَّجه سُمَيَّة، فَوَلَدتْ له عمّارًا، فأعتقه أبو حذيفة. انظر: «أسد الغابة» (٥/ ٤٨١).
(٤) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦٤ - ٢٦٥).
(٥) «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ١٤٥).
(٦) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣١٩).
(٧) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ١٣٤ - ١٤٤).

ولقد كان هذا الصَّبْر مِن الصَّحَابَة ﷺ نِتَاج تربية النَّبيِّ ﷺ لهم؛ قال خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ ﷺ: شَكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ألا تَدْعُو لَنَا؟ فقال: «قد كان مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ له في الأَرْض، فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجَاءُ بالْمِنْشَار فَيُوضَعُ على رَأْسِه فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأَمْرُ، حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلا الله، وَالذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولكنكم تَسْتَعْجِلُون»[1].

فَضَرَب الصحابةُ ﷺ هذه النَّمَاذِج العَالِية في الصبر والتَّضْحِيَة بأنفسهم في سبيل هذا الدِّين، يَتحمَّلون أنواعَ الأَذَى ليظهر الله دينَه، فَرَفَع الله منزلتهم في الدنيا والآخرة.

وقد أقرَّ النَّبيُّ ﷺ الرخصة في اتِّقَاء عذابِ المشركين بإظهار ما يريدون منهم، فقال لعمَّار بن يَاسِر الذي ما تركه المشركون حتى نال من النَّبيِّ ﷺ: «كيف تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مُطْمَئِنًا بالإسْلَام. قال: «فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ»[2].

فلما اشْتَدَّ البلاءُ وضَاقَت أرضُ مكة على المؤمنين؛ أَذِن الله ﷻ في الهجرة إلى أرض الحَبَشَة، وقال رسول الله ﷺ: «إن بِأَرْض الحَبَشَة مَلِكًا لا يُظْلَم عِنْدَه أحدٌ، فالحقوا ببلادِه حتى يجعلَ الله لكم فَرَجًا ومَخْرَجًا ممَّا أنتم فيه»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٩٤٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٨٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

(٣) «السيرة والمغازي» لابن إسحاق (رواية يونس بن بكير) (ص ١٩٤) بإسنادٍ صحيحٍ، وانظر: «أحاديث الهجرة» لسليمان السعود (ص ٢٢).

فسببُ الهِجْرَةِ إلى الحَبَشَةِ هو: الفِرَارُ بالدِّين، ووجودُ الأمَان والعَدْل في مملكة الحَبَشَة ذلك الزمان. وكان أَوَّلُ خُرُوجهم مِن مَكَّةَ في رَجَب سنة خمسٍ مِن البَعْثَة[1]، وكان أولُ مَن خَرَج فَارًّا بِدِينِه إلى الحبشة: عُثْمَان بن عَفَّان ﷺ، ومعه زوجته رُقَيَّة بنتُ رسولِ الله ﷺ، وتَبِعَه النَّاسُ.

وكان أهلُ هذه الهجرة الأولى: اثني عَشَر رَجُلًا، وأربع نِسْوَة، خَرَجوا متسللين سِرًّا، فَوَفَّق الله لهم ساعةَ وصولهم إلى الساحل سفينتين للتُّجَّار، فَحَمَلُوهم فيهما إلى أرض الحبشة.

ثم كانت الهجرة الثانية، وعلى رأسها: جَعْفَرُ بن أبي طَالِب؛ خَرَج وجَمَاعَات معه ﷺ، وكانوا قريبًا من ثمانين رَجُلًا[2].

قال ابن إسحاق ﷺ: «فكان جميعُ مَن لَحِقَ بأرض الحبشة وهَاجَر إليها مِن المسلمين -سوى أبنائهم الذين خَرَجوا بهم صِغَارًا أو وُلِدُوا بها- ثلاثة وثمانين رَجُلًا»[3].

فَانْحَاز المهاجِرون إلى مملكةِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ؛ فَآوَاهُم وأَكْرَمَهُم، فكانوا عنده آمِنِين.

عن أمِّ المؤمنين أمِّ سَلَمَة ﷺ قالت: «لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بها خَيْرَ جَارٍ، النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا على دِينِنَا، وَعَبَدْنَا الله لا نُؤْذَى، ولا نَسْمَعُ شَيئًا نَكْرَهُهُ، فلمَّا بَلَغَ ذلك قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا أنْ يَبْعَثُوا إلى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وأن يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مما يُسْتَطْرَفُ مِن مَتَاع مَكَّةَ، وكان من أَعْجَبِ ما يَأْتِيهِ منها إليه الأَدَمُ، فَجَمَعُوا له أَدَمًا كَثِيرًا،

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» عن الواقدي (١/ ٢٠٤).
(٢) انظر: «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (ص ١٠١). سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٠).
(٣) «السرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٣٠).

ولـم يَتْرُكُـوا مـن بَطَارِقَتِـهِ بِطْرِيقًـا إلا أَهْـدَوْا لـه هَدِيَّـةً، ثـم بَعَثُـوا بذلـك مـع عبـدِ الله بـنِ أبـي رَبِيعَـةَ بـنِ المُغِيـرَةِ المَخْزُومِـيِّ، وعمْـرِو بـن العَـاصِ بـنِ وَائِـلٍ السَّـهْمِيِّ، وأَمَرُوهُمَـا أَمْرَهُـمْ، وقالـوا لهمـا: ادْفَعُـوا إِلَـى كُلِّ بِطْرِيـقٍ هَدِيَّتَـهُ، قَبْـلَ أنْ تُكَلِّمُـوا النَّجَاشِـيَّ فيهـم، ثـم قَدِّمُـوا لِلنَّجَاشِـيِّ هَدَايَـاهُ، ثـم سَـلُوهُ أنْ يُسْـلِمَهُم إليكـم قَبْـل أنْ يُكَلِّمَهُـمْ.

قالـتْ: فَخَرَجَـا فَقَدِمَـا علـى النَّجَاشِـيِّ، ونحـن عنـدَه بِخَيْـرِ دَارٍ، وعنـدَ خَيْـرِ جَـارٍ، فلـمْ يَبْـقَ مِـن بَطَارِقَتِـهِ بِطْرِيـقٌ إلا دَفَعَـا إِلَيْـهِ هَدِيَّتَـهُ قَبْـلَ أنْ يُكَلِّمَـا النَّجَاشِـيَّ، ثـم قـالا لِـكُلِّ بِطْرِيـقٍ منهـم: إنـه قَـدْ صَبَـا إلـى بَلَـدِ المَلِـكِ مِنَّـا غِلْمَـانٌ سُـفَهَاءُ، فَارَقُـوا دِيـنَ قَوْمِهِـمْ ولَـمْ يَدْخُلُـوا فـي دِينِكُـمْ، وجَـاءُوا بِدِيـنٍ مُبْتَـدَعٍ لَا نَعْرِفُـهُ نحـن وَلا أَنْتُـمْ، وقَـدْ بَعَثَنَـا إلـى الْمَلِـكِ فِيهِـمِ أَشْـرَافُ قَوْمِهِـمْ لِنَرُدَّهُـم إليهـم، فـإذا كَلَّمْنَـا الْمَلِـكَ فِيهِـمْ، فَتُشِـيرُوا عَلَيْـهِ بـأَنْ يُسْـلِمَهُم إِلَيْنَـا وَلا يُكَلِّمَهُـمْ، فـإن قَوْمَهُـمْ أَعَلَـى بهـم عَيْنًـا، وَأَعْلَـمُ بمـا عَابُـوا عَلَيْهِـمْ، فَقَالُـوا لهمـا: نعـم، ثـم إِنَّهُمَـا قَرَّبَـا هَدَايَاهُـم إلـى النَّجَاشِـيِّ فَقَبِلَهَـا مِنْهُمَـا، ثـم كَلَّمَـاهُ، فقـالا لـه: أَيُّهَـا الْمَلِـكُ، إنـه قَـدْ صَبَـا إِلَـى بَلَـدِكَ مِنَّـا غِلْمَـانٌ سُـفَهَاءُ، فَارَقُـوا دِيـنَ قَوْمِهِـمْ، وَلَـمْ يَدْخُلُـوا فِـي دِينِـكَ، وَجَـاءُوا بِدِيـنٍ مُبْتَـدَعٍ لَا نَعْرِفُـهُ نَحْـنُ وَلا أَنْـتَ، وَقَـدْ بَعَثَنَـا إِلَيْكَ فِيهِـمِ أَشْـرَافُ قَوْمِهِمْ مِـنْ آبَائِهِـمْ، وَأَعْمَامِهِـمْ وَعَشَـائِرِهِمْ، لِتَرُدَّهُـمِ إِلَيْهِـمْ، فَهُـمْ أَعْلَـى بِهِـمْ عَيْنًـا، وَأَعْلَـمُ بِمَـا عَابُـوا عَلَيْهِـمْ وَعَاتَبُوهُـمْ فِيـهِ.

قالـتْ: وَلَـمْ يَكُـنْ شَـيْءٌ أَبْغَـضَ إِلَـى عَبْـدِ الله بْـنِ أَبِـي رَبِيعَـةَ، وَعَمْـرِو ابْـنِ الْعَـاصِ مِـنْ أَنْ يَسْـمَعَ النَّجَاشِـيُّ كَلامَهُـمْ، فَقَالَـتْ بَطَارِقَتُـهُ حَوْلَـهُ: صَدَقُـوا أَيُّهَـا الْمَلِـكُ، قَوْمُهُـمْ أَعْلَـى بِهِـمْ عَيْنًـا، وَأَعْلَـمُ بِمَـا عَابُـوا عَلَيْهِـمْ، فَأَسْـلِمْهُم إِلَيْهِمَـا، فَلْيَرُدَّاهُـمِ إِلَـى بِلادِهِـمْ وَقَوْمِهِـمْ.

قالـتْ: فَغَضِـبَ النَّجَاشِـيُّ ثـم قَـالَ: لَا هَـا الله، ايْـمُ الله إِذَنْ لَا أُسْـلِمُهُمْ إِلَيْهِمَـا، وَلا أُكَادُ قَوْمًـا جَاوَرُونِـي، وَنَزَلُـوا بِـلادِي، وَاخْتَارُونِـي عَلَـى مَـنْ سِـوَايَ حَتَّـى أَدْعُوَهُـمْ فَأَسْـأَلَهُمْ مَـاذَا يَقُـولُ هَـذَانِ فِـي أَمْرِهِـمْ، فَـإِنْ كَانُـوا كَمَـا يَقُـولانِ أَسْـلَمْتُهُم الَيْهِمَـا وَرَدَدْتُهُـم الَـى قَوْمِهِـمْ، وَإِنْ كَانُـوا عَلَـى غَيْـرِ ذَلِـكَ مَنَعْتُهُـمْ مِنْهُمَـا، وَأَحْسَـنْتُ جِوَارَهُـمْ مَـا جَاوَرُونِـي.

قالـتْ: ثُـمَّ أَرْسَـلَ إِلَـى أَصْحَـابِ رَسُـولِ الله ﷺ، فَدَعَاهُـمْ فَلَمَّـا جَاءَهُـمْ رَسُـولُهُ اجْتَمَعُـوا، ثُـمَّ قَـالَ بَعْضُهُـمْ لِبَعْـضٍ: مَـا تَقُولُـونَ لِلرَّجُـلِ إِذَا جِئْتُمُـوهُ؟ قَالُـوا: نَقُـولُ وَالله مَـا عَلَّمَنَـا، وَمَـا أَمَرَنَـا بِـهِ نَبِيُّنَـا ﷺ، كَائِـنٌ فِـي ذَلِـكَ مَـا هُـوَ كَائِـنٌ. فَلَمَّـا جَـاءُوهُ، وَقَـدْ دَعَـا النَّجَاشِـيُّ أَسَـاقِفَتَهُ، فَنَشَـرُوا مَصَاحِفَهُـمْ حَوْلَـهُ، سَـأَلَهُمْ فَقَـالَ: مَـا هَـذَا الدِّيـنُ الَّـذِي فَارَقْتُـمْ فِيـهِ قَوْمَكُـمْ، وَلَـمْ تَدْخُلُـوا فِـي دِينِـي وَلا فِـي دِيـنِ أَحَـدٍ مِـنْ هَـذِهِ الْأُمَـمِ؟

قالـتْ: فَـكَانَ الَّـذِي كَلَّمَـهُ جَعْفَـرُ بْـنُ أَبِـي طَالِـبٍ، فَقَـالَ لَـهُ: أَيُّهَـا الْمَلِـكُ، كُنَّـا قَوْمًـا أَهْـلَ جَاهِلِيَّـةٍ نَعْبُـدُ الْأَصْنَـامَ، وَنَـأْكُلُ الْمَيْتَـةَ وَنَأْتِـي الْفَوَاحِـشَ، وَنَقْطَـعُ الْأَرْحَـامَ، وَنُسِـيءُ الْجِـوَارَ يَـأْكُلُ الْقَـوِيُّ مِنَّـا الضَّعِيـفَ، فَكُنَّـا عَلَـى ذَلِـكَ حَتَّـى بَعَـثَ الله إِلَيْنَـا رَسُـولًا مِنَّـا نَعْـرِفُ نَسَـبَهُ، وَصِدْقَـهُ، وَأَمَانَتَـهُ، وَعَفَافَـهُ، فَدَعَانَـا إِلَـى الله لِنُوَحِّـدَهُ، وَنَعْبُـدَهُ، وَنَخْلَـعَ مَـا كُنَّـا نَعْبُـدُ نَحْـنُ وَآبَاؤُنَـا مِـنْ دُونِـهِ مِـنَ الحِجَـارَةِ وَالْأَوْثَـانِ، وَأَمَرَنَـا بِصِـدْقِ الْحَدِيـثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَـةِ، وَصِلَـةِ الرَّحِـمِ، وَحُسْـنِ الْجِـوَارِ، وَالْكَـفِّ عَـنِ الْمَحَـارِمِ، وَالدِّمَـاءِ، وَنَهَانَـا عَـنِ الْفَوَاحِـشِ، وَقَـوْلِ الـزُّورِ، وَأَكْلِ مَـالَ الْيَتِيـمِ، وَقَـذْفِ الْمُحْصَنَـةِ، وَأَمَرَنَـا أَنْ نَعْبُـدَ اللَّهَ وَحْـدَهُ لَا نُشْـرِكُ بِـهِ شَـيْئًا، وَأَمَرَنَـا بِالصَّـلاةِ، وَالـزَّكَاةِ، وَالصِّيَـامِ، قَـالَ: فَعَـدَّدَ عَلَيْـهِ أُمُـورَ الْإِسْـلامِ؛ فَصَدَّقْنَـاهُ وَآمَنَّـا بِـهِ وَاتَّبَعْنَـاهُ عَلَـى مَـا جَـاءَ بِـهِ، فَعَبَدْنَـا اللَّهَ وَحْـدَهُ، فَلَـمْ نُشْـرِكْ بِـهِ شَـيْئًا، وَحَرَّمْنَـا

مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ: ﴿كهيعص﴾.

قالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمِ الْيَكُمِ ابَدًا، وَلا أُكَادُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لانَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ.

قالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ -وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا-: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لَهُمِ ارْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا. قَالَ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلِ الَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ.

قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ. قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ

مَـا هُـوَ كَائِـنٌ، فَلَمَّـا دَخَلُـوا عَلَيْـهِ، قَـالَ لَهُـمْ: مَـا تَقُولُـونَ فِـي عِيسَـى ابْـنِ مَرْيَـمَ؟ فَقَـالَ لَـهُ جَعْفَـرُ بْـنُ أَبِـي طَالِـبٍ: نَقُـولُ فِيـهِ الَّـذِي جَـاءَ بِـهِ نَبِيُّنَـا: هُـوَ عَبْـدُ اللهِ وَرَسُـولُهُ، وَرُوحُـهُ وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَـا إِلَـى مَرْيَـمَ الْعَـذْرَاءِ الْبَتُـولِ.

قَالَـتْ: فَضَـرَبَ النَّجَاشِـيُّ يَـدَهُ إِلَـى الْأَرْضِ، فَأَخَـذَ مِنْهَـا عُـودًا، ثُـمَّ قَالَ: مَـا عَـدَا عِيسَـى ابْـنُ مَرْيَـمَ مَـا قُلْـتَ هَـذَا الْعُـودَ، فَتَنَاخَـرَتْ بَطَارِقَتُـهُ حَوْلَـهُ حِيـنَ قَـالَ مَـا قَـالَ، فَقَـالَ: وَإِنْ نَخَرْتُـمْ وَاللهِ، اذْهَبُـوا فَأَنْتُـمْ سُـيُومٌ بِأَرْضِـي -وَالسُّـيُومُ: الْآمِنُـونَ-. مَـنْ سَـبَّكُمْ غُـرِّمَ، ثُـمَّ مَـنْ سَـبَّكُمْ غُـرِّمَ، فَمَـا أُحِـبُّ أَنَّ لِـي دَبْـرًا ذَهَبًـا، وَأَنِّـي آذَيْـتُ رَجُـلًا مِنْكُـمْ -وَالدَّبْـرُ -بِلِسَـانِ الْحَبَشَـةِ-: الْجَبَـلُ-، رُدُّوا عَلَيْهِمَـا هَدَايَاهُمَـا، فَـلا حَاجَـةَ لَنَـا بِهَـا، فَـوَاللهِ مَـا أَخَـذَ اللهُ مِنِّـي الرِّشْـوَةَ حِيـنَ رَدَّ عَلَـيَّ مُلْكِـي، فَآخُـذَ الرِّشْـوَةَ فِيـهِ، وَمَـا أَطَـاعَ النَّـاسَ فِـيَّ، فَأُطِيعَهُـمْ فِيـهِ.

قالَـتْ: فَخَرَجَـا مِـنْ عِنْـدِهِ مَقْبُوحَيْـنِ مَـرْدُودًا عَلَيْهِمَـا مَـا جَـاءَا بِـهِ، وَأَقَمْنَـا عِنْـدَهُ بِخَيْـرِ دَارٍ مَـعَ خَيْـرِ جَـارٍ[1].

تلـك قِصَّـة الهِجْـرَة إلـى الحَبَشَـة؛ هجـرة قَـوْم انْخَلَعـوا مِـن دُنْيَاهـم وفَـرُّوا بدِينِهـم، قصـة قـوم أرادوا لأرواحِهـم فُسْـحَة، يعبـدون الله تعالـى بعيـدًا عـن جَبَـروت الجَبَابـرَة والطُّغَـاة، فلـم يَهْنَـأ للجبابـرة حَـالٌ، ولـم يَهْـدَأ لهـم بَـالٌ، حتـى سَـعَوا إلـى إرْجَاعِهـم وأعَـدُّوا للأمـر عُدَّتَـه، وأرادوا أن يَنَالـوا مِـن عَـدْل النَّجَاشِـي بِعَـرَض شـيءٍ مـن حُطَـام الدنيـا لـه، فَوَقَـف وقفتَـه الصَّادِقَـة مـع قَـوْمٍ رَأَى الصِّـدْقَ عندهـم بعـد أن سَـمِعَ منهـم، ولـم يأخذهـم بمـا قِيـل عنهـم دون أن يَسْـمَع منهـم.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٤٠)، (٢٢٤٩٨) عن محمد بن إسحاق من حديث أم سلمة ﵂. قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٤، ٢٧): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صَرَّح بالسماع). وحَسَّن إسناده الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

وأَسْلَم النجاشيُّ وهو في أرض الحبشة، إذ قَادَه العَدْلُ والإنْصَاف إلى الإيمان برسولِ الله ﷺ، وأنه مُصَدِّقٌ بما جاء عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٦].

فقد قيل: إن هذه الآية نَزَلَتْ في النَّجَاشِيِّ وأصحابٍ له أَسْلَموا معه[١].

قال الطبري رحمه الله: «إن ذلك كان منهم؛ لأن منهم أهلَ اجتهادٍ في العبادة، وترهُّب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقِّ إذا عَرَفُوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تَبَيَّنوه؛ لأنهم أهلُ دِينٍ واجتهادٍ فيه، ونصيحةٍ لأنفسِهم في ذاتِ الله، وليسوا كاليهود الذين قد دَربوا بقَتْلِ الأَنْبِيَاء والرُّسُلِ، ومُعَانَدَة الله في أمْرِه ونَهْيِه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»[٢].

وقد صَلَّى النَّبيُّ ﷺ على النجاشي، ونَعَاه للصحابة رضي الله عنهم يومَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٣).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٦).

مَوْتِهِ، فعن جابر ﷺ: قال النَّبيُّ ﷺ حين مات النجاشيُّ: «مَات اليوم رَجُلٌ صَالِح، فقوموا فَصَلُّوا على أَخِيكم أَصْحَمَة»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ: «أن رسولَ الله ﷺ نَعَى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المُصَلَّى، فَصَفَّ بهم، وكَبَّر عليه أربعَ تكبيرات»[2].

قال ابن كثير ﷺ: «وشهود أبي هريرة ﷺ الصلاة على النجاشيَّ دليلٌ على أنه إنما مات بعد فَتْحِ خَيْبَر، في السَّنَة التي قَدِم فيها بَقِيَّةُ المُهَاجِرين إلى الحَبَشَة مع جَعْفَر بن أبي طالب ﷺ، يوم فَتْحِ خَيْبَر»[3].

إسلام حمزة ﷺ:

وفي أثناء هذه الأحداث التي كانت تَشْتَدُّ على المسلمين من أَذِيَّةِ قريش، مَرَّ أبو جهل يومًا برسول الله ﷺ عند الصَّفَا، فآذَاه وشَتَمَه، فلم يكلِّمه النَّبيُّ ﷺ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعَان تَسْمَع، ثم انْصَرَف عنه، فَعَمَد إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فَلَمْ يَلْبَثْ حَمْزَةُ ابنُ عبد المُطَّلِب أن أَقْبَل مُتَوَشِّحًا سَيْفَه، رَاجِعًا مِن قَنْصٍ له، وكان صَاحِبَ قَنْصٍ، وكان إذا رجع من قَنْصِه بَدَأ بالطَّوَاف بالكعبة، وكان أعزَّ فَتًى مِن قريش، وأَشَدَّه شَكِيمَة.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٧٧).

(٢) رواه البخاري (١٣٣٣). قال ابن كثير ﷺ: «قال بعض العلماء: إنما صَلَّى عليه؛ لأنه كان يَكْتُم إيمانَه مِن قومه، فلم يكن عنده يوم مات مَن يُصلِّي عليه ﷺ. قالوا: فالغائب إن كان قد صُلِّي عليه ببلده، لا تُشْرع الصلاة عليه ببلدٍ أخرى، ولهذا لم يُصلِّ على النَّبيِّ ﷺ في غير المدينة؛ لا أهل مكة ولا غيرهم، وهكذا أبو بكر وعمر وعثمان، وغيرهم مِن الصحابة، لم يُنقل أنه صُلِّيَ على أحدٍ منهم في غير البلدة التي صُلِّيَ عليه فيها. والله أعلم» البداية والنهاية (٤/ ١٩٣). وانظر لمزيد الفائدة: «المغني» لابن قدامة (٣/ ٤٤٦).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ١٩٣).

فلما مَرَّ بالمَوْلَاة قالت له: يا أبَا عُمَارَة، ما لَقِيَ ابنُ أَخِيك آنفًا مِن أبي الحَكَم، وَجَدَه ها هنا جَالِسًا فَآذَاهُ وسَبَّهُ وبَلَغَ مِنْه، ولم يُكَلِّمْه محمَّدٌ. فَاحْتَمَل حَمْزَةَ الغضبُ، لِما أَرَادَ الله به مِن كَرَامَتِه، فَخَرَج يَسْعَى لأبي جهل، فلما رَآهُ جَالِسًا في القوم أَقْبَل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رَفَع القَوسَ، فَضَرَبَه بها، فَشَجَّه شَجَّةً مُنْكَرَة، ثم قال: أَتَشْتُمُهُ! فأنا على دِينِهِ، أقولُ ما يقولُ، فَرُدَّ عَليَّ ذلك إن اسْتَطَعْتَ.

فَقَامَتْ رِجَالٌ من بني مَخْزُومٍ إلى حَمْزَة لِيَنْصُرُوا أبا جَهْلٍ، فقال أبو جهل: دَعُوا أبا عُمَارَة، فوالله لقد سَبَبْتُ ابنَ أخِيه سَبًّا قَبِيحًا.

وتَمَّ حَمْزَةُ على إسلَامِهِ، فلما أَسْلَم، عَرَفَتْ قُرَيْشٌ أن رسولَ الله ﷺ قد عَزَّ وامْتَنَع، وأن حَمْزَةَ رضي الله عنه سَيَمْنَعُهُ، فَكَفُّوا بعضَ الشيء[1].

إنَّ التَّحَدِّي والحَمِيَّة هي التي دَفَعَتْ بحَمْزَة إلى إعْلَانِ إسْلَامِه؛ فقد كان يَعْلَم أنه لا أغيظَ لأبي جهلٍ منه، ولكن الله تعالى مَنَّ عليه بالهِدَايَة، واطْمَأَن قَلْبُ حَمْزَة إلى الإسْلَام، فكانت مِفْتَاحًا له إلى الخير، الذي نَال به لَقَب سَيِّد الشُّهَدَاء، وكان إسْلَامُه سَبَبًا في رِفْعَة هذا الدِّين ونُصْرَةِ أَتْبَاعِهِ.

إسلام عمر رضي الله عنه:

كان النَّبيُّ ﷺ يَتَشَوَّف لإسلام عمر بن الخطاب؛ لِما يرجوه بإسلامه مِن خيرٍ للإسلام والمسلمين، فكان يدعو: «اللهم أَعِزَّ الإسْلَامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إليك؛ بعمرَ بن الخَطَّاب أو بأبي جَهْل بن هِشَام»[2]. وكان أَحَبُّهما إليه عمر بن الخطاب.

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٩٢)، وسنده منقطع.
(٢) أخرجه أحمد (٦٩٦٥)، رواه الترمذي (١٨٦٣)، وصححه الألباني.

قال ابن إسحاق ﷺ: «وكان إسلام عمر بعد خروجِ مَن خرج مِن أصحاب رسولِ الله ﷺ إلى الحبشة»[1].

ومِن أشهر ما يُرْوَى في قِصَّةِ إسلامِهِ: أنه خَرَجَ ﷺ يومًا مُتَقَلِّدًا سَيْفَه، فَلَقِيَه رَجُلٌ مِن بَنِي زُهْرَةَ، فقال له: أين تَعْمَدُ يا عمر؟ قال: أريد أن أَقْتُلَ محمدًا. قال: فكيف تأمن في بني عبد مَنَاف، وقد قَتَلْتَ محمدًا؟ فقال: ما أراك إلا قد صَبَوت! قال: أفلا أَدُلُّك على العَجَب، إن أُخْتَكَ وخَتَنَكَ قد صَبَوَا وتركا دينك. فمشى عمر فأتاهما، وعندهما خَبَّاب، فلما سَمِع بحِسِّ عمر تَوَارَى في البيت، فدخل فقال: ما هذه الهَيْنَمَةُ؟ -أي: القراءة- وكانوا يقرأون (سورة طه)، قالا: حديثًا تَحَدَّثْنَاه بيننا. قال: لعلكما قد صَبَوْتُمَا؟ فقال له خَتَنُه: يا عمر، أرأيتَ إن كان الحَقُّ في غير دِينِك. فَوَثَبَ عليه فَوَطِئَه وَطْئًا شَدِيدًا، فجاءت أُخْتُه لتدفعه عن زَوْجِها، فَنَفَحَها نَفْحَة بيده فَدَمِيَ وَجْهُهَا، فقالت وهي غَضْبَى: وإن كان الحق في غير دينك إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. فقال عمر: أعطوني الكِتَابَ الذي هو عندكم فأقرأه. وكان عمر يقرأ الكتاب، فقالت له أُخْتُه: إنك رِجْسٌ، وإنه لا يَمَسُّه إلا المُطَهَّرُون، فَقُمْ فَاغْتَسِل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى: ﴿إِنَّنِي أَنَا الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

فقال عمر: دُلُّوني على محمَّدٍ، فَلَمَّا سَمِع خَبَّاب قولَ عمر خَرَجَ. فقال: أَبْشِر يا عمر، فإني أرجو أن تكونَ دعوةُ رسولِ الله ﷺ لك ليلة الخميس: «اللهم أَعِزَّ الإِسْلَامَ بعمرَ بن الخَطَّاب أو بعمرو بن هِشَام»[2].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٤٢).
(٢) سبق تخريجه.

وكان رسولُ الله ﷺ في الدِّار التي في أَصْل الصَّفَا -دار الأَرْقَم بن أبي الأرقم- فَانْطَلَق عمرُ حتى أَتَى الدَّار، وعلى بابها حَمْزَة، وطَلْحَة، وناس، فقال حمزة: هذا عمر، إن يُرِدِ الله به خَيْرًا يُسْلِم، وإن يُرْد غير ذلك يَكُنْ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيِّنًا... والنَّبيُّ ﷺ دَاخِلٌ يُوحَى إليه، فَخَرَج حتى أتى عمر، فأخذ بمَجَامِع ثَوْبِه وحَمَائِل السَّيْف، فقال: ما أنت منتهٍ يا عمر حتى ينزل الله بك من الخِزْي والنَّكَال ما أَنْزَل بالوليد بن المُغِيرَة؟ فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله. فَكَبَّر رسولُ الله تكبيرة عَرَف أهلُ الدَّار أن عمرَ أَسْلَم[1].

قال سعيد بن المسيِّب رحمه الله: «أسلم عمرُ بعد أربعين رجلًا وعشر نِسْوَة، فلما أسلم ظَهَر الإسلام بمكة»[2]. وهذا محمولٌ على مَن بَقِي مِن المسلمين بعد خروج عامَّتِهم إلى الحبشة[3].

لقد وَجَّه ذلك الزُّهْرِيُّ عُمرَ إلى أُخْتِهِ وخَتَنِهِ، وبذلك امتَصَّ غَضَبَه على الرسول ﷺ وحَوَّله إلى غَيْرِه، عَامِلًا بمبدأ ارْتِكَاب أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ، فكان فَتْحُ الله بإسْلَام عمر، ويَرْجِع فَضْلُ ذلك إلى ثَبَاتِ فاطمةَ بنتِ الخَطَّاب ووقُوفِها في وَجْهِ أَخِيها مُعْلِنَة التَّحَدِّي؛ الأمر الذي كَسَر غَضَبَ عمر، وألَان جَانِبَه، فَهَدَأَتْ نَفْسُه رضي الله عنه، وهكذا يكون أثر المرأة المسلمة في الدعوة إلى الله ودورها الرِّيَادِي.

لقد جَمَعَ الله خِصَال أُمَّة في رَجُلٍ وَاحِدٍ، يصنع العَجَائِب بقدرة الله

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٨٤٣ - ٩٤٣)، وصحيح ابن حبان (٩٧٨٦). وقد أورد البخاري في صحيحه، باب: إسلام عمر من كتاب المناقب حديث رقم (٦٦٨٣) قصة سماعه لصارخ مِن الجن يقول: «يَا جَلِيحُ، أَمْرٌ نَجِيحٌ، رَجُلٌ فَصِيحٌ، يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقُمْتُ، فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ: هَذَا نَبِيٌّ»، ولعلَّ هذا مما حَمَلَه على الإسلام.

(٢) «السيرة النَّبوية» للذهبي (١/ ٤٤١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٦٩١).

تعالى، لقد كان إسلام عمر فتحًا على المسلمين؛ فلم يكن الصَّحَابَة يَقْدِرون أن يُصَلوا عند الكعبة حتى أَسْلَم عمر؛ فقد قَاتَل قُرَيْشًا حتى صَلَّى عند الكعبة وصَلُّوا معه.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ما زلنا أَعِزَّة منذ أَسْلَم عُمَرُ»[1].

وأسلم عمر يوم أسلم عَلَانِيَة؛ صَدَع بها في أوجه المشركين ليعلنها عليهم، ويغيظهم مِن أول يوم؛ إظهارًا للحق والتوحيد، ودحرًا للكفر والوَثَنِيَّة، فعن ابن عمر ﷺ قال: لمَّا أسلم عمر قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ الْجُمَحِيُّ. فَغَدَا عليه. قال عبد الله: وغدوتُ أتبعُ أَثَرَه، وأنظر ما يفعل، وأنا غلامٌ أعقِلُ كلّ ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلِمْتَ يا جميلُ أني أسلمتُ، ودخلتُ في دينِ محمَّد؟ قال: فوالله، ما رَاجَعَه حتى قام يَجُرُّ رِدَاءَه، واتَّبَعَه عمرُ، واتَّبَعْتُ أبي، حتى إذا قَام على بَاب المَسْجِد صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِه: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة-: ألا إن ابن الخطاب قد صَبَأَ. قال: يقول عمر من خَلْفِه: كَذَبَ، ولكنَّي أَسْلَمتُ، وشهدتُ: أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وثَاروا إليه، فما بَرِح يُقَاتِلُهُم ويُقَاتِلُونَهُ، حتى قَامَتِ الشمس على رؤوسِهم. قال: وطَلَح (أي: تعب) فَقَعَد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افْعَلُوا ما بَدَا لكم، فأَحْلِفُ بالله أن لو قد كنَّا ثلاثمائة رَجُلٍ، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. قال: فبينما هم على ذلك، إذ أَقْبَل شيخٌ من قريش، عليه حُلَّة حِبَرَة وقَمِيصٌ مُوَشَّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأْنُكم؟ فقالوا: صَبَأَ عمر. قال: فمَهْ! رجلٌ اخْتَارَ لنَفْسِه أمرًا، فماذا تريدون؟ أَتَرَوْن بَنِي عَدِيٍّ يُسْلِمون لكم صَاحِبَهُم هكذا؟! خَلُّوا عن الرَّجُل. قال: فوالله، لَكَأَنَّمَا كانوا ثَوْبًا كُشِطَ عنه[2].

(١) رواه البخاري (٤٨٦٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٨٤٢). قال ابن كثير ﷺ عن إسناد ابن إسحاق: «وهذا

صحيفة المقاطعة:

في أول يوم من شهر الله المحرَّم سنة سبعٍ مِن البَعْثَة[1]، رَأَت قُرَيْشٌ أن محمدًا ﷺ وأصحابه قد عَزُّوا بإسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما، فساءَها ذلك، وأَجْمَعُوا على أن يَتَعَاقَدُوا على بني هاشم وبني المطلب؛ ابني عبد مناف، ألَّا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم؛ حتى يُسْلِموا إليهم رسولَ الله ﷺ، وكَتَبوا بذلك صحيفةً، وعَلَّقوها في سَقْفِ الكَعْبَة.

وانْحَاز إلى الشِّعْب بنو هاشم، وبنو المطلب؛ مؤمنهم وكافرهم؛ إلا أبا لهب، فإنه ظَاهَر قُرَيْشًا، وبقوا على تلك الحال لا يدخل عليهم أحدٌ نَحْوًا من ثلاث سنين؛ حتى جَهِدُوا، ولم يَصِل إليهم شيءٌ إلَّا سِرًّا، مستخفِيًا به مَن أراد صِلَتَهُم مِن قُرَيْش، وقد كان أبو جهل لَقِي حَكِيم بن حِزَام بن خُوَيْلِد معه غُلَامٌ يَحْمِل قَمْحًا، يُرِيدُ به عَمَّتَه خَدِيجَة بنتِ خُوَيْلِد، وهي عِنْدَ رسولِ الله ﷺ، ومعه في الشِّعْب، فَتَعَلَّق به، وقال: أتذْهَب بالطَّعَام إلى بَنِي هَاشِم؟! والله، لا تذهب أنت وطَعَامُك حتى أَفْضَحَكَ بمَكَّةَ. فجاءه أبو البَخْتَرِي بنُ هِشَام، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم. فقال له أبو البختري: طعام كان لِعَمَّتِهِ عنده، بَعَثْتْ إليه، أَتَمْنَعُهُ أن يأتيها بِطَعَامِها؟! خَلِّ سَبِيل الرَّجُل. قال: فأبى أبو جهل، حتى نَال أَحَدُهُمَا مِن صَاحِبِه، فأخذ له أبو البَخْتَرِيِّ لِحَى بَعِيرٍ ، فَضَرَبَه به فَشَجَّه، ووَطِئَه وَطْئًا شَدِيدًا[2].

إسنادٌ قويٌّ» البداية والنهاية (٤/ ٢٠٢). وله شاهد عند البخاري في الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب: إسلام عمر (٥٦٨٣).

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٣، ٤٥٣).

وكانت قريشٌ في ذلك بين رَاضٍ وكَارِهٍ، فَسَعَى في نَقْض تلك الصحيفة مَن كان كَارِهًا لها، وكان القَائِم في أمر ذلك: هِشَامُ بنُ عَمْرو ابنِ رَبِيعَة؛ مَشَى في ذلك إلى مُطْعِم بن عَدِي وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك.

ثم أَطْلَعَ الله رسولَه ﷺ على أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها الأَرَضَة فَأَكَلَتْ جَمِيع ما فيها مِن جَوْر وقَطِيعة وظُلم، إلَّا ذكرُ الله ﷻ، فأخبر بذلك عَمَّه، فخرج إلى قريش وأخبرهم أن ابنَ أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خَلَّينا بينكم وبينه، وإن كان صَادِقًا رجعتُم عن قَطِيعَتِنا وظُلْمِنَا، قالوا: قد أَنْصَفْتَ فأنزلوا الصحيفة، فلمَّا رأوا الأمرَ كما أَخْبَرَ به رسولُ الله ﷺ، ازدادوا كُفرًا إلى كُفْرِهم، وخَرَج رسول الله ﷺ ومَن معه مِن الشِّعْب[1].

لقد بَقِي المسلمون ثلاث سنوات دَاخِل الشِّعْب، ومع ذلك الحِصَار الشديد، أكلوا فيه أوراق الشجر، ترتفع فيه أصوات أبنائهم بالبُكَاء جَوْعًا وعَطَشًا، بل إن سعدَ بنَ أبي وقاص بال ذات ليلة فسمع قعقعة تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير، فأخذها وغسلها ثم حرقها ثم سحقها؛ ثم استفَّها، وشَرِب عليها الماء، فتقوَّى بها ثلاثة أيّام[2]، وقد ضَرَبوا بذلك أَرْوَعَ الأمثلةِ في الثَّبَاتِ على الحَقِّ، والصبر على الأَذَى، والاعتصام بالله تعالى في الشدة.

وإن وقوفَ طائفة من المشركين مع المسلمين؛ لدليل على أن المسلمين كانوا في نظر هذه الطائفة أهلًا للمعروف، ومحلًا للكَرَامة؛ لجميل أخلاقهم، وصدق تعاملهم، كما أن أولئك المشركين لديهم مِن

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٠)، «الفصول» لابن كثير (ص ٢٠١، ٣٠١).
(٢) «المغازي والسِّيَر» لابن إسحاق (ص ٤٩١)، وانظر: حلية الأولياء (٣/ ٣٩).

سلامة الفِطْرَة واحْتِرَام أواصِر القُرْبَى ما دَفَعَهُم لذلك الموقف.

ثم خَرَج بنو هاشم وبنو المطلب من شِعْبِهم؛ وكان ذلك في السَّنَة العَاشِرة من البَعْثَة[1]، وحَصَل الصُّلْحُ برغمٍ من أبي جهل عمرو بن هشام، واتَّصَل الخَبَر بالذين هم بالحَبَشَة أنَّ قُرَيْشًا أسلموا؛ فَقَدِمَ مَكَّةَ منهم جماعةٌ؛ فوجدوا البَلَاء والشِّدَّة كما كانا، فاستمروا بمكة إلى أن هَاجَرُوا إلى المدينة؛ إلا السَّكْرَان بن عَمْرو زوج سَوْدَة بنتِ زَمْعَة، فإنه مات بعد مَقْدَمِهِ مِن الحَبَشَة بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، وإلا سَلَمَة بن هِشَام وعَيَّاش بن أبي رَبِيعَة، فإنهما احْتُبِسَا مُسْتَضْعَفَيْن، وإلا عبد الله بن مَخْرَمَة بن عبد العُزَّى، فإنه حُبِس، فلما كان يوم بَدْر هَرَب من المشركين إلى المسلمين[2].

ومِن جملة الأخبار التي حَمَلَتْ بعضَ المهاجرين في أرض الحبشة إلى العَوْدَةِ إلى مكة ظَنًّا منهم بأن أهلها قد أَسْلَموا: أن النَّبيَّ ﷺ تَلا على قريش يومًا سورة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فأخذتهم روعةُ التنزيل، وقوةُ البَيَان، حتى إذا بَلَغَ النَّبيُّ ﷺ قولَه تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]؛ سجد، فسجد المشركون مأخوذين بروعةِ القرآن، وقوةِ تأثيره، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَرَأ النَّبيُّ ﷺ «النَّجْمَ» بمكة، فَسَجَد فيها، وسَجَد مَن معه، غير شيخ أخذ كفًّا مِن حصًى أو تُرَاب، فَرَفَعَه إلى جَبْهَتِهِ، وقال: يكفيني هذا. فَرَأَيْتُه بعدُ قُتِل كَافِرًا[3].

فظنَّ النَّاقِلُ لمَّا رَأَى المشركين قد سَجَدُوا مُتَابَعَةً لرسولِ الله ﷺ، أنهم أسلموا واصطلحوا معه، ولم يبقَ نِزَاعٌ بينهم، فَطَارَ الخَبَرُ بذلك، وانْتَشَرَ

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ١٠٢)، وفتح الباري (٧/ ٢٩١).
(٢) «الفصول» لابن كثير (ص ٤٠١).
(٣) رواه البخاري (٧٦٠١)، ومسلم (٦٧٥).

حتى بَلَغَ مهاجرة الحبشة بها، فظنوا صِحَّةَ ذلك، فأقبل منهم طائفةٌ طَامِعِين بذلك، وثبتت جماعةٌ، وكلاهما مُحْسِن مُصِيبٌ فيما فعل.

وكان العائدون قُرَابَة ثلاثة وثلاثين رَجُلًا، منهم: أبو سلمة وزوجه ﷺ[1].

مَوْتُ أبي طالب عمِّ النَّبيِّ ﷺ:

ثم هَلَك أبو طالب قَبْل الهجرةِ النَّبويَّة بثلاث سنين، وهي السَّنَة نفسها التي تُوفِّيَتْ فيها خَدِيجَةُ بنتُ خُوَيْلِد زوجُ النَّبيِّ ﷺ[2]، ولمَّا حضرت أبا طالب الوفاةُ، دَخَل عليه النَّبيُّ ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أُمَيَّة بن المُغِيرَة، مؤكِّدين بهذا الحضور تَفَانِيهم في الدِّفَاع عن بَاطِلِهم، واغتنامهم الفُرَص للهجوم على المعتقدات التي يَرَوْن أنها تُهَدِّد بَاطِلَهم. فقال له النَّبيُّ ﷺ: «**يا عمِّ، قُلْ: لا إله إلَّا الله؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بها عند الله**». فقالا: يا أبا طالب، أَتَرْغَبُ عن ملَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ! قال: فكان آخِرَ كَلِمَة أن قال: عَلَى مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ.

وقد حَزِنَ النَّبيُّ ﷺ حُزْنًا شديدًا؛ إذ كان حَرِيصًا على إسْلَام عَمِّه، حتى إنه قال بعد أن حَال الموت بين عَمِّه وبين كلمة التوحيد: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْهُ»؛ فجاء النَّهْيُ عن الاستغفار لأبي طالب، والعَتَب على الحُزْنِ الشَّدِيد على فَوَاتِ مَن لَمْ يُرِد الله هِدَايَتَه لِحِكْمَةٍ يعلمها ﷻ فنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[3] [القصص: ٥٦].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٤٢٢- ٥٢٢).

(٢) سيرة ابن إسحاق (ص ٣٤٢).

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٤).

وآية التوبة لم تَنْزِل في حَقِّ أبي طالب خاصة؛ لأنها مَدَنِيَّة، وإنما المراد أنها عامة في حق أبي طالب وغيره، أما الآية الثانية فقد نَزَلَتْ في حَقِّ أبي طَالِب، وهذه الآية وسبب نزولها يؤكِّدان أن أبا طالب لم يَمُتْ على الإسْلَام، ويشيران إلى ضَعْف رِوَايَة ابن إسْحَاق: أن العَبَّاس نَظَر إلى أبي طالب فَرَآه يُحَرِّك شفتيه فَأَصْغَى إليه، فقال: «يا بن أخي، والله لقد قال أخي الكَلِمَة التي أَمَرْتَه أن يقولها»[1].

وكان أبو طالب شقيق عبد الله والِد رسولِ الله ﷺ، ولذلك أَوْصَى به عبد المطلب عند موته، فَكَفَلَه إلى أن كَبُرَ، وكان يَذُبُّ عن النَّبيِّ ﷺ ويَرُدُّ عنه كلَّ مَن يؤذِيه، وهو مُقِيم على دِينِ قَوْمِه، وأخباره في حِيَاطَة النَّبيِّ والذَّبِّ عنه معروفة مشهورة، وممَّا اشْتُهِر مِن شِعْرِه في ذلك قوله:

والله لن يَصِلُوا إليك بِجَمْعِهم... حتى أُوَسَّدَ في التُّرَاب دَفِينَا[2]

وقوله:

كَذَبْتُم وبَيْتِ الله نُبْزَى محمدًا... ولمَّا نُقَاتِلْ حَوْلَه ونُنَاضِلُ[3]

ولم تَكُن قُرَيْشٌ تَنَال من النَّبيِّ ﷺ ما تريد حتى مات أبو طالب[4].

(١) فتح الباري (٧/ ٤٩١).
(٢) «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤٦٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٨٨٤)، ومعنى: نُبزَى: نُسْلَب ونُغْلَب عليه.
(٤) «السيرة النبوية» للذهبي (١/ ٣٩١).

مَوْتُ خَدِيجَةَ بنتِ خُوَيْلِد زَوجِ النَّبيِّ ﷺ:

ومَاتتْ بعد أبي طالب خَدِيجَةُ ﵂ التي كانت وزيرَ صِدْقٍ على الإسلام، وكان ﷺ يَسْكُنُ إليها، وهي أول مَن أَسْلَم.

وتُوفِّيتْ ﵂ بمكة، ودُفِنَتْ بالحَجُونِ، وعَاشَت خمسًا وستين سنة، قَضَت منها أربعًا وعشرين سنة مع النَّبيِّ ﷺ[1].

قالت عائشة ﵂: «ما غِرْتُ على امْرَأَةٍ ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، مما كنتُ أَسْمَعُ مِن ذِكْرِ رسولِ الله ﷺ لها، وما تَزَوَّجَنِي إلا بعد مَوْتِهَا بِثَلَاثِ سِنينَ»[2].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: أتى جِبْرِيلُ النَّبيَّ ﷺ، فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناءٌ فيه إِدَام -أو طَعَام، أو شَرَاب- فإذا هي أَتَتْكَ، فَاقْرَأ عليها السلام مِن رَبِّها ومِنِّي، وبَشِّرْها بِبَيْتٍ في الجَنَّة مِن قَصَبٍ؛ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ»[3].

قال السُّهَيْلِي ﵀: «وإنما بشَّرَها ببيتٍ في الجنة مِن قَصَبٍ، أي: لؤلؤ؛ لأنها حَازَتْ قَصَبَ السَّبْق إلى الإيمان. (لا صخب فيه ولا نصب): لأنها لم تَرْفَعْ صَوْتَهَا على النَّبيِّ ﷺ، ولم تُتْعِبْه يَوْمًا مِن الدَّهْر، فَلَمْ تَصْخَبْ عليه يومًا، ولا آذَتْهُ أبَدًا»[4].

وكان النَّبيُّ ﷺ على بُعد عَهْدِه بها، لا يَزال يَذْكُر صَوْتَهَا، قالت عائشة ﵂: «اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ على رسولِ الله ﷺ،

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٥).
(٢) رواه البخاري (٣٨١٧)، ومسلم (٢٤٣٥).
(٣) رواه البخاري (٣٨١٧)، ومسلم (٢٤٣٥).
(٤) الرَّوْضُ الأُنُف (٢/ ٥٢٤- ٤٢٦).

فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاحَ لِذَلِكَ[1]، فقال: «اللهمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» فَغِرْتُ فَقُلْتُ: وَمَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ فَأَبْدَلَكَ الله خَيْرًا مِنْهَا»[2]، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَبْدَلَنِي الله خَيْرًا منها، قَدْ آمَنَتْ بي إِذْ كَفَرَ بي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي الله وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[3].

وقال البَيْهَقِيُّ رحمه الله: «بَلَغَنِي أن خديجةَ تُوفِّيت بعد موتِ أبي طالب بثلاثة أيام؛ ذكره أبو عبد الله بن مَنْدَهْ في كِتَاب المعرفة، وشيخنا أبو عبد الله الحَافِظ»[4].

ومع فقده ﷺ لهذين الحَامِيَيْنِ؛ إلا أنه لم يَضْعُف وقريش تكشِّر له عن أَنْيَابِهَا، ولم يَتَرَاجَع عن دَعْوَتِه، بل امْتَدَّت دَعْوَتُه إلى خَارِج مَكَّةَ، وشَرَعَ يَبْحَثُ عن أَرْضٍ أخرى تَقْبَل دَعْوَتَه، وتَنْصُر دينَ الله تعالى.

(١) قال النووي رحمه الله: «أي: هَشَّ لمجيئها، وسُرَّ بها؛ لتذكره بها خديجة وأيامها. وفي هذا كله: دليل لحُسْنِ العَهْدِ، وحِفْظ الود، ورعاية حرمة الصَّاحِب والعَشِير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلك الصاحب» [شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٠٢)].

(٢) رواه مسلم (٢٤٣٧)، وعلَّقه البخاري في المناقب؛ باب: تزويج النَّبيِّ ﷺ خديجة (٣٨٢١).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨٦٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٢٤): «إسناده حسن»، وصحح الأرناؤوط إسناده في تحقيقه للمسند.

(٤) دلائل النبوة (٢/ ٣٥٢- ٣٥٣).

دُرُوس وعِبَر:

١- فضلُ وأجرُ التضحيةِ حِفَاظًا على الدِّين.

٢- جَوازُ الهِجْرَة مِن بلدِ الشرك إلى بلد الشرك والكفر إذا كان في ذلك مصلحة للدِّين، وقد سَمَّى الله فِعْلَهم ذلك هجرة شرعية، ومَدَحَهُم بها.

٣- جوازُ اللجوء إلى غير المسلم والدخول في حمايته، إذا لم يَتَرَتَّب على ذلك مَضَرَّةٌ على الدِّين، وحَصَلَ فيها نَفْع.

٤- بَلاغَةُ خُطْبَة جَعْفَر رضي الله عنه حيث اشْتَمَلَتْ على كَشْفِ مَسَاوِئ الجاهلية، وبَيَان مَحَاسِنِ الإسلام.

٥- كلُّ شِدَّةٍ يَعْقُبُها فَرَجٌ، فبعْد خُرُوج المهاجرين إلى الحبشة أَسْلَم حمزةُ بن عبد المطلب، وعمرُ بن الخطاب؛ فَاعْتَزَّ المسلمون في مكة بإسلامهم، واستطاعوا المُجَاهَرَة به حتى صَلُّوا بالمسجد الحَرَام عَلَانِيَة.

٦- الحِصَار الاقتصادي سِلَاح يلجأ إليه الأعداء؛ لإلحاق الضَّرَر بالمسلمين، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه، صَبَروا وثَبَتُوا على دِينِهِم حتى انتهى الحِصَارُ؛ رغم طول المُدَّة، فخرجوا مِن المِحْنَة أقوى مما كانوا.

٧- فَقَدَ النَّبيُّ ﷺ نصيرين لهما مَكَانَةٌ عنده، وأثرٌ في الدِّفاع عنه، ومع ذلك اسْتَمَر على طريقتِهِ ومنهَجِهِ في الدَّعْوَةِ، بل تَطَلَّع إلى الانتِشَار خَارِج مكة؛ فبدأ يدعو في المَواسِم، وخَرَج إلى الطَّائِف لطَلَبِ النُّصْرَةِ ونَشْرِ الدِّين وتبليغِهِ.

خُرُوجُ النَّبيِّ ﷺ إلى الطَّائِف

لَمَّا نُقِضَتِ الصَّحِيفَةُ وخَرَجَ المسلمون من الحِصَار؛ وَافَقَ ذلك موتُ أبي طالب وموتُ خديجةَ رضي الله عنها؛ فَاشْتَدَّ البَلَاءُ على رسولِ الله ﷺ مِن سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، واجترؤوا عليه، وكَاشَفُوه بالأَذَى، فَخَرَج رسولُ الله ﷺ إلى الطائف؛ رَجَاء أن يُؤْوُه ويَنْصُرُوه على قومه، ويَمْنَعُوه منهم، ودَعَاهم إلى الله عز وجل، فلم يَرَ مَن يُؤوِي، ولم يَرَ نَاصِرًا، وآذَوه أذًى عظيمًا لم يَنَل قَوْمُه منه أكثر مما نَالُوا منه، وكان معه مولاه زَيْدُ بنُ حَارِثَة، وكان قد عَمَدَ إلى نَفَرٍ مِن ثَقِيف، ثم سَادَات ثَقِيف وأَشْرَافِهم، وهم إخوة ثلاثة: عبدُ يَالِيلَ، ومسعودٌ، وحبيبٌ، بنو عمرو بن عُمَيْر بن عَوْف، وعند أَحَدِهِمُ امرأةٌ من قريش من بني جُمَحَ، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله، وكَلَّمَهم بما جاءهم له مِن نُصْرَتِه على الإسلام، والقيامِ معه على مَن خَالَفَه مِن قومه.

فقال أَحَدُهُم: هو يَمْرُطُ ثِيابَ الكعبةِ إن كان الله قد أَرْسَلَكَ.

وقال الآخَرُ: أما وَجَدَ الله أحدًا ليُرْسِلَهُ غَيْرَك؟!

وقال الثالث: والله لا أكلِّمُكَ أبدًا؛ لئن كنتَ رَسُولًا مِن الله كما تقول؛ لأنت أعظمُ خَطَرًا مِن أن أَرُدَّ عليك الكلامَ، ولئن كنتَ تَكْذِبُ على الله، ما ينبغي لي أن أُكَلِّمَكَ. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يَئِس من خير ثَقِيف، وقد قال لهم: «إن فعلتم ما فعلتم فَاكْتُموا عليَّ».

وقد أقام في الطَّائِف عشرةَ أيام لا يَدَعُ أحدًا مِن أَشْرَافِهم إلا جَاءَه وكَلَّمَه، فقالوا: اخْرُجْ مِن بَلَدِنا. وأغْرَوا به سُفَهَاءَهم، فوقفوا له صَفَّيْن، وجَعَلوا يَرْمُونَه بالحِجَارَة حتى دَمِيَتْ قَدَمَاه، وزيدُ بنُ حارثة يقيه بنفسه حتى أَصَابه شِجَاج في رأسه، فَانْصَرَف رَاجِعًا من الطائف إلى مكة محزونًا،

وفي مَرْجِعِهِ ذلك دَعَا بالدُّعَاء المشهور؛ دُعَاءِ الطَّائِفِ: «اللهم إليك أَشْكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقِلَّة حِيلَتِي، وهَوَانِي على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى مَن تَكِلُنِي، إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أو إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إن لم يكن بك غَضَبٌ عليَّ فلا أُبالي، غير أن عَافِيَتَك هي أَوْسَعُ لي، أعوذُ بنور وَجْهِكَ الذي أَشْرَقَتْ له الظُّلُمَاتُ، وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، أن يَحِلَّ عليَّ غَضَبُك، أو أن يَنْزِلَ بي سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى تَرْضَى، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بك»[1].

فلما رآه ابنا ربيعة؛ عتبة وشيبة وما لَقِيَ، تَحرَّكَتْ له رحمهما، فدعوا له غُلَامًا نَصْرَانِيًّا، يُقال له: عَدَّاس. فقالا له: خُذْ قِطْفًا من هذا العِنَب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكلْ منه. ففعل عدَّاس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ. فلما وَضَعَ رسولُ الله ﷺ يده فيه، قال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه، ثم قال: والله، إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «ومِن أيِّ بلاد أنت يا عدَّاس؟ وما دينك؟». قال: نَصْرَانِي، وأنا من أهل نَيْنَوَى. فقال له رسول الله ﷺ: «مِن قرية الرجل الصالح يُونُس بن مَتَّى؟». فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟! فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ» . فأكبَّ عَدَّاسٌ على رسولِ الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه وقدميه.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: «أما غلامك؛ فقد أفسده عليك!»،

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة النَّبوية» (١/ ٢٦٠- ٢٦٢) عن محمَّد بن إسحاق، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥): «فيه محمَّد بن إسحاق، وهو مدلِّس، وبقيَّة رجاله ثقات». وضعف الألباني الحديث في تعليقه على «فقه السيرة» للغزالي (ص ١٢٦).

فلما جاءهما عدَّاس قالا له: «ويلك يا عدَّاس، مالك تُقَبِّل رأسَ هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلَّا نبيٌّ. قالا له: ويحك يا عدَّاس، لا يَصْرِفَنَّك عن دينك، فإن دِينَك خيرٌ مِن دِينِهِ»[1].

لقد كان موقف ثَقِيف شديدًا على النَّبيِّ ﷺ؛ تَأثَّر منهم تَأثُّرًا بالغًا، ولكنه لجأ إلى الله بذلك الدعاء المأثور، بل إن أحداثَهَا لم يمحها ما لَحِقَه من المشركين يوم أُحُد؛ قالت عائشة رضي الله عنها: قلتُ للنبيِّ ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِن يوم أُحُد؟ قال: «لقد لَقِيتُ من قَوْمِك ما لَقِيتُ، وكان أشدَّ ما لَقِيتُ منهم يوم العَقَبَة إذ عَرَضْتُ نَفْسِي على ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بن عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ[2]، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فقال: إن الله عز وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. قال: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثم قال: يا محمدُ، إن الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأنا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ، فقال له رسولُ الله ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[3].

إنّ هذا البلاء الذي تَعَرَّض له النَّبيُّ ﷺ، والذي مِن أَثَرِهِ أنه خَرَج هَائِمًا على وجهه، لا يشعر بما حَوْله حتى بَلَغ قَرْن الثَّعالِب؛ لدليل على عُلُوِّ مَكَانَتِهِ عند الله تعالى؛ لأن المَرْءَ يُبْتَلَى على قَدْرِ دِينِهِ[4].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢١) من رواية ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي.
(٢) قَرْن الثَّعَالِب: هو قَرْن المَنَازِل في وَادِي السَّيْل الكَبِير، وهو أحد المواقيت للحج والعمرة.
(٣) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٤) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأَمْثَل فالأَمْثَل، يُبْتَلَى المَرْءُ على حَسَبِ دِينِهِ؛ فإن كان دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وإن كان

استماعُ الجنِّ لقِرَاءَة النَّبيِّ ﷺ:

فلما نَزَل بوادي نَخْلَة اليمانية مرجعه إلى مكة، قام يصلي من الليل، فصُرِف إليه نفرٌ من الجنِّ، فَاسْتَمَعُوا قِرَاءَته، ولم يَشْعُرْ بهم رسولُ الله ﷺ حتى نَزَل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

هذا الذي ذكره كُتَّاب السيرة النَّبوية؛ أن استماعَ الجنِّ لقراءته كان عند رُجُوعِه من الطائف، والذي ذكره البخاري في صحيحه[١]: أن استماعهم كان في أول البَعْثَة عندما ذهب إلى سُوق عُكَاظٍ ومعه طائفة من أصحابه، ولعل الحادثة تَكَرَّرَت.

وأقام بنَخْلَة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم، وقد أخرجوك؟ فقال: «يا زيدُ، إن اللهَ جَاعِلٌ لما ترى فَرَجًا ومَخْرَجًا، وإن اللهَ نَاصِرٌ دِينَه ومُظْهِرٌ نَبِيَّه»[٢].

فلما انتهى إلى قُرْبِ مكة أرسل رَجُلًا من خُزَاعَة إلى مُطْعِم ابن عَدِيٍّ: «أَدْخُلُ في جِوَارِك؟». فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرتُ محمدًا،

في دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حَسَبِ دِينِهِ» [أخرجه الترمذي (٨٩٣٢)، وابن ماجه (٣٢٠٤)، وقال الألباني: «حسن صحيح»].

(١) رواه البخاري (٧٧٣).

(٢) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٣٣).

فَدَخَل رسولُ الله ﷺ ومعه زيدُ بنُ حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ على راحلته، فَنَادَى: يا معشرَ قريش، إني قد أَجَرْتُ محمدًا، فلا يَهِجْهُ أحدٌ منكم.

فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الرُّكْنِ، فاسْتَلَمَه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، و المُطْعِم بنُ عَدِيٍّ وولده محدِقون به بالسلاح حتى دَخَلَ بَيْتَه[1].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٨١).

دُرُوس وعِبَر:

١- دخل رسول الله ﷺ مكة في جِوَار رَجُلٍ مِن أَشْرَافِها، وهو القَادِرُ على أن يأمر مَلَك الجِبَال فيطبق على أهلها الأَخْشَبَين عندما أرسله الله إليه! إنها المفارقة العجيبة... قريش تريد أن تفتك به، وهو يحمل لها في قلبه أَمَلًا في أن يُخْرِج الله تعالى من أَصْلَابِهم مَن يَعْبُد اللهَ لا يُشْرِك به شيئًا.

فأيُّ دَرْس يحمله هذا الموقف من النَّبيِّ ﷺ إلى الدُّعَاة والمصلحين؛ لا انتصار للنفس، ولا تَشَفٍّ من الخلق، بل نُصْح وإرْشَاد، وشَفَقَة ومحبَّة.

٢- لقد كان ثمرةُ الصبر واللجوء إلى الله ﷻ سلسلة مِن الإكرامات التي أكرم الله بها رسولَه ﷺ:

أولها: إسلام عَدَّاس؛ ذلك الغلام النصراني.

ثانيها: إرسال مَلَك الجبال إليه ليأمره بأمره في أعدائه، لكنه ﷺ صَفَح وصَبَر ورَحِمَهم مِن الهَلَاك رغم كُفْرِهم، ورَجَا اللهَ أن يُخْرِجَ مِن أَصْلَابِهم مَن يعبده وحده، فَصَار منهم مَن عَبَدَ اللهَ؛ فَضْلًا عن ذُرِّيَّاتِهم.

ثالثها: أن اللهَ صَرَف له طائفةً مِن الجنِّ استمعوا قراءته، وآمنوا بالله، وصَدَّقوا رسوله.

رابعها: قِمَّة الإكرامات والفَضَائِل مِن الله لرسوله ﷺ، وهي: الرحلة العظيمة العجيبة في ملكوت السماوات والأرض في الإسراء والمعراج.

الإسراءُ والمعراجُ

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

قال الزُّهْرِيُّ رحمه الله: «أُسْرِيَ برسولِ الله ﷺ قَبْل خُرُوجِه إلى المدينة بِسَنَة»[(١)].

أُسْرِيَ به ﷺ بجسده يقظة لا منامًا -على الصحيح من قول الصحابة والعلماء- مِن المسجد الحرام إلى بيت المقدس، رَاكِبًا البُرَاق صُحْبَةَ جبريل عليه السلام، فَنَزَل ثَمَّ، وأمَّ بالأنبياء ببيت المقدس فصلَّى بهم[(٢)]، ورَبَط البُراق بحلقة باب المسجد.

وقد عُرِجَ به تلك الليلة إلى السماء الدنيا، ثم للتي تليها، ثم الثالثة، ثم إلى التي تليها، ثم الخامسة، ثم التي تليها، ثم السابعة، ورأى الأنبياء في السماوات على منازلهم، ثم عُرِجَ به إلى سِدْرَة المُنْتَهَى، ورأى عندها جبريل على الصورة التي خَلَقَه الله عليها، وفَرَض الله عليه الصلوات الخمس تلك الليلة[(٣)].

وقد ساق الإمام البخاري حديث الإسراء والمعراج عن أنس ابن مالك عن مالك بن صَعْصَعَةَ رضي الله عنهم: أن نبي الله ﷺ حَدَّثَهم عن ليلة

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٦).
(٢) رواه مسلم (١٧٢).
(٣) رواه البخاري (٣٢٠٧).

أُسْرِيَ بِهِ: «بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ -وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ- مُضْطَجِعًا إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَدَّ: قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ - فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِي: مَا يَعْنِي بِهِ؟ قَالَ: مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شِعْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: مِنْ قَصِّهِ إِلَى شِعْرَتِهِ - فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا، فَغُسِلَ قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ، وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ -فَقَالَ لَهُ الجَارُودُ: هُوَ البُرَاقُ يَا أَبَا حَمْزَةَ؟ قَالَ أَنَسٌ: نَعَمْ- يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ، قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا، ثُمَّ قَالاَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ المُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ،

ثُـمَّ فُرِضَـتْ عَلَـيَّ الصَّلَـوَاتُ خَمْسِـينَ صَـلاَةً كُلَّ يَـوْمٍ، فَرَجَعْـتُ فَمَـرَرْتُ عَلَـى مُوسَـى، فَقَـالَ: بِمَـا أُمِـرْتَ؟ قَـالَ: أُمِـرْتُ بِخَمْسِـينَ صَـلاَةً كُلَّ يَـوْمٍ، قَـالَ: إِنَّ أُمَّتَـكَ لاَ تَسْـتَطِيعُ خَمْسِـينَ صَـلاَةً كُلَّ يَـوْمٍ، وَإِنِّـي وَاللهِ قَـدْ جَرَّبْـتُ النَّـاسَ قَبْلَـكَ، وَعَالَجْـتُ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ أَشَـدَّ المُعَالَجَـةِ، فَارْجِـعْ إِلَـى رَبِّـكَ فَاسْـأَلْهُ التَّخْفِيـفَ لِأُمَّتِـكَ، فَرَجَعْـتُ فَوَضَـعَ عَنِّـي عَشْـرًا، فَرَجَعْـتُ إِلَـى مُوسَـى فَقَـالَ مِثْلَـهُ، فَرَجَعْـتُ فَوَضَـعَ عَنِّـي عَشْـرًا، فَرَجَعْـتُ إِلَـى مُوسَـى فَقَـالَ مِثْلَـهُ، فَرَجَعْـتُ فَوَضَـعَ عَنِّـي عَشْـرًا، فَرَجَعْـتُ إِلَـى مُوسَـى فَقَـالَ مِثْلَـهُ، فَرَجَعْـتُ فَأُمِـرْتُ بِعَشْـرِ صَلَـوَاتٍ كُلَّ يَـوْمٍ، فَرَجَعْـتُ فَقَـالَ مِثْلَـهُ، فَرَجَعْـتُ فَأُمِـرْتُ بِخَمْـسِ صَلَـوَاتٍ كُلَّ يَـوْمٍ، فَرَجَعْـتُ إِلَـى مُوسَـى، فَقَـالَ: بِـمَ أُمِرْتَ؟ قُلْـتُ: أُمِـرْتُ بِخَمْـسِ صَلَـوَاتٍ كُلَّ يَـوْمٍ، قَـالَ: إِنَّ أُمَّتَـكَ لاَ تَسْـتَطِيعُ خَمْـسَ صَلَـوَاتٍ كُلَّ يَـوْمٍ، وَإِنِّـي قَـدْ جَرَّبْـتُ النَّـاسَ قَبْلَـكَ وَعَالَجْـتُ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ أَشَـدَّ المُعَالَجَـةِ، فَارْجِـعْ إِلَـى رَبِّـكَ فَاسْـأَلْهُ التَّخْفِيـفَ لِأُمَّتِـكَ، قَـالَ: سَـأَلْتُ رَبِّـي حَتَّـى اسْـتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّـي أَرْضَـى وَأُسَـلِّمُ، قَـالَ: فَلَمَّـا جَـاوَزْتُ نَـادَى مُنَـادٍ: أَمْضَيْـتُ فَرِيضَتِـي، وَخَفَّفْـتُ عَـنْ عِبَـادِي»[1].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى؛ فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُهم له وأذاهم، واستجراؤهم عليه، وسألوه أن يصفَ لهم بيتَ المقدس؛ فَجلَّاه الله له حتى عاينه، فَطَفِقَ يخبرهم عن آياته، وهو ينظر إليه[2].

وأخبرهـم عـن عِيْرِهِـم -أي: قافلتهـم- فـي مَسْـرَاه ورُجُوعِـهِ، وأَخْبَرَهُم عـن وقـت قُدُومِهَـا، وأخبرهـم عـن البَعِيـر الـذي يَقْدُمُهـا، وكان الأمـرُ كمـا قـال، فلـم يَزِدْهُـم ذلـك إلَّا نُفُـورًا، وأبـى الظالمـون إلَّا كفـورًا[3].

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).
(٢) رواه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٩).

دُرُوس وعِبَر:

١- لقد كانت حَادِثَةُ الإسراء والمعراج تسلية للنبيِّ ﷺ مما أصابه مِن فَقْد زوجهِ خديجةَ ﵂، وموت عمِّه أبي طالب، وأذى المشركين له، وإكرامًا مِن الله له؛ ليريه من آياته الكبرى.

٢- وقد كانت فتنة لبعض الناس، وعظُم تكذيب قريش له، ولم يتصوروا قدرةَ الله، وإنما نظروا للأمر نظرة مادية؛ فقد كانوا يضربون أَكْبَاد الإبلِ إلى بيت المقدس شهرًا، ويعودون منها شهرًا، والنَّبيُّ ﷺ يذهب إليها ويعود منها من ليلته! والذين كَذَّبوا رسولَ الله ﷺ في قصة الإسراء واستبعدوا وقوعه، غفلوا عن شيءٍ مهمٍّ في الآية؛ فالله ﷻ يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، فالله هو الذي أَسْرَى بعبده، ولم يَنْسِب الرسولُ ﷺ الإسراء إلى نفسه؛ فالذي يكذِّب بالإسراء إنما يطعن في قُدْرَةِ الله ﷻ(١).

٣- قالت عائشة ﵂: «لما أُسْري بالنَّبيِّ ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدَّث النَّاسُ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممَّن آمَن، وسَعَوا إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك في صَاحِبك؛ يزعم أنه أُسْريَ به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أَوَقَال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك لقد صَدَق. قالوا: وتصدِّقه! قال: نعم، إني لأصدِّقه بما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء في غُدْوَة أو رَوْحَة؛ فلذلك سُمِّي الصِّدِّيق»(٢).

٤- لقد كان إخبارُ النَّبيِّ ﷺ لقريشٍ عن حادثة الإسراء والمعراج شيئًا يعجز الإنسان عن وصفه؛ فقد أَبَان النَّبيُّ ﷺ عن شجاعة

(١) «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ١٥)، وانظر: «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٢٥١).
(٢) «السيرة النبوية» للذهبي (١/ ٢٠٢)، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢) وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

نـادرة، وقـوة فـي الحـقِّ لا يَخْشَـى فيـه أحـدًا مِـن الخَلْـق.

٥- لقـد وَقَـفَ ﷺ بالحِجْـر يخبرهـم عـن قصتـه بـكل ثَبَات، وبـكل ثِقَة، لا يُبَالـي مَـن صَدَّقـه أو كذَّبـه، فهـو يخبـر بقضيـة عاشـها بـكل ذرات جسـده، عاشـها بـكل لحظاتهـا، فانطلـق يصفهـا بـكل تفاصيلهـا، وقـد أكرمـه الله برفع الحُجُـب بينـه وبيـن بيـت المقـدس، وجَـلاَّه لـه ينظـر إليه ويصفـه لهم.

٦- فـي اختصـاص الصـلاة بتشـريعها فـي المعـراج بيـان لمكانتهـا؛ فهـي عمـود الإسـلام، وكونهـا شُـرعت فـي أول الأمـر خمسـين صـلاة ثـم خُفضـت إلـى خمـس صلـوات فـي الفعـل، وهـي خمسـون صـلاة فـي الميـزان[1]، دليـل علـى محبـة الله لفعلهـا؛ لمـا لهـا مِـن الأَثَـر فـي سُـلُوك المسـلم، فإنهـا تَنْهَـى عـن الفحشـاء والمنكـر، وقـد جُعِلَـت قُـرَّة عَيْـن رسـولِ الله ﷺ فـي الصـلاة.

٧- إن الرَّبط بين المسجدين -المسجد الحرام والمسجد الأقصى- له دَلَالَة عظيمة؛ فهما أقدم المساجد التي وُضِعَت للناس، وبانيهما على التوحيد والإخلاص لله هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، ومحمد النَّبيُّ الخَاتَم وأمته هم الوارثون لها، والمسئولون عنها وعن حراستها، والعناية بها.

٨- فضـل موسـى عليه السلام علـى هـذه الأمـة، ونصحـه لرسـول الله ﷺ وأمتـه حينمـا عـرض عليـه أن يعـود ويراجـع الله، ويطلبـه التخفيـف، وموسـى عليه السلام صاحـب تجربـة. قـال ابـن حجـر رحمه الله: «والتجربـة أقـوى فـي تحصيـل المطلـوب مـن المعرفـة الكثيـرة»[2].

(١) انظر: «الشرح الممتع على زاد المستقنع» لابن عثيمين (٢/ ٦). ويَرَى الشيخ: أن هذا غير الخمسين حسنة التي يُضَاعَف بها أجر الأعمال (الحسنة بعشر أمثالها)، أي: الخمسين صلاة بخمسمائة حَسَنَة.

(٢) فتح الباري (٧/ ٢١٨).

انشقاقُ القمر

من الآيات العظيمة التي أيَّد الله بها رسولَه ﷺ: انْشِقَاق القَمَر، قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١-٣].

وقد أجمع المسلمون على أنه حدث بمكة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «انْفَلَقَ القَمَرُ، ونحن مع رسول الله ﷺ فَصَارَتْ فِلْقَةٌ مِن وَرَاء الجَبَل، وفِلْقَة من دونه»، فقال رسول الله ﷺ: «اشْهَدُوا»[(١)]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أهلَ مكة سألوا رسولَ الله ﷺ أن يريهم آيةً؛ فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حِرَاء بينهما»[(٢)]، فقالت قريشٌ: «هذا سِحْرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ. فقالوا: انْظُرُوا ما يَأْتِيكُم به السُّفَّارُ، فإن محمدًا لا يستطيع أن يَسْحَرَ الناس كلّهم، فجاء السُّفَّارُ. فقالوا: ذلك صحيح»[(٣)].

تعرضُه ﷺ للقبائل في المواسم

جَعَل رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَه على القَبَائِلِ أيام المَوَسِم، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إلى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»[(٤)].

وكان يقول لهم: «يَا أيها النَّاسُ قُولُوا: لا إِلَه إِلَّا الله تُفْلِحوا، وتَمْلِكُوا بها العَرَب، وتَذِلُّ لَكُم بها العَجَمُ، فإذا آمَنْتُم، كُنْتُم مُلُوكًا في الجَنَّة».

وعمُّه أبو لهب وراءه يقول للناس: «لا تطيعوه فإنه صَابِئ كَذَّاب!»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).
(٢) رواه البخاري (٣٨٦٨)، ومسلم (٢٨٠٢).
(٣) «السيرة النبوية» للذهبي (١/ ١٧٠).
(٤) رواه أبو داود (٤٧٣٤)، وابن ماجه (٢٠١)، وصححه الألباني.
(٥) رواه أحمد (١٦٠٢٣)، وابن حبان (٦٥٦٢)، وصححه الألباني.

فكان أحياءُ العرب يتحامونه؛ لما يسمعون من قريش عنه؛ إنه كَاذِب، إنه سَاحِر، إنه كَاهِن، إنه شَاعِر! أكاذيب يقذفونه بها من تِلْقَاء أنفسهم، فيصغي إليهم مَن لا تمييز له مِن أحياء العرب، وكان أَكْثَرُهُم يَرُدُّون عليه أَقْبَحَ الردِّ، ويؤذونه، ويقولون: «أسرتُك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يَتَّبِعُوك».

وأما الأَلِبَّاء؛ فإنهم إذا سَمِعوا كَلَامَه وتفهموه، شَهِدوا بأن ما يقول حقٌّ، وأنهم مفترون عليه، فَيُسْلِمون[1].

فانظر كيف السِّبَاق بين الحقِّ والبَاطِل؟!

داعٍ يدعو إلى الحق غير عَابِئ بسخرية السَّاخِرين، وجفاء الجافين، يريد أن يوصل الكَلِمَةَ الطَّيِّبَة، ويُبَلِّغَ رسالةَ رَبِّه، لا يَسْأَم مِن صُدُودِهم، ولا يَضْجَر مِن أَذَاهُم.

وداعٍ يَدْأَب في تكذيب الحقِّ، ويدور معه حيث دَار، حَرِيصٌ على أحجاره التي يعبدها مع الله، حَدِب على سِيَادَتِه التي أصبح رَمْزها هذه النُّصُب والأَصْنَام.

ولكنَّ الباطلَ أحقر مِن أن يَكْتُمَ صَوتَ الحقِّ، وأن يحول دون وصوله إلى العقولِ الحُرَّةِ الأبيَّة، فتخفق أرواحُهم لدى سماعها، وتذعن أفئدتهم لصدق كلماتها.

حَدِيثُ سُوَيْدِ بنِ الصَّامِتِ وإِيَاس بن مُعَاذ:

كان سُوَيْدُ بنُ الصَّامِتِ -أخو بني عَمْرِو بن عَوْف من الأَوْسِ- قد قَدِم مَكَّةَ في السَّنَة التاسعة من البَعْثَة، فَدَعَاه رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام وتَلَا عليه القرآنَ، فلم يُبْعِدْ ولم يُجِبْ، وقال: «إن هذا القول

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢١٦- ٢١٧).

حَسَن. ثم انصرف إلى المدينة، فقُتِلَ في بعض حُرُوبِهِم، وكان رجالٌ من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قُتِلَ وهو مُسْلِم»[1].

ثم قَدِمَ مكةَ في السنة العاشرة أبو الحَيْسَر أَنَسُ بنُ رَافِع في فتيةٍ من قَوْمِهِ من بني عبد الأَشْهَل، يطلبون الحِلْفَ لوَقْعَة بُعَاث التي وَقَعَتْ بين الأَوْسِ والخَزْرَج، فدعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام وتَلَا عليهم القرآنَ، فقال إياس بن معاذ وكان شَابًا حَدَثًا: «يا قوم، هذا والله خيرٌ مما جئنا له»، فَضَرَبَه أبو الحَيْسَر، وانْتَهَرَه، فَسَكَت، ثم لم يتم لهم الحِلْف، فانصرفوا إلى بلادهم إلى المدينة، ثم لم يَلْبَث إياسُ بن مُعَاذ أن هَلَك. قال محمود بن لَبيد: «فأخبرني مَن حَضَرَه من قومي أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبِّره ويحمده ويسبِّحه حتى مات، وكانوا لا يشكُّون أنه مات مسلمًا، وكان قد استشعر الإسلام من ذلك المجلس حين سَمِع مِن رسولِ الله ﷺ ما سَمِع، فيقال: إن إياسَ بن معاذ مات مسلمًا»[2].

بَدْء إسلام الأنصار:

وكان مما صَنَعَ الله لأنصاره من الأوس والخزرج، أنهم كانوا يسمعون من حُلَفَائِهم مِن يهود المدينة: أن نَبِيًّا مبعوثٌ في هذا الزَّمَن، ويَتَوَعَّدُونهم به إذا حَارَبُوهم، ويقولون: إنا سنقتلُكم معه قَتْلَ عَادٍ وإِرَم، وكان الأنصار يَحُجُّون البيتَ، وأما اليهود فلا، فلما رَأَى الأنصارُ رسولَ الله ﷺ يدعو الناسَ إلى الله تعالى، ورأوا أماراتِ الصِّدْقِ عليه،

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام» (١/ ٤٢٥) بإسنادٍ منقطع.

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٢٧- ٤٢٨)، وأخرجه أحمد في المسند (٢٣٦١٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٦): «رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات وسنده حَسَن». وذكره الحافظ في الإصابة (١/ ١٠٢) وصححه.

قالوا: «والله، هذا الذي تَوَعَّدَكُمْ يَهُودُ به، فلا يَسْبِقُنَّكُم إِلَيْهِ».

ثم إن رسولَ الله ﷺ لَقِيَ عند العَقَبَة في المَوْسِم من السنة الحادية عشرة من البَعْثَة نَفَرًا من الأنصار، كلهم من الخَزْرَج، وهم:

١- أبو أُمَامَة، أَسْعَدُ بن زُرَارَة بن عُدُس.

٢- عَوْف بن الحَارِث بن رِفَاعَة وهو ابن عَفْرَاء.

٣- رَافِع بن مالك بن العَجْلَان.

٤- قُطْبَة بن عَامر بن حَدِيدَة.

٥- عُقْبَة بن عَامِر بن نابي.

٦- جابر بن عبد الله بن رِئَاب.

فدعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام؛ فأسلموا مبادرة إلى الخير، ثم رجعوا إلى المدينة، فَدَعَوا إلى الإسلام، فَفَشَا الإسلامُ فيها؛ حتى لم تبقَ دارٌ إلَّا وفيها ذِكْر للإسلام[1].

هكذا كان انتشار الإسلام في المدينة على يدِ هؤلاء السِّتَّة؛ فهم كانوا أول سُفَرَاء الخير في بِلَادِهم، ظَفَرُوا بالنَّبيِّ ﷺ دون العَرَب، فكانوا بداية انطلاقة جديدة للإسلام خارج مكة.

بيعة العَقَبة الأولى:

فلما كان العام المُقْبِل (السَّنَة الثانية عشرة مِن البَعْثَة) جاء مِن الأنصار اثنا عشر رَجُلًا؛ الستة الأوائل خَلَا جابر بن عبد الله بن رِئَاب، ومعهم سبعة هُمْ:

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٢٨ - ٤٣٠)، وصَرَّح ابنُ إسحاق بالتحديث، لكن إسناده منقطع. وانظر: «صحيح السيرة» لإبراهيم العلي (ص ١٠٤).

١- مُعَاذُ بن الحَارِث بن رِفَاعة أخو عَوْف المتقدِّم.

٢- ذَكْوَانُ بنُ عبد قَيْس بن خَلْدَة. وقد أقام ذَكْوَان هذا بمَكَّةَ حتى هَاجَرَ إلى المدينة، فيُقال: إنه مهاجري أنصاري.

٣- عُبَادَة بن الصَّامِتِ بن قَيْس.

٤- أبو عبد الرحمن يَزِيد بن ثَعْلَبَة.

٥- العَبَّاس بن عُبَادة بن نَضْلَة.

فهؤلاء مِن الخزرج، واثنان مِن الأوس هما:

٧- أبو الهَيْثَم مَالِكُ بنُ التَّيِّهَان.

٨- عُوَيْمُ بن سَاعِدَة.

فَبَايَعوا رسولَ الله ﷺ بيعةً كبيعة النِّسَاء، ولم يكن أمرٌ بالقتال بعدُ، فلما انصرفوا إلى المدينة، بَعَثَ إليهم رسولُ الله ﷺ مُصْعَبَ بن عُمَير، يُعَلِّم مَن أَسْلَم منهم القرآن، ويدعو إلى الله ﷻ، ويَؤُمُّهُم في الصلاة[1]، ثم قَدِم عبدُ الله بن أمِّ مَكْتُوم بعد ذلك، وكان له دور في الدعوة، وتعليم القرآن[2].

لقد كانت هذه البيعة تأكيدًا على تطبيق الإسلام؛ حيث تَضَمَّن الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته؛ لأن هذه البيعة لها أثرٌ في البيعة التي تليها؛ بيعة النُّصْرة؛ ذلك أن الذين لا يستطيعون الانتصار على شهواتهم وملذاتهم، ولا يَنْقَادون إلى الأمر والنهي، ولا يصبرون على الطاعة، والانتهاء عن المعصية، لا يُمْكِن لهم أن يَنْتَصِروا في ميادين المدافعة والبذل.

ونزل مصعب بن عمير على أبي أمامة أسعد بن زُرَارَة، وكان

(١) «السيرة النَّبوية» لابن هشام (١/ ٤٣٣- ٤٣٤)، ونص البيعة أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٩٣)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣٩٢٤). وانظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٦٠١).

مصعب بن عمير يَؤُمُّهُم، ويُعَلِّمُهُم القرآنَ والإسلام، فَأَسْلَم على يديه بَشَرٌ كثير، منهم: أُسَيْد بن حُضَيْر، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يؤمئذٍ جميعُ بني عبد الأَشْهَل؛ الرِّجَال والنِّسَاء، إلا الأُصَيْرِم، وهو عَمْرو بن ثَابت بن أُقَيْش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أُحُد، فأسلم يومئذٍ، وقَاتَل فقُتِلَ قَبْل أن يسجدَ لله سجدة، فأُخْبِرَ عنه النَّبيُّ ﷺ، فقال: «عَمِلَ قليلًا، وأُجِرَ كثيرًا»[1].

لقد كانت بَرَكَةُ هذين الرَّجُلَيْن: مصعب بن عمير، وعبد الله بن أم مكتوم على أهل المدينة عظيمةً، فاستطاعا أن يدخلا خَلْقًا كثيرًا في الإسلام، بل استطاعا أن يؤثِّرا في ساداتهم ورؤوسهم، فلم يتخلفْ مِن قومهم أَحَدٌ، وهذا دليل على عُمْق التَّرْبِيَة النَّبويَّة التي استطاع مِن خلالها أن يَصْنَعَ رِجَالًا يحملون الإسلام كما يحمله هو.

بيعة العَقَبة الثانية:

لما كَثُرَ الإسلام بالمدينة وظهر، اجتمع الأنصار فقالوا: حتى متى نترك رسولَ الله ﷺ يُطْرَد في جبال مكة ويُخاف؟ فعزموا على إخراجه من مكة إليهم[2]. وقَدِم مصعبٌ إلى مكة في حج السنة الثالثة عشرة من البَعْثَة، ووَافَى الموسمَ ذلك العام خلقٌ كثيرٌ مِن الأنصار من المسلمين والمشركين.

قال كعْب بن مالك رضي الله عنه: خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وفَقِهنا، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُنَا وَكَبِيرُنَا. فَلَمَّا وَجَّهْنَا

(١) رواه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٤٤٥٦) من حديث جابر بن عبد الله، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٢٠): «رواه أحمد بإسنادٍ حَسَن، وصححه الحاكم».

لِسَفَرِنَا، وَخَرَجْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ، قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلَاءِ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي، أَتُوَافِقُونَنِي عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ قَالَ: قُلْنَا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَدْ رأيت ألا أَدَعَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ -يَعْنِي: الْكَعْبَةَ- وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا، وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نبيَّنا ﷺ يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ. فَقَالَ: إِنِّي لمصلٍّ إِلَيْهَا. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ.

قَالَ: فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ، وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ. قَالَ: وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ، وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَى ذَلِكَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ لِي: يَا ابن أَخِي، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى نسأله عَمَّا صَنَعْتُ فِي سفري هذا، فإنه والله قد وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ.

قَالَ: فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ، وَلَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَلَقِينَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رسول الله ﷺ فقال: هل تَعْرِفَانِهِ؟ فقلنا: لا. قال: فهل تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّهُ؟ قَالَ: قلنا: نعم. قال: كنا نَعْرِف العَبَّاس، وكان لا يَزَال يَقْدَمُ علينا تَاجِرًا. قال: فإن دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ. قَالَ: فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ مَعَهُ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: «هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟» قَالَ: نَعَمْ، هَذَا البَراء بْنُ مَعْرُورٍ، سَيِّدُ قَوْمِهِ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رسول الله ﷺ: «الشَّاعِرُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا، وَقَدْ هَدَانِي اللهُ لِلْإِسْلَامِ، فرأيتُ ألا أَجْعَلَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ،

فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَمَاذَا تَرَى يا رسول الله؟ قال: «كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا». قَالَ: فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ. قَالَ: وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ.

قال:وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ، فَوَاعَدْنَا رَسُولَ الله ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ الله ﷺ، وَمَعَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا فَكَلَّمْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ، وَكَانَ نَقِيبًا.

قال: فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قومنا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَة بِنْتُ كَعْبٍ، أُمُّ عُمارة إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلَمة، وهي أم مَنِيع.

فَاجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ -وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ-؛ إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يحضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ ويتوثَقَ لَهُ. فَلَمَّا جَلَسَ كَانَ أَوَّلَ مُتكلم الْعَبَّاسُ

بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ -وَكَانَتْ الْعَرَبُ إِنَّمَا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الْأَنْصَارِ: الْخَزْرَجَ؛ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا-، إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ، ومَنَعة فِي بَلَدِهِ.

قَالَ: فَقُلْنَا: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ الله، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ.

قال: فَتَكَلَّمَ رسولُ الله ﷺ فَتَلَا القرآنَ، وَدَعَا إِلَى الله ورغَّب فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نساءَكم وأبناءَكم». قَالَ: فَأَخَذَ البَراء بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ الله، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. قَالَ: فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ -وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله ﷺ- أَبُو الْهَيْثَمِ ابْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا -يَعْنِي الْعُهُودَ-؛ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ الله أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ، وَتَدَعَنَا؟

قال: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ».

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ»، فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا مِنْهُمْ، تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ[1].

(١) النقباء هم:
١- أسعد بن زرارة. ٢- سعد بن الربيع. ٣- عبد الله بن رواحة. ٤- رافع بن مالك بن

قال: وكان أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ الله ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ، فَلَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ الله ﷺ - صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ -وَالْجُبَاجِبُ: الْمَنَازِلُ- هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ؟ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ الله، أَمَا وَالله، لَأُفْرُغَنَّ لَكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ارْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ» قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ».

قال: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا، وَالله إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ. قَالَ: فَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا، يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِالله مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَمَا عَلِمْنَاهُ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا، قَالَ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ: وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ ابْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ، وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ جَدِيدَانِ، قَالَ: فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا: مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَمِعَهَا الْحَارِثُ فَخَلَعَهُمَا، ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ، فَقَالَ: وَالله لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا.

العجلان. ٥- البراء بن معرور. ٦- عبد الله بن عمرو بن حرام. ٧- عبادة بن الصامت. ٨ - سعد بن عبادة. ٩- المنذر بن عمرو. ١٠- أسيد بن الحضير. ١١- سعد بن خيثمة. ١٢- رفاعة بن عبد المنذر، ويُقَال: الهيثم بن التَّيِّهَان.

قَالَ: يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ: أَحْفَظْتَ -وَاللهِ- الْفَتَى، فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَرُدَّهُمَا، فَأْلٌ وَاللهِ صَالِحٌ، وَاللهِ لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لَأَسْلُبَنَّهُ[1].

ومِن حديث البيعة: أن رسولَ الله ﷺ قال لهم: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وعلى أن تَقُولُوا في الله، لَا تَأْخُذُكُم لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ».

فقاموا ليبايعوه؛ فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ -وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ- فَقَالَ: «رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فَخُذُوهُ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ»، فَقَالُوا: «يَا أسعد أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فقاموا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ، يعطيهم بذلك الجنة»[2].

هكذا تمت البَيْعَة بِسِرِّيَّة تَامَّة، ثم تتبعت قريش الخبرَ فثبت عندهم، ورَحَل البَرَاء بن مَعْرُور فَتَقَدَّم إلى بَطْنِ يَأْجَجَ ، وتَلَاحَق أصحابُه من المسلمين، وتطلبتهم قريشٌ، فأدركوا سعدَ بن عُبَادَةَ، فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إلى عُنُقِهِ بِنِسْعِ رَحْلِهِ، وجعلوا يضربونه ويَجُرُّونه، ويجذبونه بجمَّتِهِ؛ حتى

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٨٦ - ٩٤)، وأخرجه أحمد في المسند (١٥٧٩٨) من طريق محمَّد بن إسحاق به. وقد قوَّى الحديث وحَسَّن إسناده: «الأرناؤوط» في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٤٤٥٦)، وله شاهد في الصحيحين، عند البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

أدخلوه مكةَ، فجاء مُطْعِم بن عَدِي، والحَارِث بن حَرْب بن أُمَيَّة، فخلَّصاه من أيديهم، وتشاورت الأنصار حين فقدوه: أن يَكُرُّوا إليه، فإذا سعدٌ قد طَلَع عليهم، فَوَصَل القومُ جميعًا إلى المدينة[1].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٩٤ - ٩٥).

دروس وعِبَر:

١- نُلَاحِظ أن النَّبيَّ ﷺ أثناء لقاءاته بوفود العرب وعرض الإسلام عليهم يبدأ بتلاوة القرآن الكريم، وهذا منهج ينبغي الانتباه له في الدعوة إلى الله، والمحاضرات والخطب في مواضعه المناسبة؛ فإن كلام الله له أثر عظيم في النفوس، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال جُبَيْر بنُ مُطْعِم: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، كَاد قَلْبِي أن يَطِير»[(١)]. وكان جُبَيْر وقتها على شِرْكِهِ[(٢)].

٢- كان رسولُ الله ﷺ يقول للناس وهو يتجول على القبائل في المواسم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**»[(٣)]؛ فالبدء بالتوحيد وتعليمِ العقيدة، والحث على مكارم الأخلاق هو المُقَدَّم كما فعل رسول الله ﷺ، وكما تنزل القرآن عليه في مكة؛ لأن التكاليف وقبول التشريعات ثمرة للعقيدة وفرعٌ عنها؛ فإذا استقرت العقيدةُ في النفوس وقوي الإيمانُ واستقامت الأخلاق، حَصَلت الاستجابة والرضا، والمسارعة إلى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي.

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).
(٢) انظر: «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٢٦٧).
(٣) رواه أحمد (١٦٠٢٣)، وابن حبان (٦٥٦٢)، وصححه الألباني.

٣- في استجابة الأنصار للدعوة واستعدادهم لحماية الرسول ﷺ بيان فضلهم، وحكمة من الله بأن هذا الدِّين لا يقوم على العَصَبِيَّة القَبَلِيَّة؛ فقبيلته قريش وبلده مكة تخرجه، ويجد عند غيرهم نصرة ومأوى.

٤- أن الدُّعَاةَ إلى الله تعالى بحاجة إلى الحماية في دعوتهم مِن أَذَى أهل الباطل والإفساد؛ فهذا خير البشر المؤيَّد من الله بملائكته وجنده، يطلب حماية الأنصار له، فغيره من باب أولى، وهذا من اتخاذ الأسباب المأمور بها.

٥- لقد كان الأنصار يعلمون وهم يعقدون هذه البيعة، أن العربَ سترميهم عن قوسٍ واحدةٍ، ولكنهم طلبوا الجنة، ودفعوا مهرها؛ فكم للأنصار من أيام، ويوم بيعة العقبة من أيامهم الخالدة.

٦- كَبْح جِمَاح العَاطِفَة والحماس والعجلة؛ تحقيقًا للمصلحة الشرعية، فعندما استأذن الأنصارُ النَّبيَّ ﷺ أن يَميلوا على أهل مِنَى؛ مَنَعَهُم ﷺ وقال: «لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ»[1].

(١) سبق تخريجه.

الفصل الثالث

الهجرة وترتيب أوضاع المدينة النَّبويَّة

الهجرة وترتيب أوضاع المدينة النَّبويَّة

الهجرة إلى المدينة النَّبوية:

أَذِنَ النَّبيُّ ﷺ للمسلمين من أَهْلِ مكة بعد بَيْعَة العَقَبَة الثانية في الهجرة إلى المدينة، وقال لهم: «أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لاَبَتَيْنِ»[1]. وهما: الحرتان.

وكان من أسباب الهجرة[2]:

١- وقوعُ البَلَاء والاضطهاد على المسلمين في مكة.

٢- مَخَافةُ الفتنة في الدِّين.

٣- وجودُ حماية للدعوة بعد بيعة العقبة الثانية.

٤- تكذيبُ قريش للنَّبيِّ ﷺ وإخراجه من مكة.

فَهَاجَر مَن هَاجَر إلى المدينة حين أَذِن بذلك رسولُ الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعضُ مَن كان هَاجَر إلى أرضِ الحَبَشَة، وتَجَهَّز أبو بكر مهاجرًا، فقال له رسولُ الله ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي». قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نَعَمْ».

فَحَبَس أبو بكر نَفْسَه على رسولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وعَلَفَ رَاحِلَتَيْن كانتا عنده وَرَقَ السَّمُرِ أربعةَ أشهر[3].

(١) رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق» لسليمان بن حمد العودة (ص ٣٥١- ٣٥٣).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٥).

فَبَادَر المسلمون إلى الهجرة، فكان أولُ مَن خَرَج إلى المدينة مِن أهل مكة: أبو سَلَمة بن عبد الأَسَد هو وامرأته أم سلمة، وكان قد قَدِم من الحَبَشَة إلى مكة، فآذته قريشٌ، فَبَادَر بالهجرة إلى المدينة من حين أَذِن النَّبيُّ ﷺ، ولكن أم سَلَمَة احْتَبَسَتْ دُونَهُ وَمُنِعَتْ مِنَ اللَّحَاقِ بِهِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا، ثم خرجت بعد سنةٍ بولدها إلى المدينة، وشَيَّعَها عثمانُ بن طلحة من مكة إلى أن رأت بلدة قُبَاء بالمدينة، ثم تَرَكَها وعاد إلى مكة، وذلك قبل إسلامه ف‌ـ[1]. ثم خَرَج الناسُ أَرْسَالًا يتبعُ بعضُهم بَعْضًا.

هجرة رسول الله ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. قال قتادة: «﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: المدينة، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: الهجرة من مكة، ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: كتاب الله وفرائضه وحدوده»[2].

لم يبقَ مِن المسلمين في مكة إلَّا رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر وعليٌّ ؛ أقاما بأمره لهما، وخَلَا مَن اعتقله المشركون كرهًا، وقد أعَدَّ أبو بكر ؛ جهازه وجهاز رسول الله ﷺ منتظرًا حتى يَأْذَنَ الله ﷻ لرسولِه ﷺ في الخروج.

فلما رَأَى المشركون أصحابَ رسول الله قد تَجَهَّزوا، وخَرَجُوا، وحَمَلوا وساقوا الذراري والأطفال، والأموال إلى الأوس والخزرج،

(١) انظر لتمام القصة: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٦٩- ٤٧٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١٤٩).

وعَرَفوا أن الدارَ دارُ مَنَعَة، وأن القومَ أهلُ حَلْقَةٍ وشَوْكَةٍ وبَأْسٍ؛ خَافوا خروجَ رسولِ الله إليهم، ولُحُوقَهُ بهم، فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار النَّدْوَة، ولم يتخلفْ أحدٌ من أهل الرأي والحِجَا منهم؛ ليتشاوروا في أمره، وحضرهم وليُّهم إبليسُ في صورةِ شَيْخٍ كبيرٍ مِن أهل نَجْد[1]، مُشْتَمِلٍ الصَّمَّاءَ[2]؛ فتذاكروا أمرَ رسولِ الله، فأشار كلُّ أحد منهم برأيٍّ، والشيخ يردُّه ولا يَرْضَاه، إلى أن قال أبو جهل: «قد فُرِقَ لي فيه رأيٌّ ما أراكم قد وقعتم عليه». قالوا: ما هو؟ قال: «أرى أن نأخذَ مِن كلِّ قَبِيلَة من قريشٍ غُلَامًا نهدًا جلدًا، ثم نعطيه سيفًا صارمًا، فيضربونه ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فيتفرَّق دَمُه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته»، قال الشيخ: «لله دَرُّ الفَتَى، هذا والله الرأيُ».

قال: فاجتمعوا على ذلك، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه -تبارك وتعالى-، فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة[3]، وجاء رسولُ الله إلى أبي بكر نصف النهار -في ساعة لم يكن يأتيه فيها- مُتَقَنِّعًا، فقال له: «أَخْرِجْ مَن عندك». فقال: «إنما هم أهلُك يا رسول الله». فقال: «إن اللهَ قد أَذِن لي في الخُرُوج». فقال أبو بكر: «الصحبةَ يا رسول الله». فقال رسول الله: «نعم». فقال أبو بكر: «فخذ بأبي وأمي إحدى راحلتي هاتين». فقال رسول الله: «بالثَّمَن»[4].

---

(١) قال السهيلي رحمه الله: «إنما جاءهم في صورة رجل من أهل نَجْد؛ لأنهم قالوا -فيما ذَكَرَ أهلُ السِّيَر-: لا يدخل معكم في المُشَاوَرَة أحدٌ مِن أهل تِهَامَة؛ لأن هواهم مع محمَّدٍ» [الرَّوْضُ الأُنُف (٢/ ٢٣٩)].

(٢) الصَّمَّاء: الكساء الذي ليس له أكْمَام يخرج منها يديه.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٠- ٤٨٣).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٥).

وأمر عليًّا أن يَبِيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النَّفَر مِن قريش يتطلعون من صِيرِ البَابِ، وَيَرْصُدُونَهُ ، ويريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشْقَاهَا، فَخَرَج رسولُ الله عليهم، فأخذ حَفْنَةً مِنَ البَطْحَاءِ، فجعل يَذَرُها على رؤوسهم، وهم لا يَرَوْنَه.

ثم خلَص إلى بيت أبي بكر ﷺ، فخرجا من خَوخَةٍ في دار أبي بكر ليلًا، وقد استأجرا عبد الله بن أُرَيْقِط اللَّيْثِي، وكان هَادِيًا خِرِّيتًا مَاهِرًا بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه على ذلك، مع أنه كان على دِينِ قَوْمِهِ، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه بعد ثلاث، وذهبا إلى غار ثَوْر، وقد أعمى اللهُ على قريش خبرَهما، فلم يدروا أين ذهبا، وكان عَامِر بن فُهَيرَة يريح عليهما غَنَمًا لأبي بكر، وكانت أسماءُ بنت أبي بكر تَحْمِل لهما الزَّاد إلى الغَارَ، قالت عائشة ﷺ: «وجَهَّزناهما أحث الجهاز، ووضعْنا لهم سُفْرة في جِراب، فقطعتْ أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نِطاقها، فأوْكَتْ به الجِراب، وقطعتِ الأُخرى فصيّرتها عِصامًا لفم القربة، فلذلك لُقِّبتْ بذات النِّطَاقَيْن[1].

وكان عبدُ الله بن أبي بكر يتسمَّع ما يقال بمكة، ثم يذهب إليهما بذلك، فيحترزان منه، وجاء المشركون في طلبهما إلى ثَوْر، وما هناك من الأماكن؛ حتى إنهم مروا على بَابش الغَار، وحاذت أقدامُهم رسولَ الله ﷺ وصاحبه، وعمَّى الله عليهم بابَ الغار[2].

وحزن أبو بكر ﷺ؛ لشدة حرصه، حين مرَّ المشركون، وقال: يا رسول الله، لو أن أحدَهم نظرَ مَوْضِع قدميه، لرآنا. فقال له النَّبيُّ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[3].

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦).
(٢) انظر: «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (ص ١١٤- ١١٥).
(٣) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ولما كان بعد الثلاث، أتى ابنُ أُرَيْقِط بالراحلتين، فركباهما، وأردفَ أبو بكر عامرَ بن فُهَيْرَة، وسار الدَّلِيل أمامهما على راحلته، وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبهما، وإسعاده يرحلهما ويُنزلهما.

ولما يَئِس المشركون من الظَّفَر بهما؛ جعلت قريشٌ لمن جَاء بهما دِيَة كلِّ واحدٍ منهما، أي: مائة من الإبل، فَجَدَّ النَّاسُ في الطَّلَب، والله غَالِب على أَمْرِه، فلمَّا مرُّوا بحيٍّ من مُدْلِجٍ مُصْعِدِينَ مِنْ قُدَيْدٍ، بَصُرَ بِهِمْ رَجُلٌ من الحيِّ، فوقف على الحيِّ فقال: «لقد رأيتُ آنفًا أَسْوِدَةً ما أُرَاها إلا محمدًا وأصحابَه»، ففطِنَ بالأمرِ سراقةُ بن مالك ابن جُعْشُمٍ سيِّد مُدْلِجٍ؛ فأراد أن يكون الظَّفَرُ له خاصة، وقد سبق له مِن الظفر ما لم يكن في حسابه، فقال: «بل هم فلان وفلان، خَرَجَا في طَلَبِ حاجة لهم»، ثم مكث قليلًا، ثم قام فَدَخَل خِبَاءَه، وقال لخادمه: «اُخْرُجْ بالفَرَس من وراء الخِبَاء، وموعدك وراء الأَكَمَة»، ثم أخذ رُمْحَه، وخَفَضَ عَالِيَه يَخُطُّ به الأرضَ حتى رَكِبَ فَرَسَه، وسار في طلبهم، فلما قَرُب منهم، سَمِع قراءةَ النَّبيِّ ﷺ، وأبو بكر ﷺ يُكْثِر الالتِفَات حَذَرًا على رسولِ الله ﷺ، وهو ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: «يا رسول الله، هذا رجل قد رَهَقَنَا». فدعا عليه رسول الله ﷺ فَسَاخَت يدا فَرَسِهِ في الأرض، فقال: «رُمِيتُ إن الذي أصابني بدعائكما، فادعوَا الله لي، ولكما عليَّ أن أردَّ الناسَ عنكما»، فدعا له رسول الله ﷺ فأُطْلِق، وسأل رسولَ الله ﷺ أن يكتبَ له كِتَابًا، فكتبَ له أبو بكر في أَدَم، وعُرض عليهما الحملان والزاد، ورجع يقول للناس: «قد كفيتم ما ها هنا»[1]. فكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما!

(١) رواه البخاري (٣٦١٥).

وقد جاء مسلمًا عام حجة الوداع، ودفع إلى رسول الله ﷺ الكتابَ الذي كَتَبَه له، فَوَفَّى له رسولُ الله ﷺ بما وعده، وهو لذلك أهلٌ.

في خيمة أمِّ مَعْبَد:

ومرَّ رسولُ الله ﷺ في مسيره ذلك بخَيْمَة أمِّ مَعْبَد الخُزَاعِيَّة، وكانت امرأة بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بفِنَاءِ الخَيْمَةِ، ثُمَّ تُطْعِمُ وَتَسْقِي مَنْ مَرَّ بها، فسألاها: هل عندك شيءٌ؟ فقالت: والله، لو كان عندنا شيءٌ ما أَعْوَزَكُمُ القِرَى، والشَّاءُ عَازِبٌ، وكانت سنة شَهْبَاء، فَنَظَر رسولُ الله ﷺ إلى شاةٍ في كِسْرِ الخَيْمَة[1]، فقال: ما هذه الشاةُ يا أمَّ معبد؟ قالت: هي أجهدُ شاةٍ، خَلَّفَها الجَهْدُ عن الغَنَم. فقال: هل بها مِن لَبَن؟ قالت: هي أجهدُ من ذلك. فقال: هل تأذنين لي أن أَحْلُبَهَا؟ قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيتَ بها حَلْبًا فاحلُبْهَا.

فمسحَ رسولُ الله ﷺ بيده ضَرْعها، وسمَّى الله ودَعَا، فَتَفَاجَّت عليه[2]، ودرَّت، فدعا بإناءٍ لها يُرْبِضُ الرَّهْطَ، فَحَلَب فيه حتى عَلَتْهُ الرَّغْوَة، فسقاها فشربت حتى رَوِيت، وسَقَى أصحابَه حتى رووا، ثم شَرِب، وحَلَب فيه ثانيًا، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فارتحلوا، فقلما لَبِثَت أن جاء زوجُها أبو مَعْبَد يسوق أَعْنُزًا عِجَافًا، يَتَسَاوَكْن هُزَالًا[3]، فلما رأى اللَّبَن، عَجِب، فقال: مِن أين لك هذا، والشَّاة عَازِب؟ ولا حَلُوبَة في البيت؟ فقالت: لا والله، إلَّا أنه مرَّ بنا رَجُلٌ مُبَارَك، كان من حديثه كَيْتَ وكَيْتَ، ومِن حاله كذا وكذا. قال: والله إني لأَرَاه صَاحِبَ

(١) كِسر الخَيْمَة: بكسر الكاف وفتحها: جانب البيت. انظر: «منال الطالب» لابن الأثير (ص ١٧٩)، تحقيق: د. محمود الطناحي.

(٢) أي: وسَّعَتْ ما بين رجليها. «منال الطالب» (ص ١٨٠).

(٣) أي: يمشين مشيًا ضعيفًا. والتساوك: التمايل من الضعف. «منال الطالب» (ص ١٨١).

قريشٍ الذي تَطْلُبُه، صِفِيه لي يا أمَّ مَعْبَد. قالت: ظَاهِرُ الوَضَاءَة[١]، أبْلَجُ الوَجْهِ[٢]، حَسَنُ الخَلْق، لم تَعِبْه ثُجْلَةٌ[٣]، ولم تُزْرِ به صُعْلَةٌ[٤]، وَسِيمٌ قَسِيمٌ[٥]، في عينيه دَعَجٌ[٦]، وفي أشْفَارِه وَطَف[٧]، وفي صَوْتِه صَحَلٌ[٨]، وفي عُنُقِه سَطَعٌ[٩]، أَحْوَرُ، أَكْحَلُ، أَزَجُّ أَقْرَنُ[١٠]، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، إذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ، وإن تَكَلَّمَ عَلَاهُ البَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ المَنْطِق، فَصْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ، رَبْعَةٌ، لَا تُقْحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، وَلَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ[١١]، لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ[١٢].

فقال أبو معبد: وَاللهِ هَذَا صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذَكَرُوا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذَكَرُوا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَصْبَحَ صَوْتٌ بِمَكَّةَ عَالِيًا يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرَوْنَ الْقَائِلَ:

(١) الوَضَاءَة: الجَمَال والحُسْن.
(٢) الأبلج الوجه، والمُتبلِّج: الحَسَن المُشْرِق المضيء.
(٣) الثُّجْلة: عِظَم البطن مع استرخاء أسفله.
(٤) الصَّعْلة: صغر الرأس.
(٥) الوسيم: المشهور بالحُسْن. والقسيم: الحسنُ القسمة، أي: الوجه.
(٦) الدَّعَج: شدة سواد العين مع سعتها.
(٧) الأَشْفَار: حروف الأجفان التي ينبُتُ عليها الشعر. والوَطَف: كثرة شعر العين والاسترخاء، وإنما يكون ذلك مع الطول.
(٨) الصَّحَل: صوتٌ فيه بُحَّة وغِلَظ، وهو مستحسن؛ لخُلُوِّه من الحِدَّة المؤذية للسمع.
(٩) السَّطَع: طول العنق.
(١٠) الأزجُّ: المتقوس الحاجبين في طولٍ وامتدادٍ. والأقرن: المتصل رأسي حاجبيه.
(١١) المَحْفُود: المخدوم. والمَحْشُود: الذي يجتمع الناس له.
(١٢) العَابِس: الكَالِح الوجه. والمفند: المنسوب إلى الجهل وقِلَّة العقل، من الفَنَد: الخَرَف. هذا وما سبقه مِن: «منال الطالب» (ص ١٨٤ - ١٩٨).

جَـزَى اللهُ رَبُّ الْعَـرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَـلَّا خَيْمَتَيْ أم مَعْبَد

هُمَـا نَـزَلَا بِالْبِـرِّ وَارْتَحَـلَا بِـهِ ... وَأَفْلَـحَ مَـنْ أَمْسَـى رَفِيـقَ مُحَمَّـدِ

فَيَـا لَقُصَـيٍّ مَـا زَوَى اللهُ عَنْكُـمُ ... بِـهِ مِنْ فِعَـالٍ لَا يُجَازَى وَسُـؤدَدِ

لِيَهْـنَ بَنِـي كَعْـبٍ مَـكَانَ فَتَاتِهِـمْ ... وَمَقْعَدُهَـا لِلْمُؤْمِنِيـنَ بِمَرْصَـدِ

سَـلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَـاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْـأَلُوا الشَّـاءَ تَشْـهَدِ

قَالَـتْ أسماء بنت أبي بكر: مَـا دَرَيْنَـا أَيْـنَ تَوَجَّـهَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، حتى أَقْبَـلَ رَجُـلٌ مِـنَ الْجِـنِّ مِـنْ أَسْـفَلِ مَكَّـةَ، فَأَنْشَـدَ هَـذِهِ الْأَبْيَـاتَ، وَالنَّـاسَ يَتْبَعُونَـهُ وَيَسْـمَعُونَ صَوْتَـهُ، وَلَا يَرَوْنَـهُ حَتَّـى خَـرَجَ مِـنْ أَعْلَاهَـا. قَالَـتْ: فَلَمَّـا سَـمِعْنَا قَوْلَـهُ؛ عَرَفْنَـا حَيْـثُ تَوَجَّـهَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَأَنَّ وَجْهَـهُ إِلَـى الْمَدِينَةِ[1].

ذكـر البخـاري بعـض المواقـف فـي طريـق الهجـرة، منهـا: أنهـم لقـوا بعـض المسـافرين ورجـال القبائـل الذيـن يسـكنون فـي طريـق الهجـرة، وهم يعرفـون أبـا بكـر لسـفره بالتجـارة، ولا يعرفـون رسـولَ الله ﷺ، فيسـألونه: مَـن هـذا الرجـل الـذي معـك؟ فيقـول: هـذا الرجـل يهديـني السـبيل. قـال: فيحسـب الحَاسِـب أنـه إنمـا يعنـي الطريـق، وإنمـا يعنـي سـبيل الخيـر[2].

ومنهـا: أنهـم لقـوا الزُّبَيْـرَ بـن العَـوَّام فـي ركـبٍ مـن المسـلمين كانـوا تجـارًا قَافِلِيـن مـن الشـام، فكسـى الزبيـرُ رسـولَ الله ﷺ وأبـا بكـر ثيابًـا بيضًـا[3].

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٣٠ - ٢٣٢)، والمستدرك للحاكم (٤٢٧٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ٥٥ - ٥٨)، وزاد المعاد (٣/ ٥٥ - ٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣٩١١).

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٦).

دُرُوس وعِبَر:

١- عداوة المشركين والشياطين للحقِّ وأهله، وأنهم لما عَجَزوا عن مواجهة الحُجَّة بالحجة، لجأوا إلى منطق القوة والتآمر لتصفية رأس الدعوة وقتله.

٢- حفْظُ الله لرسوله ﷺ ورعايته له حيث أطلعه على مؤامرتهم، وأمره أن لا يبيت في فراشه تلك الليلة التي تواعدوا فيها للغدر به.

٣- التخطيط الدقيق للإفلات من مؤامرة الأعداء، والأخذ بالأسباب المشروعة، وهذا لا ينافي التوكل على الله.

٤- في الهجرة منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق حيث اختاره رسولُ الله ﷺ ليكون رفيقه في الهجرة، وأيضًا منقبة لعلي بن أبي طالب الذي تَعَرَّض للمخاطر، ونام في فراش النَّبيِّ ﷺ غيرَ مُبَالٍ بما يصيبه في سبيل نجاةِ رسولِ الله ﷺ مِن الخَطَر.

٥- الهجرة حدَث عظيم في تاريخ الأمة؛ ولهذا أَرَّخ بها المسلمون تاريخهم، ولم يكن انتقال الصحابة مِن أرضهم سياحة، وإنما خَرَجوا قسرًا إلى أرضٍ ذات وباءٍ تاركين أموالهم وأولادهم وأرضهم، لكن الله عَوَّضهم خيرًا، فصححها لهم وبَارَك لهم في مُدِّها وصَاعِها.

٦- أمانة المسلم ونظافة سلوكه، جعلتِ المشركين يَضعون ما يخافون عليه أمانة عند رسولِ الله ﷺ، وقد وَفَّى رسولُ الله بذمته ولم يغدر بهم، وهم أعداء، وقد أبقى عليًّا ليرد الأمانات التي عنده إلى أهلها!

٧- مِن قولِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «لو أن أَحَدَهم نَظَر تحت

قدميه لأبصرنا»، وقولِ رسولِ الله ﷺ: «مَا ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!»: نُدْرِك مِصْدَاق قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨]، فالوهن مزروع في كيد الكافر، ولا يمكن فصلُ الوهن مِن كيده، فالكفرة هنا بَذَلوا كلَّ ما يستطيعون وأعلنوا الجوائز، وتسابق الناس يبحثون عن الرسولِ ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه طمعًا في الجائزة، فقلبوا الحجارة، وصعدوا الجبال، وهبطوا الأودية حتى وقفوا على باب الغار، فَصَرَفَهم الله -جَلَّ شَأْنُه- فلم يبصروهم وقد وَقَفُوا عليهم![1].

٨- بقاء رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، وهو تجْويفٌ في الجبل مُظْلِم مُوحِش، مأوى للحشرات والهوام، ومع ذلك كان في طُمأنينة وسَكينة؛ لأن طمأنينة المؤمن في قلبه، وسكينته في نفسه، ومتى استقر الإيمان، وانْشَرَحَ الصَّدْر؛ تَحَوَّل الغَارُ وكأنه قَصْرٌ شَامِخ مَنِيف، يطل على الناس مِن عُلُوٍّ، ومتى افتقد صَاحِبُ القَصْر الإيمانَ؛ أصبح قَصْرُه أضيق عليه من قَبْرِه.

٩ - في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله.... ﴾ الآية [التوبة: ٤٠]، فما النَّصْر؟

إن النَّصْرَ الذي يحتفي به القرآن هو النصر المرتبط بتحقيق أهداف أخروية، والمسلم لا يرى هذه الدنيا إلا وسيلة لتحقيق النصر الذي يرفع منزلته في الآخرة، وهذا النصر هو الذي تقوم به العدالة في الدنيا، وتستقيم الحياة، وتطمئن النفوس.

والنصر قسمان:

الأول: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم، فيتم الله لهم ما طلبوا، ويظهرهم عليهم.

(١) انظر: «فقه السيرة النبوية» لزيد الزيد (ص ٣٠٦).

الثاني: نصر المستضعف الذي طَمِعَ فيه عَدُّوه القَادِر، فنصر الله له: أن يرد عنه عدوه. وهذا النصر هو أنفع النصرين، ونصر الله لرسوله ﷺ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين مِن هذا النَّوْعِ[1].

(١) تفسير ابن سعدي (ص ٣٣٨).

دخوله ﷺ المدينة:

لقد بَلَغَ الأنصارَ مخرجُه مِن مَكَّةَ، وقصدُه إيَّاهم، فكانوا كلَّ يوم يخرجون إلى الحَرَّة ينتظرونه أولَ النهار، فإذا اشتد حَرُّ الشمس رَجَعوا إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من نُبُوَّتِهِ ﷺ، وافاهم رسولُ الله ﷺ حين اشتدَّ الضُّحَى، بعد أن رَجَعوا إلى بُيُوتِهم، وكان أولَ مَن بصر به رجلٌ من اليهود، وكان على سطح أَطَمَة له (أي: حصن)، فنادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَة، هذا جَدُّكُم الذي تَنْتَظِرُون.

فَبَادَر الأنصارُ إلى السِّلَاح ليتلقَّوا رسولَ الله ﷺ، وسُمِعَت الرَّجَّة والتكبير في بني عمرو ابن عوف، وكَبَّر المسلمون فرحًا بقدومه، وخَرَجُوا للقائِه، فتلقَّوْهُ وحَيَّوه بتحية النُّبُوَّة، وأَحْدَقُوا به مطيفين حَوْلَه، والسكينة تغشاه، والوحي يَنْزِل عليه، فسار حتى نَزَل ﷺ بقُبَاء على كُلْثُوم بن الهِدْم. وجَاء المسلمون يُسَلِّمون على رسولِ الله ﷺ، وأكثرهم لم يَرَه بعدُ، وكان بعضُهم أو أكثرهم يَظُنُّه أبا بكر؛ لكثرة شيبه، فلما اشتدَّ الحرُّ قام أبو بكرٍ رضي الله عنه بثوبٍ يُظَلِّلُ على رسولِ الله ﷺ، فَتَحَقَّقَ الناسُ حينئذٍ رسولَ الله ﷺ[1].

وكان النَّبيُّ ﷺ قد خَرَج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين[2]، واستغرقتِ الهجرةُ النَّبوية الشريفة خمسة عشر يومًا، قَضَى منها ﷺ ثلاثةَ أيام في غَارِ ثَوْرٍ مُتَخَفِّيًا[3].

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في المناقب، باب: «هجرة النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة» (٣٩٠٦).
(٢) أخرجه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما (٢٥٠٦)، وفيه: ابن لهيعة.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٤٧٢).

استقرارُه ﷺ بالمدينة:

فأقام رسولُ الله ﷺ بقُبَاء أربعة عشر يومًا، وأَسَّس مسجدَ قُبَاء، ثم رَكِب بأمرِ الله تعالى؛ فأدركته الجمعةُ في بني سَالِم بن عَوْف، فَصَلاَّها في المسجد الذي في بَطْن رَانُونا[1]، ورَغِب إليه أهلُ تلك الدار أن ينزل عليهم، فقال: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»، فلم تزل ناقتُه سَائِرَة به لا تمرُّ بدار من دُور الأنصار، إلَّا رَغِبوا إليه في النزول عليهم، فيقول: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»، فلما جاءت موضعَ مَسْجِدِه اليومَ بركت، ولم ينزل عنها ﷺ، حتى نَهَضَتْ وسَارَت قليلًا، ثم التَفَتَتْ ورَجَعَتْ فَبَرَكَت في مَوْضِعِها الأول، فَنَزَل عنها ﷺ، وذلك في دار بني النَّجَّار، فَحَمَل أبو أيوب رضي الله عنه رَحْلَ رسولِ الله ﷺ إلى منزله[2]، ولما سألَ رسولُ الله ﷺ عن رحله، قيل: عند أبي أيوب. فقال: «المَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ»[3].

قال البراء: «أوَّل مَن قَدِم علينا مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ مُصْعَبُ ابن عُمَيْر، وابن أمِّ مَكْتُوم، فجعلا يُقْرِئَان الناسَ القرآنَ، ثم جاء عَمَّار وبِلَال وسَعْد، ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرين رَاكِبًا، ثم جاء رسولُ الله ﷺ، فما رأيتُ النَّاسَ فَرِحُوا بشيءٍ كَفَرَحِهِم به؛ حتى رأيتُ النِّسَاءَ والصِّبْيَانَ والإِمَاء يقولون: «هذا رسولُ الله قد جَاء»[4].

وقال أنسُ بن مالك: «شهدتُه -أي: النبي ﷺ- يوم دَخَل المدينةَ، فما رأيتُ يومًا قطُّ كان أحسن ولا أضوأَ مِن يوم دخل المدينة علينا،

(١) رَانُونا: وادٍ يبدأ مِن جنوب غربي قُبَاء، ويلتقي بوادي بُطحان قُرْب المدينة.
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٦).
(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٩).
(٤) رواه البخاري (٣٩٢٥).

وشهدتُه يوم مات، فما رأيتُ يومًا قطُّ كان أقبح ولا أظلمَ مِن يوم مات»[1].

فأقام في مَنْزِلِ أبي أيوبَ سبعة أشهر[2]؛ حتى بني حُجَرَه ومَسْجِدَه، وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ وهو في منزل أبي أيوبَ زيدَ بن حَارِثَة، وأبا رَافِع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائةِ دِرْهم إلى مَكَّةَ، فَقَدِمَا عليه بفَاطِمَةَ، وأمِّ كُلْثُوم ابنتيه، وسَوْدَة بنت زَمْعَة زوجته، وأُسَامةَ بن زَيْدٍ وأمِّه أم أيمن.

وأما زينبُ بنت رسول الله ﷺ فَبَقِيَت مع زَوْجِها أبي العاص ابن الرَّبِيع، وخَرَج عبدُ الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر، ومنهم عائشة، فنزلوا في بيتِ حَارِثَة بن النُّعْمَان[3].

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٦٤)، والدارمي (٨٩).
(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٧).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

تنظيمُ المجتمع وبناء المؤسسات

لما استقر النَّبيُّ ﷺ بالمدينة النَّبويَّةِ أَخَذَ في تنظيم أمور المجتمع، وبناء مؤسساته: الإدارية، والعلمية، والاجتماعية، التي تَضْمَن له الأمنَ والاستقرارَ؛ داخليًّا وخارجيًّا.

فكان مِن ذلك:

١ - بناء المسجد:

بَرَكَت ناقةُ النَّبيِّ ﷺ في مَوْضِع مَسْجِدِه، وكانت مأمورة كما قال ﷺ، والمكان مِرْبَد لسَهْل وسُهَيل -غلامين يتيمين من الأنصار-، كانا في حِجْر أَسْعَد بن زُرَارَة، فساوَمَ رسولُ الله ﷺ الغلامين بالمِرْبَد ليتَّخذه مسجدًا، فقالا: بل نَهَبُه لك يا رسول الله. فأبي رسول الله، فابتاعه منهما[1].

وكان فيه شجر غَرْقَد وخِرَب ونَخْل وقُبور للمشركين، فأمر رسولُ الله ﷺ بالقبور فَنُبِشَت، وبالخِرَب فسُوِّيَت، وبالنخل والشجر فقطعت، وصُفَّت في قِبْلَةِ المسجد، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبين مثل ذلك، أو دونه، وجعل أساسُه قريبًا من ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللَّبِن، وجَعَلَ رسولُ الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللَّبِنَ والحِجَارَة بنَفْسِهِ، ويقول:

اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةْ... فاغفر للأنصار والمهاجرةْ

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦).

وكان يقول:

هـذا الحِمَـال لا حِمَـال خَيْبَـرَ... هَـذَا أَبَـرُّ رَبَّنـا وأَطْهَـر

وجعلوا يرتجزون، وهم ينقلون اللَّبِن، ويقول بعضهم في رَجَزِهِ:

لئـن قَعَدْنَـا والرَّسُـولُ يَعْمَـل... لَـذَاك مِنَّـا العَمَـلُ المُضَلَّـلُ

وجعـل قبلتـه إلـى بيـتِ المَقْـدِس، وجَعَـلَ لـه ثلاثـةَ أبـواب؛ بابًـا فـي مؤخـره، وبابًـا يُقـال لـه: بـاب الرحمـة، والبـاب الـذي يدخـل منـه رسـولُ الله ﷺ، وجَعَـلَ عُمُـدَه الجُـذُوع، وسَـقْفَه بالجَرِيـدِ. وبَنَـى إلـى جنبـه بُيُـوت أزواجـه باللَّبِـن، وسـقفها بالجريـد والجـذوع، فلمـا فـرغ مـن البنـاء؛ بنـي بعائشـة ﵂ فـي البيـت الذي بَنَـاه لهـا شـرقي المسـجد، وهـو مـكان حجرتـه اليـوم، وجعـل لسَـوْدَة بنـت زَمْعَـة بيتًـا آخـر[1].

وهكـذا شُـرِّفَتِ المدينـةُ بهِجْـرَةِ النَّبـيِّ ﷺ إليهـا، وسـكناه ﷺ بهـا، فصـارت كَهْفًـا لأوليـاء الله وعبـاده الصالحيـن، ومعقـلًا وحِصْنًـا مَنِيعًـا للمسـلمين، ودار هـدًى للعالميـن، قـال رسـول الله ﷺ: «إِنَّ الإِيمَـانَ لَيَـأْرِزُ إِلَـى المَدِينَـةِ كَمَـا تَـأْرِزُ الحَيَّـةُ إِلَـى جُحْرِهَـا»[2].

وقـال ﷺ: «أُمِـرْتُ بِقَرْيَـةٍ تَـأْكُلُ الْقُـرَى يَقُولُـونَ: يَثْـرِبَ، وَهِـيَ الْمَدِينَـةُ، تَنْفِـي النَّـاسَ كَمَـا يَنْفِـي الْكِيـرُ خَبَـثَ الْحَدِيـدِ»[3].

٢- المُؤَاخَاة بين المهاجرين والأنصار:

قـال الله تعالـى: ﴿وَالَّذِيـنَ تَبَـوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَـانَ مِـنْ قَبْلِهِـمْ يُحِبُّـونَ مَـنْ هَاجَـرَ إِلَيْهِـمْ وَلَا يَجِـدُونَ فِي صُدُورِهِـمْ حَاجَـةً مِمَّـا أُوتُـوا وَيُؤْثِـرُونَ

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٢٤٠)، ولبعضه شاهد في الحديث السابق.
(٢) رواه البخاري (١٨٧٦)، ومسلم (١٤٧).
(٣) رواه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢).

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

لقد آخَى رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار؛ ليوجد التآلُف بينهم، ويرفع عن المهاجرين أثرَ الغُرْبَةِ، ويحصل لهم الارتفاق مع إخوانهم الأنصار.

ومِن ذلك: ما كان في دار أنس بن مالك ﷺ، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار[١]، آخى بينهم على المواساة، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بَدْر، فلما أنزل الله ﷻ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ردَّ التَّوَارُث إلى الرَّحِم دون عَقْد الأُخُوَّة[٢].

وقد كانت استجابةُ الأنصار لعقْد المؤاخاة من أيام الأنصار الخالدة، وكم للأنصار من أيّام؟!

قال أنس بن مالك ﷺ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المَدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ، فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ، بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ: «فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟» فَقَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»[٣].

(١) رواه البخاري (٦٠٨٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣).
(٣) رواه البخاري (٣٩٣٧).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالت الأنصار للنبيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لَا»، فَقَالَ: «تَكْفُونَا المَئُونَةَ وَنُشْرِكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا[1].

وعن أنس ﷺ قال: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ الله، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً فِي قَلِيلٍ، وَلَا أَحْسَنَ بَذْلًا مِن كَثِيرٍ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمَؤُونَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَأِ، حَتَّى لَقَدْ حَسِبْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ قَالَ: «لَا، مَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ، وَدَعَوْتُمُ اللهَ لَهُمْ»[2].

٣- موادعة اليهود في المدينة:

وَادَعَ رسولُ الله ﷺ مَن بالمدينة مِن اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا، أعطاهم فيه الأمانَ على النَّفْس والمال والعِرْض، ما أحبوا البقاء، وبهذا توفَّر الأمنُ الداخلي للمجتمع بكل طوائفه.

وكان اليهودُ بالمدينة ثلاثَ قبائل: بنو قَيْنُقاع، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيظَة، ولكنهم نقضوا العهد قبيلة بعد الأخرى، وحاربوه ﷺ، فَمَنَّ على بني قَيْنُقاع وأجلاهم، كما أجلى بني النَّضِير، ونزلت فيهم سورة الحشر، وقتل المقاتِلة من بني قُرَيظَة، وسَبَى ذريتهم؛ لأنهم غدروا في مَيْدَان المعركة، ونزلت فيهم سورة الأحزاب[3]. وهذا هو منهج الإسلام في معاملة غير المسلمين؛ لهم الأمن والأمان ما لم يحدث منهم ما يخل بالعهد والميثاق.

---

(١) رواه البخاري (٢٧١٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٣٠٧٥). قال ابن كثير ﷺ: «هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط الصحيحين» [البداية والنهاية (٣/ ٥٦٤)].

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٥).

وقد تضمنت الوثيقة بنودًا عِدَّة، منها:

١) أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين:

وفي هذا إلزام لليهود بدفع قسطٍ مِن نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة؛ لاشتراكهم في الوطن.

٢) أن يهود بني عَوْف أُمَّة مع المؤمنين:

وفي هذا تحديد للعلاقة مع المتهوِّدين مِن الأوس والخزرج، وقد نسبتهم الوثيقة إلى عشائرهم، وأقرَّت حِلْفَهم مع المسلمين.

٣) لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم:

وفي هذا إقرار لهم على دينهم الذي كانوا عليه، وعدم إكراههم على الدِّين الإسلامي.

٤) إلا مَن ظلم وأَثِم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته:

وفي هذا تحديد المسؤولية عن الجرائم، وحصرها على مرتكبيها.

٥) أنه لا تُجَار قريشٌ ولا مَن نَصَرَها:

وفي هذا بيان بأن الدولة الإسلامية في ذلك الوقت تُحَارِب قريشًا، فلا يُجَار أحدٌ منهم، أو مَن ناصرهم على المسلمين.

٦) وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه:

وفي هذا تحديد أن العقوبة لا تتجاوز مرتكبها إلى حلفائه، وهو مبدأ قصر العقوبة على مرتكبيها.

٧) وإن النصر للمظلوم:

في هذا محاربة للظلم وتقرير للعدل.

٨) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة:

وفي هذا إشاعة للأمن الداخلي، ومنع الحروب الأهلية.

٩) وأنه لا يخرج أحدٌ من اليهود إلا بإذن النَّبيِّ ﷺ:

وهذا القيد على تحركاتهم يستهدف منعهم من القيام بأي نشاطٍ عسكري خارج المدينة؛ لأنه يؤثِّر على أمنِ الدولة الإسلامية الاقتصادي، وسِلْمِهَا الاجتماعي[١].

٤- كتابة عهد وميثاق يُنظِّم علاقة المسلمين بعضهم ببعض:

وذلك لبيان المسؤليات، وتحديد الواجبات والحقوق على كل طَرَفٍ، وقد نَصَّت وثيقةُ العهد على أنها بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومَن تَبِعَهم فَلَحِقَ بهم وجَاهَد معهم، وأنهم أمة واحدة من دون الناس[٢].

وبهذا النَّص أَحَلَّ النَّبيُّ ﷺ رابطةَ الدِّين والعقيدة محل رابطة النَّسَب والقَبيلَة كجامعٍ عامٍّ، مع الإبقاء على العلاقات والروابط من النَّسَب، والحِلْف الذي لا يَتَعَارَض مع الرابطة الأساس (الإيمان والعقيدة).

وأشارت الوثيقة إلى التعاون على البرِّ والتقوى، ونصرة المظلوم، وإطعام الجائع، وأن تتعاقل كل قبيلة معاقلهم الأولى، وخُتِمَتْ بأن كل خلاف يقع بين أهل هذه الصحيفة فإن مرجعه إلى النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) انظر: خبر هذه البنود في منهج النَّبيِّ ﷺ في الدعوة من خلال السيرة النَّبوية، للدكتور محمَّد أمحزون (ص ٣٠٠ - ٣٠٢). وعن توثيقها انظر: «السيرة النَّبوية الصحيحة» لأكرم ضياء العمري (١/ ٢٧٤ - ٢٧٦).

(٢) انظر: نص الوثيقة عند أكرم العمري، المصدر السابق (١/ ٢٩٢- ٢٩٨).

٥- تأسيس جيشِ الدفاع:

وذلك ليحفظ للأمة هيبتها، ويصون كرامتها، ويسهم في نشر دين الله في الأرض.



دُرُوس وعِبَر:

١- محبة الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ فقد كانوا يخرجون كلَّ يوم ينظرون مقدمه ولا يعودون حتى يشتدَّ عليهم حرُّ الشمس؛ قال البراء ﷺ: «فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ الله ﷺ، حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ»[١].

٢- نزول رسول الله ﷺ في قُبَاء على كُلْثُوم بن الهِدْم؛ لأنه كبيرهم. وهذا مِن حُسْن الخُلُق واحترام ذوي الهيئات.

٣- حُسْن اعتذارِ رسولِ الله ﷺ من زعماء قبائل الأنصار الذين طَلَبوا منه النزول عندهم، فكان يقول: «خَلُّوا سبيلَها: فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ». أي: من الله ﷻ، وهي معجزة ظاهرة، ولا تصرف له مع أمر الله، وبهذا يرضَى الجميع.

٤- المبادرة إلى بناء المسجد؛ لأنه أهم المؤسسات الإسلامية؛ ففيه تقام الصلاة جماعة، ويؤدي وظيفة تعليمية، وتوجيهية، واجتماعية.

٥- المؤاخاة التي عَقَدَها رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، دليل على شمول الإسلام لأمور الدِّين والدنيا؛ ففيها: الاهتمام بعلاقة المسلم بأخيه المسلم، وكان غايتها كما يقول السُّهَيْلِي: "لِيُذْهِبَ عن المهاجرين وَحْشَةَ الغُرْبَةِ، ويؤنسهم مِن مفارقة الأهل والعشيرة، وَيَشُدَّ أَزْرَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ"[٢].

والمؤاخاة بين المؤمنين مِن أعظم النِّعَم التي يُذَكِّر بها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً

(١) رواه البخاري (٣٩٢٥).
(٢) الرَّوْضُ الأُنُف (٢/ ٢٥٢).

فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فنعمة الأخوة ونعمة الإيمان التي أنقذهم الله بها من النار، هي أعظم النِّعَم.

٦- في عقد المؤاخاة ظَهَر فَضْلُ الأنصار، وكَرَمُهم ومواساتهم لإخوانهم من المهاجرين، بل تعدوا ذلك إلى الإيثار ولو كان بهم خصاصة، فاستحقوا ثناءَ الله ومدحه لهم.

٧- في المُعَاهَدَة التي كَتَبَهَا النَّبيُّ ﷺ مع اليهود يظهر كمالَ التشريع الإسلامي الذي ينظِّم علاقةَ المسلم مع غير المسلمين الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه، كما نَظَّم علاقة المسلم بربه وعلاقته بإخوانه المسلمين.

٨- وفاء رسولِ الله ﷺ حيث التزم بالعهد، قابله خبث اليهود وسوء طويتهم وعداوتهم الشديدة للإسلام والمسلمين؛ فقد تتابعوا على الغَدْر ونقض العهد قبيلة بعد أخرى في زمنٍ وجيزٍ، وقد لاقوا ثمرةَ غَدْرِهم ونقضهم جَزَاءً وِفَاقًا لسوء عملهم[1].

٩- إخراج الرسول ﷺ لليهود كان بعد وقوع الغَدْر منهم، والإخلال بالعهد الذي وافقوا عليه.

(١) حول هذه الدروس، انظر: «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٣٣١- ٣٥٦).

أحداث السنة الأولى من الهجرة

١ - إسلام عبد الله بن سلاَم حِبْر اليهود:

قال عبد الله بنُ سلاَم ﷺ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبَلَه، قالوا: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ، فَجِئْتُ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ. وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ»(١).

فقد بَادَر حِبْر اليهود وعالمهم عبد الله بن سلام، بالمجيء إلى النَّبيِّ ﷺ أوَّل مَقْدَمِه المدينة، فقال: "إني سائلك عن ثلاث، لا يعلمهن إلَّا نبيٌّ، فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال ﷺ: «أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيل آنِفًا». قال: جبريل؟ قال: «نَعَمْ». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ ﷺ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله﴾ [البقرة: ٩٧]، «أَمَّا أَوَّلُ أشراط الساعة: فنَارٌ تَحْشُرُ الناسَ مِن المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهلُ الجنة: فزيادة كَبِد حُوتٍ، وإذا سَبَق ماءُ الرَّجُل ماءَ المرأة نَزَعَ الولدُ، وإذا سبق ماء المرأة نَزَعَتْ». قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وصححه الألباني.

أن تسألهم يبهتوني. فجاءت اليهود، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أيُّ رَجُلٍ عبد الله فيكم؟» . قالوا: خَيْرُنا وابنُ خَيْرِنا، وسَيِّدُنَا وابنُ سَيِّدِنَا. قال: «أرأيتم إن أَسْلَم عبدُ الله بن سَلَام». فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فقالوا: شَرُّنَا وابنُ شَرِّنَا. وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنتُ أَخَافُ يا رسولَ الله"[(١)].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

قال سعد بن أبي وَقاص رضي الله عنه: "نزلت في عبد الله بن سلام رضي الله عنه"[(٢)].

٢- موت أَسْعَد بن زُرَارَة نَقِيب بَنِي النَّجَّار:

مات أسعدُ بن زرارة رضي الله عنه في شوال بعد مَقْدَمِ النَّبيِّ ﷺ المدينةَ بسبعة أشهر[(٣)]، وتُوفِّي قَبْل أن يفرغ من بناء المسجد. وهو أول مَن جَمَّع بالمدينة في نَقِيع الخَضِمَات في هَزْمِ النَّبِيتِ[(٤)].

ولم يجعلْ النَّبيُّ ﷺ لبني النجار نَقِيبًا، وقال: "أنا نقيبكم"[(٥)]، فكان مِن فَضْل بني النجار الذي يعتدون به على قومهم؛ أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٠).
(٢) رواه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).
(٣) انظر: «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٨٧).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٧٧- ٣٧٨).
(٥) سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٧).
(٦) انظر: أسد الغابة (١/ ٨٧).

٣- مَوْلِد عبدِ الله بن الزُّبَيْر بن العَوَّام:

وُلِدَ عبدُ الله بن الزبير بن العوام الأَسَدِي في شَوَّال من السَّنَةِ الأولى من الهجرة، فكان أول مولود في الإسلام من المهاجرين، كما أن النُّعْمَان بن بَشِير أول مولود وُلِد في الإسلام للأنصار ﷺ[١].

قالت أسماء بنت أبي بكر ﷺ: "خَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ، فَأَتَيْتُ المَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بِقُبَاءٍ فَوَلَدْتُهُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ دَعَا لَهُ، وَبَرَّكَ عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ"[٢].

وقد فَرِح به المسلمون فَرَحًا عظيمًا، وضَجَّت المدينةُ بالتكبير يوم مولده؛ ذلك أن اليهود زعموا أنهم سحروا المهاجرين، حتى لا يُولَد لهم بعد هجرتهم وَلَدٌ، فأكذب الله اليهود فيما زعموا[٣].

٤- بناؤه ﷺ بعائشة ﷺ:

وبَنَى رسولُ الله ﷺ بعائشة في شوال من هذه السَّنَة.

قالت عائشة ﷺ: «تزوجني رسولُ الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأيُّ نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مِنِّي؟!»[٤].

وكانت تستحب زفافَ نسائِها في شوال؛ لأن العَرَب كانت تتشاءم من الزواج في شوال، فأرادت عائشة ﷺ أن تُبْطِلَ هذه العادة والخُرَافَة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٦٨).
(٢) رواه البخاري (٣٩٠٩).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٦٢- ٦٣).
(٤) رواه مسلم (١٤٢٣).

٥- زيادة ركعتين في صلاة الحضَر:

قال ابن جرير ﷺ: «وفي السنة الأولى من الهجرة: زيد في صلاة الحضر فيما قيل: ركعتان، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين، وذلك بعد مَقْدَم النَّبيِّ ﷺ بشهر، في ربيع الآخر لمُضِي اثنتي عَشْرَة ليلةً منه»[١].

وعن عائشة ﷺ قالت: «فُرِضَتِ الصَّلَاةُ أول ما فُرضتْ ركعتين، فأُقِرَّت صلاة السفر، وزِيد في صَلَاةِ الحَضَر»[٢].

٦- تشريع الأذان:

كانوا يجتمعون للصلاة في مواقيتها من غير نِدَاءٍ لها، فتفوت الصلاة بعضهم، ثم تشاوروا في ذلك، وذكروا أن اليهود والنصارى يَضْرِبون بالبوق والأجراس، وكَرِه رسولُ الله ﷺ ذلك ثم اتفقوا على أن يبعثوا مناديًا إذا حضرت الصلاة يدعو لها بقوله: "الصلاة، الصلاة"[٣]، ثم إن عبد الله بن زيد أُري الأذان في المنام فجاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذه رُؤْيَا حَقٌّ، قُمْ فَأَلْقِه إلى بلال فَلْيُؤَذِّن به، فإنه أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا». فَعَلَّمَه بلالًا وأخذ يؤذِّن به[٤]، وبهذا شُرِع الأذانُ الذي هو مِن أهمِّ شَعَائِرِ المسلمين الظاهرة.

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٠).
(٢) رواه البخاري (٣٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦٠٤).
(٤) رواه أبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

بعض التشريعات والأحداث في السَّنَة الثانية للهجرة

١ - تحويل القبلة:

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى الله وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٢- ١٤٥].

كان النبيُّ ﷺ يصلي إلى قِبْلَةِ بيتِ المَقْدِس، ويُحب أن يُصْرَفَ إلى الكَعْبَة، وقال لجبريل: «وَدِدْتُ أَنْ يَصْرِفَ الله وَجْهِي عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ»، فقال: "إنما أنا عَبْدٌ، فَادْعُ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ"[1]، فَجَعَلَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٤١) من طريق الواقدي.

السَّمَاءِ يَرْجُو ذَلِكَ، حتى أنزل الله عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ الآية [البقرة: ١٤٤]، وذلك بعد ستة عشر شهرًا من مَقْدَمِهِ المدينة، وقَبْل وَقْعَة بَدْرٍ بشهرين[(١)].

قال محمَّد بن كعب القرظي: "ما خَالَف نبيٌّ نبيًّا قط في قِبْلَة، ولا في سُنَّة؛ إلَّا أن رسولَ الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قَدِمَ المدينةَ ستة عشر شهرًا، ثم قرأ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... ﴾ الآية [الشورى: ١٣][(٢)].

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس، ثم تحويلها إلى الكعبة، حِكَمٌ عظيمة، ومحنة للمسلمين، والمشركين واليهود والمنافقين؛ فأما المسلمون فقالوا: "سمعنا وأطعنا": ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا... ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، وهم الذين هَدَى الله، ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون فقالوا: "كما رجع إلى قبلتنا -أي: الكعبة-؛ يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها؛ إلا أنه الحق".

وأمّا اليهود فقالوا: "خَالَف قِبْلَة الأنبياء قبله، ولو كان نبيًّا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء".

وأمّا المنافقون فقالوا: "ما يدري محمَّد أين يتوجَّه؛ إن كانت الأولى حقًّا فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق؛ فقد كان على باطل!".

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٦٦). وعند ابن إسحاق (ابن هشام) (٢/ ٢٢٧): أنها في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا. وهي موافقة لرواية مسلم في الصحيح عن البراء من طريق أبي الأحوص (٥٢٥).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٤٣).

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى الله﴾ [البقرة: ١٤٣]، وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليَرَى مَن يَتَّبِعُ الرسولَ منهم ممَّن يَنْقَلِب على عَقِبَيْه[١].

وكانت أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة في مسجده هي صلاة العصر، كما في حديث البَرَاء في الصحيح[٢]. ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلَّى أنها: الظهر[٣].

وخَرَج رَجُلٌ بعد أن صَلَّى مع رسولِ الله ﷺ إلى الكعبة فمرَّ على أهل مسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النَّبيِّ ﷺ قِبلَ مكة، فداروا كما هم قِبلَ البيت[٤].

وهذا المسجد هو مسجد القبلتين، فقد صُلِّيَت فيه صَلَاةٌ واحدةٌ إلى قبلتين مختلفتين. أما أهل قُبَاء فلم يبلغهم الخبر بتحويل القبلة إلا في صلاة الفجر من اليوم الثاني كما في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: "بينما الناس بقُبَاء في صلاة الصبح إذا جاءهم آتٍ، فقال: إن رسولَ الله ﷺ قد أُنْزِلَ عليه الليلة قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يستقبلَ الكَعْبَةَ فاسْتَقْبِلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة"[٥].

٢- فرض صيام شهر رمضان:

الصيام ركنٌ من أركان الإسلام، وهو مفروض على الأمم السابقة

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٦٦ - ٦٧).
(٢) رواه البخاري (٤٠، ٣٩٩).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٩٣٧).
(٤) رواه البخاري (٤٠، ٣٩٩)، ومسلم (٥٢٥).
(٥) رواه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٤٦).

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكان تشريع الصيام جاء متدرجًا؛ فأول ما قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ المدينةَ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فَرَضَ عليه صيامَ شهر رمضان في شعبان من السَّنَة الثانية من الهجرة، وكان صيامُه أول الأمر على التخيير بين الصيام والإطعام؛ مَن شاء صام، ومَن شاء أطعم مسكينًا كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ فأثبت وجوبَ صِيَامِهِ على المُقيم الصحيح ورخَّص فيه للمريض والمسافر على أن يصوم من أيام أُخَر، وأثبت الإطعامَ للكبير الذي لا يستطيع الصيام؛ فهذان حولان -أي: حالتان- وكانوا يأكلون ويشربون، ويأتون زوجاتهم ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا عن ذلك حتى تغربَ شمس اليوم الثاني، ثم أنزل الله التخفيف في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ... الآية﴾ [البقرة: ١٨٧]، وبهذا استقر تشريعُ صِيامِ شهر رمضان على اليسر ورفع الحرج. والحمد لله رب العالمين[1].

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٥٢). وعن تدرج تشريع الصيام، انظر: مسند الإمام أحمد (٢٢١٢٤)، وسنن أبي داود (٥٠٦).

٣- فرض الزكاة ذات الأنصبة:

الزكاة هي: إخراجُ جزءٍ محددٍ مِن المال، وَفْق شروط وضوابط، وصرفه لأهل الزكاة، وهم ثمانية أصناف ذَكَرَهم الله في كتابه، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، فالزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي مِن شرائع الأنبياء السابقين، وورد الأمر بها في العهد المكي، لكن من غير تحديد لمقدار ما يُخْرَج، ولا الأموال التي تُخْرَج منها الزكاةُ، وبعد الهجرة في السنة الثانية في شهر رمضان شرعت الزكاةُ في الأموال بأنصبتها وتفصيلاتها، وكذا زكاة الفطر على الأبدان[١].

٤- وَفَاة رُقَيَّة بنت النَّبيِّ ﷺ وزواج عثمان بأختها أمِّ كُلْثُوم:

وكان ذلك في شهر رمضان، وقد خَلَّف النَّبيُّ ﷺ عثمانَ لتمريضها، ولم يخرج معه إلى بَدْرٍ، وقد اعتبر رسولُ الله ﷺ عُثْمَان من أهل بدر، وضرب له بسهمه في غنائم بدر، وأجره عند الله يوم القيامة. وبعد وفاتها زَوَّجَه النَّبيُّ ﷺ بأختها أمِّ كُلْثُوم.

٥- زواج علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النَّبيِّ ﷺ:

كان ذلك في أواخِر السنة الثانية بعد وقعة بَدْر؛ لما ورد في الصحيحين[٢] من إعطاء النَّبيِّ ﷺ لعلي شَارِفًا (أي: جَمَلاً) من الغنيمة، وآخر من الخُمْس، وأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يبني بفاطمة رضي الله عنها، وكان يرحل الشارفين ويأتي عليهما بالإِذْخِرِ، ليبيعه ويجمع نفقة الزواج، ففي سنن

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٥٤، ٣١٢).
(٢) رواه البخاري (٤٠٠٣)، ومسلم (١٩٧٩).

أبي داود[1] عن ابن عباس ﷺ قال: لما تزوج علي فاطمة ﷺ قال له رسول الله ﷺ: «أَعْطِها شيئًا»، قال: ما عندي شيء. قال: «أين درْعُكَ الحُطَمِيةُ؟» فأعطاها دِرْعَه.

ورَوَى البيهقي في الدلائل[2] وأحمد في المسند[3] عن علي ﷺ: «أن رسولَ الله ﷺ جَهَّزَ فاطمةَ في خَمِيلٍ، وَقِرْبَةٍ، وَوِسَادَةِ أَدَمٍ حَشْوُهَا إِذْخِرٌ».

قال ابن إسحاق ﷺ: «فَوَلَدَت فاطمةُ لعلي حَسَنًا وحُسَينًا ومُحْسِنًا -مات صغيرًا- وأم كلثوم، وزينب»[4].

(١) رواه أبو داود (٢١٢٥)، وصححه الألباني.
(٢) دلائل النبوة (٣/ ١٦٢).
(٣) المسند (٧١٥)، وإسناده صحيح.
(٤) المغازي (ص ٢٣١).

دُرُوس وعِبَر:

١- التَّدَرُّج في التشريع مِن يُسر الشريعة ورفع الحرج فيها، فكانت الصلاة ركعتين طرفي النهار، ثم صارت خمس صلوات بعد الإسراء والمعراج، ثم بعد الهجرة إلى المدينة أُتمت صلاةُ المقيم أربعَ ركعات: صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة العشاء، وثلاث ركعات صلاة المغرب؛ لأنها بمثابة الوتر لصلاة النهار، وبقيت الفجر كما هي.

٢- قال الإمام النووي رحمه الله: "ذكر العلماء في حكمة الأذان للصلاة أربعة أشياء: إظهار شعائر الإسلام، وكلمة التوحيد، والإعلام بدخول الوقت، وبمكانها، والدعاء إلى الجماعة"(١).

٣- عَظَمَة الأَذَان وفَضْلُه؛ لما اشْتَمَل عليه من مسائل التوحيد ونفي الشرك، وإثبات الرِّسَالَة للنبي محمدٍ ﷺ، والدعوة إلى الصلاة، وشهود الجماعة والفلاح؛ ولذا شُرِع لمَن سَمِع المؤذن أن يقول كما يقول، ثم يصلي على النَّبيِّ ﷺ، ويسأل الله له الوسيلة وهي درجة عالية في الجنة، ومَن فعل ذلك حَلَّت له الشفاعة(٢). والمؤذن يُغْفَر له مَدَى صَوْتِه، ويشهد له كلُّ رَطْب ويَابِس(٣).

٤- سرعةُ مُبَادَرَةِ الصحابة إلى تنفيذ أوامر الله ﷻ ورسوله ﷺ ظاهرة في تحويل القِبْلَة، حيث استداروا وهم في صلاتهم إلى القِبْلَة الجديدة، وأكملوا الصلاة ولم يبطلوا السابقة، وهذا مِن فقههم رضي الله عنهم، وفيه دليل على أن العمل بالناسخ لا يَلْزَم مِن تشريعه، وإنما مِن بلوغه

(١) شرح صحيح مسلم (٤/ ٧٧).
(٢) رواه مسلم (٣٨٤).
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني (٤٨٤).

للمكلفين؛ فإن أهل قُبَاء لم يبلغهم إلا في صلاة الفجر، ولم يؤمروا بإعادة.

٥- في تشريع الصيام، وتوقيت الإمساك والإفطار بكل دقة، تربية للنفس وضبطها للتغلب على سلطان الشهوات، وهو مظهر مِن مظاهر الانضباط والنظام، ككثيرٍ مِن شرائع الإسلام.

٦- في الصيام تعويد على الرقابة الذاتية على النفس؛ ولذلك يُسمِّي العلماءُ الصيامَ عبادة السر، وقد جاء في الحديث القدسي: «الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، فَالصَّوْمُ جُنَّةٌ»(١).

٧- الزكاة إعانة للضعفاء، وكفاية لأصحاب الحاجات، وتخلص من الشُّحِّ، وتعويد على بَذْل المعروف؛ فهي ذات أهداف أخلاقية واجتماعية، وهي تعبير عملي عن ترابط المجتمع الإسلامي، والشعور بالأخوة والتكافل، والتعاون، وهي تكفِّر الخطايا، وتدفع البلايا، وتوجب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ... ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦] (٢).

٨- في مقدار مهر فاطمة بنت النَّبيِّ ﷺ وسيدة نساء العالمين، وقلة جهازها دَرْسٌ بليغٌ في التَّوَاضُع والبَسَاطَة، والاقتصاد في النفقة، والابتعاد عن مظاهر الفخر والخيلاء، والمغالاة التي وقع فيها كثيرٌ مِن الناس في تكاليف الزواج وحفلاته.

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، وأحمد واللفظ له (٩١١٢).
(٢) انظر: «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٣٨٦).

الفصل الرابع

الدفاع النبوي (المرحلة الأولى)

الدفاع النبوي (المرحلة الأولى)

السياسة النَّبَوِيَّة تجاه قريش:

لقد جاء تشريع الدفاع عن المسلمين بعد الهجرة متزامنًا مع استكمال المصطفى ﷺ بناء الجبهة الداخلية، واسْتِقْلَال الأمة عن عدوها بأرضٍ وسلطانٍ؛ لذا فقد كان من الطبيعي أن يسعى المسلمون إلى الانتصار ممَّن ظلمهم، وذلك برفع الجَوْر والظلم الذي أنزله كفارُ قريش بالمسلمين، والمتمثِّل بمحاربة الدعوة، ومُصَادَرَة الأموال والممتلكات، والتَّهْجِير مِن أُمِّ القُرَى.

وقد عَمِل الرسولُ ﷺ على رفع الظلم الواقع على أمة الإسلام؛ استجابة لقول الحقِّ ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وهي أول آية نزلت في الإِذْنِ بالدفع الذي كان ممنوعًا في العهد المَكِّي.

وقد رَكَّز رسولُ الله ﷺ عمله على ضرب سببين عظيمين من أسباب قوة قريش، هما: الرخاء الاقتصادي، والأمن الاجتماعي، وهما اللذان امْتَنَّ الله بهما على قريش، فلم يعبدوا اللهَ ربَّ البيتِ ويشكروه على نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤].

فالرخاء الاقتصادي الذي أَنْعَمَ الله به على قريش زَمَن البَعْثَة

النَّبويـة المباركـة، والأمـن الـذي تَمَيَّـز بـه أهـلُ الحـرم، لـم يُقَابَـلَ بالشـكر للمنعـم، بـل قُوبِـل بالكفـر والجبـروت مـن قِبَـل أثريـاء قريـش الذيـن كَذَّبـوا رسـولَ الله ﷺ وحاربـوا دعوتـه[1].

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

مِـن أجـلِّ ذلـك؛ نجـد أن رسـولَ الله ﷺ قـد أخـذ بالأسـباب السياسـية، والاقتصاديـة، والعسـكرية؛ لإضْعَـافِ قريـش وإزاحتهـا عـن طريـق الدعـوة، وقـد شَـرَع ﷺ فـي تنفيـذ ذلك باتخـاذِ عددٍ مِـن الخطـوات والمواقـف، منها:

١- السرايا والغزوات:

بـدأ رسـولُ الله ﷺ منـذ اسْـتِقْرَارِه بالمدينـةِ إعـدادَ السـرايا مِـن أصحابِـهِ وقيـادةِ الغَـزَوَات بنفسـهِ الشـريفةِ؛ وذلـك للانتصـار لهـذا الدِّيـن ونشـره، وإعـداد أصحابـه للمواجهـة الكبـرى مـع العـدو، إذا لـم يسـتجب للدعـوة واسـتمر فـي عِنَـادِه.

٢- عقد المعاهدات:

لقـد اسـتطاعت قريـشٌ تأميـنَ طُـرُق قوافلهـا التُّجَاريَّـة عـن طريـق عَقْـدِ الإيـلَاف والتَّحَالُـف[2]؛ لـذا فقـد حَـرَصَ رسـولُ الله ﷺ علـى تفكيـك ذلـك الإيـلاف، وخاصـةً مـع القبائـل الحجازيـة القَاطِنَـة غَـرْب المدينـةِ والتـي تمر بأراضيهـا أضخـم قوافل قريـش التجارية قاطبـة، والمُتَّجِهَة إلى بلاد الشـام[3].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص ٨٢٧)، وانظر: «المواجهة الاقتصادية بين المسلمين وقريش» لعبد الرحمن السنيدي (ص ٣٧٥).

(٢) الإيلاف: اتفاقيات أمان أقامتها قريش مع بعض القبائل التي تمرُّ قوافلها التجارية بأراضي تلك القبائل، في مقابل أن يقوم تُجَّار قريش بحمل بضائعها وتسويقها، ثم يردون إليهم رأس مالهم وربحهم. انظر: «المرجع السابق» لعبد الرحمن السنيدي (ص ٣٧٤).

(٣) «دولة الرسول في المدينة» لصالح أحمد العلي (٢١٩- ٢٢١).

وبعد جهود مُضْنِية تَمكَّن المسلمون مِن مهادنة وتحييد العديد مِن القبائل الحجازية التي تمر قوافل قريش بأراضيها مثل جُهينَة، وبَنِي ضَمْرَةَ، وبني مُدْلِجٍ، وغِفَار، وأَسْلَم، وذلك عن طريق المعاهدات التي نظَّمَت العلاقة بين المسلمين وتلك القَبَائِل[1].

هذا وقد أَسْهَم قُرْب بعض هذه القبائل مِن المدينة التي هي سوقهم ومعاشهم إلى السعي لأجل موادعة الدولة الإسلامية الناشئة[2].

وهكذا نجدُّ أن المسلمين قد استثمروا عامل المصالح المشتركة في تحييد تلك القبائل التي وَجَدَت أن مِن مصلحتها الوقوف على الحياد وعدم الانحياز إلى المسلمين أو قريش في المرحلة الراهنة، وهذا بحدِّ ذاته مكسب عظيم للمسلمين.

أهداف السرايا والغزوات:

السرايا التي أرسلها النَّبيُّ ﷺ والغزوات التي قادها كانت ذات أهدافٍ مُحَدَّدَة سَعَى المسلمون إلى تحقيقها، ومنها:

١- الاستجابة لقول الحق ﷻ في الانتصار ممَّن ظلمهم وصادر أموالهم، وأخرجهم من ديارهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٥)، «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٧٤، ٢/ ٨)، «مهاجري الحجاز» لحامد خليفة (ص ٩٤ - ٩٧)، «السيرة النَّبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٣٤٥).

(٢) «السيرة النَّبوية» لعلي الصلابي (١/ ٦٩٠).

٢- رَفْعُ الذُّلِ والضَّعْفِ الذي أشاعته قريشٌ عن المسلمين قَبْل الهجرة، وما ينتج عن ذلك مِن رَدْع المُتَرَبِّصِين بالدعوة في موطنها الجديد.

٣- الدعوة إلى الله ونشر دينه.

٤- حماية الدعوة ممَّن عاداها وحاربها حتى تبلغ جميع الناس، ومِن ثَمَّ تكون لهم الحرية في تحديد موقفهم منها[١].

٥ - ضرب الاقتصاد القُرَشِي المُسَخَّر لِحَرْب الدَّعْوَة، وذلك مِن خلال التَّعَرُّض لقوافل قريش التجارية في كلِّ مكان[٢].

٦- إقامة التحالفات السياسية والتجارية مع القبائل الحجازية التي تمر قوافل قريش بديارها، أو تحييدها على أقل تقدير[٣].

٧ - رفع جاهزية الفرد المسلم، وجعله في حالة استعداد دَائِم، لتفويت الفرصة أمام المتربصين بالدعوة، وكذلك اكتشاف طاقات الصحابة؛ لاستثمارها، والاستفادة منها على أكمل وجهٍ[٤].

(١) «فقه الغزوات» لمحمود العيساوي (ص ٦٢).
(٢) «السرايا والبعوث النَّبوية» لبريك العمري (ص ٧٥).
(٣) المرجع السابق (ص ٧٦).
(٤) «السيرة النَّبوية» لمحمد أبو فارس (ص ٣٣١).

السَّرَايَا والغَزَوَات قبل غزوة بدر

أولًا: السرايا الأولى:

١- سَرِيَّةُ حَمْزَةَ بن عبد المُطَّلِب ﵁:

في شهر رمضان مِن السَّنَة الأولى من الهجرة النَّبوية المباركة خَرَجَتْ أول سرايا رسولِ الله ﷺ بقيادة حمزة بن عبد المطلب ﵁، في لواء[(١)] أبيض، عقده له رسولُ الله ﷺ، ومعه ثلاثون صحابيًّا من المهاجرين، مُتَّجِهين إلى ناحية البحر الأحمر من أجل اعتراض قافلة قريش القادمة من الشام بقيادة أبي جهل، ويحرسها قُرَابَة ثلاثمائة رجل؛ فأدركوا القافلة عند العِيصِ[(٢)] مِن بِلاَد جُهَيْنَة، ومَنَعوها مِن التَّقَدُّم، فَتَأَهَّب الفَرِيقَان للمبارزة غير أن تدخل أحد زعماء جهينة الذي كان حَلِيفًا للفريقين وهو مَجْدِيُّ بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِيُّ، حَالَ دون المُوَاجَهَة، وانْصَرَفَ الجميع دون قِتَالٍ[(٣)].

٢- سَرِيَّة عُبَيْدَة بن الحَارِث ﵁:

في شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة بَعَثَ رسولُ الله ﷺ عُبَيْدَة بن الحَارِث ﵁ في ستين من المهاجرين إلى رَابِغ؛ لاعتراض عِير قريش، فلقيَ أبا سفيان وكان معه مائتا رجل، فكان بينهم الرمي بالسهام ولَمْ يَسُلُّوا

(١) اللِّوَاء: قطعة من القماش يكون مع قيادة الجيش أو السَّرِيَّة، وهو واحد لا يتعدد بخلاف الرايات.

(٢) العِيص: بَلْدَة تقع شرق مدينة يَنْبُع.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٣)، «الطبقات» لابن سعد (٦/ ٢).

السُّيُوفَ، وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ في هذه السرية وهو أول مَن رَمَى بسَهْمٍ في الإسلام، وتُعَدُّ هذه المواجهة: أول اصْطِدَام عَسْكَرِى بين الطَّرَفَيْن، لكنها كانت مواجهة محدودة اقْتَصَرَت على السِّهَام دون السُّيُوف، ثم انصرف الفريقان، غير أن اثنين من المسلمين كانا في قافلة قريش، هما: عُتْبَة بن غَزْوَان، والمِقْدَاد بن الأَسْوَد ﷺ قد تمكَّنَا من الفِرَار إلى مُعَسْكَر المسلمين وعادا معهم إلى المدينة[1].

٣- سَرِيَّة سَعْد بن أبي وَقَّاص ﷺ:

خَرَجَتْ في شهر ذي القَعْدَةِ مِن السَّنَة الأولى من الهجرة، وكان هَدَفُها اللَّحَاق بقافلة لقريش عَائِدَة مِن الشَّام عند مَاء الخَرَّارِ بالجُحْفَة[2]، لكن القَافِلَة أَفْلَتَتْ[3]، ورَجَعَ سَعْدٌ ولَمْ يَلْقَ كَيْدًا.

٤- سرية عبد الله بن جَحْش الأسدي ﷺ:

في شهر رجب من السَّنَة الثانية من الهجرة بعَثَ رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بن جَحْش ﷺ قِبَلَ مكة ومعه ثمانية من المهاجرين يرصدون أخبار قريش، وكَتَبَ معه رسول الله ﷺ كتابًا، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، فلما سار يومين عن المدينة تجاه مكة فَتَحَ الكتاب، فإذا فيه: أمر مِن رسولِ الله ﷺ بالتوجُّه إلى نَخْلَة[4] بين مَكَّةَ والطَّائِف، ليرصد أخبار قريش، ولا يستكره أحدًا من أصحابه على مرافقته في تلك المهمة، فلما عَلِم أفرادُ السَّرِيَّة بذلك قالوا: "سمعًا وطاعة

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٠)، «الطبقات» لابن سعد (٧/ ٢).
(٢) الجُحْفَة: تقع شرق مدينة رَابِغ، وهي أحد مواقيت الحج.
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٧)، «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٧).
(٤) نخلة: هما نخلتان شرق مكة، نخلة الشامية، ونخلة اليمانية، وطريق الطائف يمر عبر نخلة اليمانية، وهي المقصودة هنا.

لرسول ﷺ"، ومَضَوا مع عبدِ الله بن جَحْش حتى وَصَلوا وادي نَخْلَة، فَرَصَدُوا عِيرًا لقريش، فتشاور عبد الله مع أصحابه، وقالوا: "نحن في آخر يوم مِن رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انْتَهَكْنَا الشهرَ الحَرَام، وإن تركناهم الليلة دَخَلوا الحَرَم"، لكنهم عَزَموا على مهاجمة العير، فَتَمَّ لهم ذلك، وهجموا على المشركين فقتلوا أحدَهم، وأسروا اثنين، وأفلت الرابع، ثم قَدِموا بالعير والأسيرين على رسولِ الله ﷺ، فأنكر عليهم ما قاموا به في الشهر الحرام، ولما عَلِمت قريشٌ بذلك اسْتَغَلَّت الحَدَث، وقالت: "إن محمدًا قد سَفَك الدَّمَ في الشهر الحرام، وأخذ فيه المالَ، وأَسَرَ فيه الرجالَ، واسْتَحَلَّ الشهر الحَرَام".

لكنَّ الله ﷻ أَنْزَل في هذا الشأن قُرْآنًا يُتْلَى إلى يوم القيامة، فيه رفع للحرج عن رسولِ الله ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين، وتَضَمَّنَت الآيةُ التعيير والتوبيخ لقريشٍ التي تَتَبَجَّح برِعَايَةِ الحُرُمَات![1]، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: "هذه الآية نازلة بسبب ما حَصَل لسرية عبد الله بن جَحْش، وعَيَّرهم المشركون بالقِتَال في الأشهر الحرم، وكانوا في تعييرهم ظالمين؛ إذ فيهم مِن القَبَائِح، ما بعضه

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٧ - ٤٠٠).

أعظم مما عَيَّروا به المسلمين... ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتِلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارًا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير... وهذا الوصف عام لكل الكفار؛ لا يزالون يُقَاتِلون غَيْرَهم -أي: مِن المسلمين- حتى يردوهم عن دِينِهم، وخُصُوصًا أهل الكتاب مِن اليهود والنصارى؛ ألَّفوا الجمعيات، ونَشَروا الدُّعَاة وبَثُّوا الأطباء، وبنوا المدارس؛ لجذب الأمم لدينهم، وإدخالهم عليهم كل ما يمكنهم مِن الشُّبَه التي تُشَكِّكهم في دينهم، ولكن المرجو من الله تعالى الذي مَنَّ على المؤمنين بالإسلام... أن يخذلَ كلَّ مَن أراد أن يطفئ نورَه... وتكون هذه الآية صَادِقَة على هؤلاء الموجودين من الكُفَّار، كما صَدَقَت على مَن قَبْلهم"[1].

ثانيًا: الغزوات:

١- غَزْوَة وَدَّان[2] (الأَبْوَاء):

هي أوَّلُ غَزْوَة يقودها رسولُ الله ﷺ بنفسه، وقد كانت في شهر صَفَر من السنة الثانية من الهجرة، وحَمَل لواءَه عَمُّه حَمْزةُ بن عبد المُطَّلِب رضي الله عنه، واستخلف على المدينة سعدَ بن عُبَادة رضي الله عنه، وخَرَج في جَمْعٍ مِن المهاجرين يطلب قافلة لقريش، لكن القافلة تمكَّنت من الإفْلَات، وفي هذه الغزوة وَادَع رسولُ الله ﷺ مَخْشِيَّ بْنُ عَمْرٍو الضَّمْرِيُّ، سيد بني ضَمْرَة، ثم عاد إلى المدينة[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٠).
(٢) ودَّان: اسم للوادي الذي تقع فيه الأبْوَاء، وهي اليوم بلدة عامرة تقع شمال رَابِغ.
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٠)، «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٨).

٢- غَزْوَةُ بُوَاط[١]:

في شهر ربيع الأول من السَّنة الثانية من الهجرة خَرَجَ رسولُ الله ﷺ غازيًا إلى بُوَاط، يَعْتَرِض قَافِلةً لقريش، واستخلف على المدينة سعدَ بن مُعَاذ رضي الله عنه، وحمل لواءَه سعدُ بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه، لكن القافلة أَفْلَتَتْ، فعاد ﷺ إلى المدينة[٢].

٣- غَزْوَة بَدْرٍ الأُولَى:

خَرَج رسولُ الله ﷺ في طَلَب كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ الفِهْرِي الذي أَغَار على سَرْح المدينة، فاستخلف على المدينة زَيْدَ بنَ حَارِثَة رضي الله عنه، وحمل لواءَه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وتمت مطاردة كُرْز الفِهْرِي حتى وَادِي سَفَوَان قُرْب بَدْر، لكنه تَمكَّن مِن الفِرَار، فعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة[٣].

٤- غزوة العُشَيْرَة[٤]:

في جمادى الآخرة من السنة الثانية من الهجرة النَّبويةِ، خَرَج رسولُ الله ﷺ في طَلَب قافلة لقريش ذاهبة إلى الشام، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه، وحمل لواءَه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في خمسين ومائة. ويقال: مائتين من المهاجرين. فَبَلَغ العُشَيْرَة بناحية يَنْبُع فوجد القافلة قد فاتته، وفي هذه الغزوة وَادَع عليه السلام بَنِي

(١) بُوَاط: موقع ديار جُهَيْنَة بناحية رضوى شرق ينبع. انظر: «المعالم الأثيرة» لمحمد شُرَّاب (ص ٥٤).

(٢) «المغازي» للواقدي (١/ ٧)، «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٨).

(٣) «المغازي» للواقدي (١/ ٧، ١٢)، «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٩).

(٤) العُشَيْرَة: تصغير عَشَرَة. ويقال: ذو العشيرة، وهي قرية في أسفل يَنْبُع النَّخْل مِن جهة البَحْر، وقد كانت فيما مَضَى محطة للحاج المصري. «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» لمحمد شُرَّاب (ص ١٩٢).

مُدْلِجٍ وحلفائهم، ثم رَجَع إلى المدينة. وقد كانت تلك القافلة من أعظم قوافل قريش، وهي التي كانت بسببها غزوة بَدْر الكبرى عندما عادت من الشام[1].



(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٩)، «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٦٦).

دُرُوس وعِبَر:

١- لقد كانت السَّرَايَا والغَزَوَات السَّابِقَة مُوَجَّهَة لضَرْب القَوَافِل التُّجَارِيَّة القُرَشِيَّة دون غيرها من القَبَائِل؛ لأن قُرَيْشًا قد كَفَرَتْ بربِّها، وكَذَّبَتْ رسولَه ﷺ، وأخرجته ومَن معه مِن المسلمين مِن مَكَّةَ، واستولت على دُورِهم وأموالهم، ووَقَفَتْ في سبيل الدعوة، فهم في حالة حرب مع المسلمين؛ لذا فقد كان من الحكمة ضرب الاقتصاد القرشي الذي ازداد نموًّا بعد الاستيلاء على أموال وممتلكات المسلمين في مَكَّةَ، وفي ذلك إضعاف لقوةٍ ظالمةٍ تقف في سبيل الدعوة، وإعْلَاءُ كلمة الله، والذَّبُّ عن المِلَّة[١].

٢- جواز الانصراف عن العدو من غير قِتَال إذا ضَعُفَ المسلمون عن قِتَال عَدُوِّهِم، أو لمصلحةٍ يَرَاها أميرُهم، كما حَصَل في سَرِيَّة حَمْزَةَ بن عبد المطلب رضي الله عنه[٢].

٣- وُجُوبُ اتِّخَاذ أميرٍ للسرية قَلَّت أو كَثُرَت، وكذلك جَوَاز اتخاذ الألوية في الحَرْب[٣].

٤- أُسْنِدت قيادة معظم السرايا السابقة إلى أهلِ بيتِ رسولِ الله ﷺ وأقاربه، ليكونوا أوَّلَ مَن يُضَحِّي في سبيل الدعوة، حتى لا يُقال: إن رسولَ الله ﷺ ضَنَّ بأهل بيتِهِ عن القَتْل وضَحَّى بغيرهم مِن الناس، وليعطي بذلك القُدْوَة الحَسَنَة للدُّعَاة في كلِّ زَمَان ومَكَان[٤].

٥- اقتصرت السَّرَايَا والغزوات السابقة على المهاجرين دون

(١) «فقه السرايا» لمحمود العيساوي (ص ٦٣).
(٢) «فقه السرايا» لمحمود العيساوي (ص ٦٣).
(٣) المرجع السابق (ص ٦٠- ٦٢).
(٤) «السرايا والبعوث النبوية» لبريك العمري (ص ٨٢).

الأنصار من أجل إحياء قضيتهم في نفوسهم، وفي نفوس غيرهم؛ لأن المهاجرين أصحاب حق سَلِيب، أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهم ظُلمًا وعُدْوَانًا، وهم أَوْلى الناس بالانتصار ممَّن ظَلَمَهم[1]، قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]؛ ولأن البيعةَ مع الأنْصَارِ مُخْتَصَّة بالحِمَايَة في المدينة.

٦- حَرَصَ الرسولُ ﷺ على اكْتِشَاف قُدُرَات أصحابِهِ: العسكرية، والسياسية، والإدارية، مِن خلال تنويعه في اختيار قادة السَّرَايَا، ومِن خلال تَعَدُّد نُوَّابِهِ؛ الذين يستخلفهم على المدينة عند خروجه غَازِيًا ﷺ.

٧- جُوَاز قِتَال الكفار المُحَارِبين في الأَشْهُر الحُرُم، وهذا ما دَلَّت عليه سَرِيَّة عبدِ الله بن جَحْش رضي الله عنه، وما تلاها من غزوات رسولِ الله ﷺ، لكن تعظيم حُرْمَة تلك الأشهر باقٍ، وإن أُبِيحَ فيها القِتَال[2].

(١) «السيرة النبوية دراسة تحليلية» لمحمد عبد القادر أبو فارس (ص ٣٢٧).

(٢) «فقه الغزوات» لمحمود العيساوي (ص ٧٠)، «السرايا والبعوث النبوية» لبريك العمري (ص ١٠٦).

غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى

كانت في شهر رمضان من السَّنَة الثانية من الهجرة، حيث جاءت الأخبارُ إلى رسول الله ﷺ، أن قافلةَ قريش التي أفلتت من المسلمين في غزوة العُشَيْرَة -وهي ذاهبة إلى الشام- قد بَدَأَتْ رِحْلَةَ العودةِ إلى مَكَّةَ بقيادة أبي سفيان، فَنَدَب رسولُ الله ﷺ مَن كان حَاضِرًا مِن أصحابِهِ للخُرُوج لِتَلَقِّي القافلة، وقال ﷺ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ؛ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا»[(١)].

كان أبو سفيان لما اقترب مِن مناطق نفوذ المسلمين غربي المدينة، جَعَلَ يتحسس الأخبار حتى عَلِم بخُرُوج المسلمين لأخذ القافلة، فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِي، وبَعَثَه إلى مكة يستنفِر قريشًا لنَجْدَة القافلة، فَتَجَهَّزَت قريشٌ، وخرجت لمُلَاقَاة المسلمين، وهي تقول: "أَيَظُنُّ مُحَمَّدٌ وأصحابُه، أَنْ تَكُونَ كَعِيرِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ[(٢)]؟! كَلَّا وَالله ليعلَمنَّ غَيْرَ ذَلِكَ"[(٣)].

لقد خَرَج رسولُ الله ﷺ من المدينة يريد قافلة قريش، ومعه ثلاثمائة وتسعة عشر رَجُلًا من أصحابه رضي الله عنهم، كما ثَبَت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رَجُلًا...»[(٤)].

لقد كان هَدَفُ المسلمين هو قافلة قريش، لكن الله ﷻ أَرَادَ لهم أَمْرًا آخَر؛ أراد لهم التَّمْكِين في الأرض، والانتصار ممَّن حَادَّ اللهَ

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠١).
(٢) هو الذي قَتَلَه المسلمون في سَرِيَّة عبدِ الله بن جَحْش رضي الله عنه إلى وادي نَخْلَة.
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٣).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٤).

ورسولَه، فعن كَعْب بن مَالِك ﷺ قال: "... إنما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ يريد عِير قريش حتى جَمَعَ الله بينهم وبين عَدُوِّهِم على غير مِيعَاد"[1]، قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

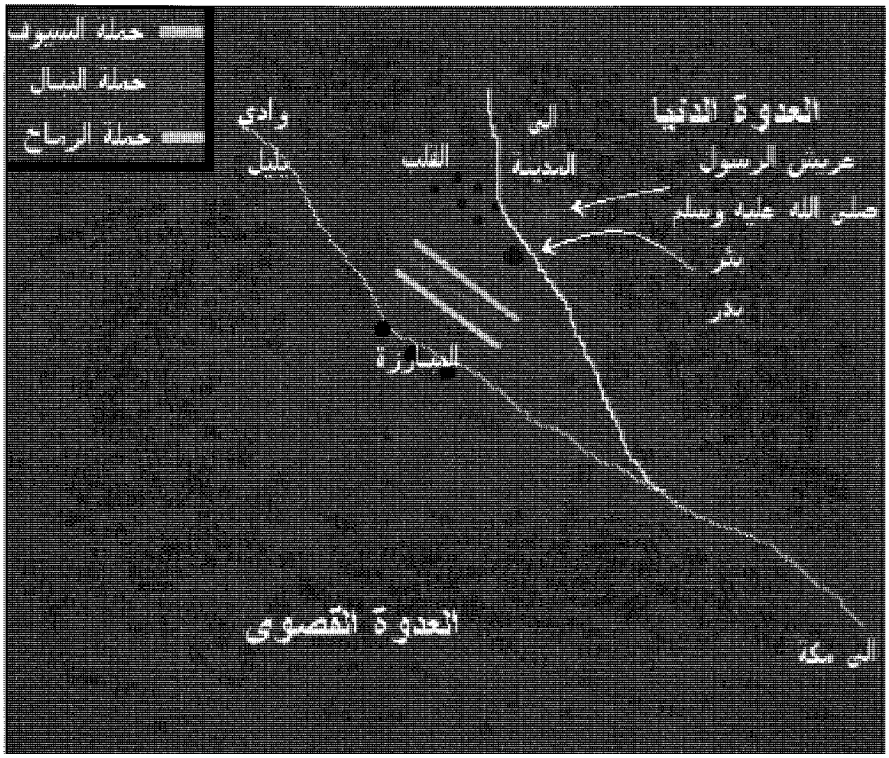
وعند عَلِمَ رسولُ الله ﷺ فَوَات عِير قريش، أراد الاستيثاق مِن أمرِ الأنصار الذين كانوا قد وَعَدُوه في بَيْعَة العَقَبَةِ أن يَنْصُروه دَاخِل المدينة، فكان يقول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أيها النَّاس»، وهو يريد الأَنْصَار، فقال له سَعْدُ بن مُعَاذ ﷺ: «وَالله لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله؟» قال: «أَجَلْ»، قال: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَه لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تخلَّف مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيك مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فسِر بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله".

فسُر رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، ونشَّطه ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَالله لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ»[2].

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٢٨٥).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٨)، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ١٤٢)،

فَسَارَ رسولُ الله ﷺ وأصحابه إلى بَدْرٍ، وهناك عَلِمَ أن عِيرَ قُرَيشٍ قد نَجَتْ، وأن جيشهم قد نزل ببَدرٍ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].



خريطة موقعة بدر

وعن ليلة السابع عشر من رمضان "وهي ليلة بَدْر" يحدِّثُنا عليٌّ رضي الله عنه فيقول: "لقد رأيتُنا يوم بَدْر، وما مِنَّا إلا نَائِم؛ إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شَجَرَة ويدعو حتى أَصْبَحَ، فلما طَلَعَ الفَجْرُ نَادَى: الصلاة

وعنده: أن القَائِلَ: سَعْدُ بن عُبَادَة.

عِبَاد الله، فجاء النَّاسُ فَصَلَّى بِنَا رسولُ الله ﷺ وحَرَّضَ على القِتَال»[1].

ومِن دُعَاءِ رسولِ الله ﷺ يوم بَدْرٍ ما رَوَاه عمرُ بن الخَطَّاب رضي الله عنه قال: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلَائِكَةِ"[2].

وعن الحِكْمَة مِن اشتراك الملائكةِ في القِتَال يَوْم بَدْرٍ بهذا العدد الكَبير، مع أن جِبْرِيل عليه السلام قَادِرٌ على إهْلَاك المشركين بريشَةٍ مِن جَنَاحِه: يقول الشيخ تقي الدين السُّبْكِي: "سُئلت عن الحِكْمَة في قِتَال الملائكةِ مع النَّبيِّ ﷺ، مع أن جبريلَ قَادِرٌ على أن يَدْفَعَ الكفارَ بريشة مِن جَنَاحِه، فَقُلْتُ: وَقَع ذلك؛ لإرادة الله أن يكون الفعلُ مِن النَّبيِّ ﷺ وأصحابِه، وتكون الملائكةُ مَدَدًا على عَادَةِ الجُيُوش؛ رعايةً لصورةِ الأسبابِ وسننها التي أَجْرَاهَا الله تعالى في عِبَادِه، والله تعالى هو مَالِكُ الجميع. والله أعلم"[3].

---

(١) «الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد» للبنا (٢١/ ٣٩).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٥).
(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٣٦٤).

ولما بدأت المعركةُ كان رسولُ الله ﷺ يُبَاشِرُها بنفسِهِ، وفي ذلك يقول علي رضي الله عنه: "لقد رأيتُنَا يوم بَدْرٍ ونحن نَلُوذُ برسولِ الله ﷺ، وهو أَقْرَبُنَا إلى العَدُوِّ، وكان مِن أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا"(١).

وكالعادة في ذلك العَصْر؛ فقد بَدَأَتِ المَعْرَكَة بالمُبَارَزَة، حيث خَرَجَ مِن قريش عُتْبَةُ بن رَبِيعَة وأخوه شَيْبَة وابنُه الوَلِيد بن عُتْبَة؛ فَتَصَدَّى لهم مِن المسلمين: حَمْزَةُ بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طَالِب، وعُبَيْدَة بن الحَارِث رضي الله عنهم، فَقَتَلُوهم وكَبَّر المسلمون، ثم الْتَحَمَ الجَيْشَان، ودارت الدَّائِرَة على قريش فُقتِل أبو جَهْل بعد أن انْقَضَّ عليه غُلَامَان مِن الأنصار، هما: أبناء عفراء، معاذ بن عمرو بن الجموح، وأخوه معوذ رضي الله عنهم، بعد أن دَلَّهما عليه عبدُ الرحمن بن عَوْف رضي الله عنه، حيث أَخْبَرَاه أنهما يريدان قَتْلَ أبي جهل؛ لأنه كان يَسُبُّ رسولَ الله ﷺ(٢)، وأخذ المشركون يَتَسَاقَطُون في أَرْضِ المعركة، حتى قُتِلَ منهم سبعون، وأُسِرَ سبعون، وفَرَّ البَاقون تاركين خَلْفَهم غَنَائِم كَثِيرَة(٣).

هذا وقد أَشْكَلَ موضوعُ الأَسْرَى والغَنَائِم على المسلمين، وفي ذلك يقول عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما: فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى، قال رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ الله، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى الله أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦٥٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٦٢).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٦)، «السيرة النبوية» لأكرم العمري (٢/ ٣٦٦).

رَسُولُ الله ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ[1]، وأخذ رسول الله ﷺ الفِدَاء، لكنَّ القرآن نَزَلَ مُوَافِقًا لرأي عمر رضي الله عنه في الأَسْرَى[2]، وأجاز تَصَرُّفَ النَّبيِّ ﷺ في أَخْذِ الفِدَاء.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨]، ثم إن الله ﷻ بِمَنِّه ولُطْفِهِ بهذه الأمة أَحَلَّ لها الغَنَائِم، ولم تَحِلَّ لِأُمَّةٍ قَبْلَها، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]، وقال رسولُ الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُن أَحَدٌ قَبْلِي...» وذكر منها: «وأُحِلَّتْ لي الغَنَائِم وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[3]، وكانت الأمم السابقة مِن أتباع الرُّسُل يَجْمَعون الغَنَائِم في مكانٍ ولا يأخذون منها شيئًا، فتأتي نَارٌ بقَدَر الله فتحرقها[4].

وقد أمرَ رسولُ الله ﷺ بسحب قَتْلَى المشركين إلى إحدى الآبار، فقُذفوا فيها. وكان رسولُ الله ﷺ إذا ظَهَرَ على قوم أقام بساحتهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث مشى إلى البئر الذي طُرِح فيه قَتْلَى المشركين، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»[5].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٦).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٨٧).
(٣) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٤) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص ٢٨٦).
(٥) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٣٥١).

أما شهداءُ المسلمين -وعدَّتُهم أربعة عشر شَهِيدًا-؛ فقد دُفِنوا في مَصَارِعِهم كما هي السُّنَّة في ذلك[1]. ثم ارْتَحَلَ رسولُ الله ﷺ مؤيَّدًا مَنْصُورًا قريرَ العين بنصرِ الله، ومعه الأَسْرَى والمَغَانِم، ودَخَلَ المدينة، وقد خَافَه كلُّ عَدُوٍّ بالمدينة وحَوْلَها، فَأَسْلَمَ كثيرٌ مِن النَّاسِ.

وظَهَرَ النِّفَاقُ؛ حيث دَخَلَ عبدُ الله بن أُبي المُنَافِق وأصحابُه في الإسلام ظَاهِرًا[2]. وقد نَزَلَتْ في قِصَّةِ بَدْرٍ "سورة الأنفال" بتمامها، وقد تَضَمَّنَتْ ذِكْرُ مَشَاهِد مِن المعركة، وتوجيهات تربوية، ونِدَاءَات للمؤمنين، كما تضمنت جملةً مِن البِشَارَات والمؤيدات التي أيَّد الله بها رسولَه ﷺ والمؤمنين، على طريقةِ القرآن في التربية بالأحداثِ، وفيها بيان لحكم الغَنِيمَة، وأنها مِن الحَلَالِ الطَّيِّب.

(١) «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٢١٤، ٢١٧)، «مرويات غزوة بدر» لأحمد العليمي (ص ٤٣٥).

(٢) زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٨).

دُرُوس وعِبَر:

١- لقد كانت غزوة "بَدْر" معركة مِن معارك العَقِيدَة التي فَرَّق الله فيها بيْن الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، وانتصار الحق على الباطل سُنَّة جَارِيَة، ووعد دَائِم لا يُخْلَف؛ إلا إذا أَخْلَفَ النَّاسُ ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٢- إن الانتصار في معارك العقيدة لا تحكمه الحسابات المادية وحدها، بل يخضع لتطبيق المسلمين لشروط النصر الواردة في القرآن والسَّنة؛ مِن إقَامَةِ الدِّينِ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصَّبْرِ والثَّبَاتِ، ولُزُوم الطاعة، والاجتماع وعدم الفُرْقَةِ، والإعداد بما يُسْتَطَاع مِن القُوَّةِ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ - ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ...﴾ الآية [الأنفال: ٦٠].

٣- ظُهُور عقيدة الولاء والبراء بأوضح صِوَرِها؛ حيث تَقَابَلَ أبناءُ القَبِيلَةِ الوَاحِدَة، والأُسْرةِ الواحدةِ، بل الإخوة والآباء والأبناء، بأَسْيَافِهِم؛ لأن قِيَم الإيمان جَعَلَتْ ولاءَهم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وأصبحت رابطةُ العقيدة بين أَفْرَاد المجتمع المسلم تعلو فوق كلِّ الروابط الأخرى؛ فهي ليست معركة اقتصادية على مصالح مادية، ولا معركة قومية،

وإنما كانت معركة عقيدة، وفي هذا رَدٌّ على الذين يُفَسِّرون تاريخ المسلمين تفسيرًا قوميًّا أو اقتصاديًّا.

٤- في استشارة الرسول ﷺ لأصحابِهِ تربية للأمة مِن بعده على هذا المبدأ العظيم الذي ينبغي أن يتجذَّر في ثَقَافَةِ الأُمَّةِ[١].

٥- في قضاء الرسول ﷺ ليلة بدر في الدعاء والاستغاثة والتَّضَرُّع إلى الله: بيان لأهمية الفَزَع إلى الله، واللجوء إليه، وخاصة في الشَّدَائِد، مع اتخاذ الوسائل المادية والمعنوية[٢].

٦- في وقوف رسولِ الله ﷺ على البِئْرِ ومخاطبته قَتْلَى المشركين، إثبات للحياة البرزخية للأموات، وما فيها مِن النَّعِيم والعَذَاب[٣].

٧- استثمار النَّصْر وتثبيته، والانتقال إلى مَوَاقِع مُتَقَدِّمَة؛ فبعد رُجُوعِهِ ﷺ مِن بَدْرٍ بسبعةِ أيامٍ خَرَجَ لغَزْوِ بَنِي سُلَيْم فلم يَقُم له أَحَدٌ، وفي ذي الحِجَّةِ خَرَجَ لِقِتَالِ أبي سفيان في غزوة السَّوِيق، وفي آخر ذي الحِجَّةِ خَرَجَ إلى نَجْد يُرِيدُ غَطَفَانَ في غَزْوَةِ ذِي أَمَر.

(١) «فقه السيرة» لزيد عبد الكريم الزيد (ص ٤١٩)، «فقه السيرة» لمحمد البوطي (ص ٢١٨).
(٢) «فقه السيرة» لزيد عبد الكريم الزيد (ص ٤٢٤).
(٣) «فقه الغزوات» لمحمود العيساوي (ص ١٢٢).

غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاع

لما عاد رسولُ الله ﷺ من غزوة بدر مؤيَّدًا مَنْصُورًا، شَرِقَتْ بذلك نُفُوس يَهُود بني قَيْنُقَاع، فَذَهَب إليهم رسولُ الله ﷺ، وجمعهم في سُوقِهم وقال لهم: «أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ» فَقَالُوا: "إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، وَلَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا الرِّجَالُ!"، فَأَنْزَلَ الله قولَه تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢][(١)].

لقد أظهر يهودُ بني قينقاع رُوحًا عَدَائِيَّة تِجَاه المجتمع المسلم، ثم تَوَّجُوا ذلك بما حَصَل في سُوقِهم من كِشْفِ عَوْرَةِ امرأةٍ مسلمةٍ، وقَتْل الصَّحَابِي الذي انْتَصَر لتلك الصَّحَابِيَّة[(٢)].

لقد أَدَّت تلك الأقوال والأعمال العدائية مِن قِبَل يهود بني قينقاع إلى تماديهم في غَيِّهم، ونقضِهم العَهْدَ مع رسولِ الله ﷺ[(٣)]، ووقوعهم في الخيانةِ العظمى؛ حيث اتَّضَح أنهم كانوا عَيْنًا لكفار قريش، يَنْقِلُون إليهم أَخْبَارَ المسلمين، ويدلونهم على عوراتهم[(٤)].

فسار إليهم رسولُ الله ﷺ في منتصف شهر شوال من السنة الثانية، وحاصرهم في حصونِهم خمسَ عشرة ليلة، فنزلوا على حُكْمِهِ، ثم شَفَع فيهم المنافق عبدُ الله بن أُبي ابن سَلُول عن القتل، وكان حَلِيفًا لهم، فَأَجْلَاهم رسولُ الله ﷺ عن المدينة، وقد كان عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه حَلِيفًا لبني قينقاع، لكنه تَبَرَّأ منهم ومِن حِلْفهم، وقال

(١) فتح الباري (٧/ ٣٨٦).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٢).
(٣) «زاد المعاد (٣/ ١٩٠).
(٤) «النبي ويهود المدينة» لمحمد الجميل (ص١٤١) هامش (١).

لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ مِن حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم»؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١][1]، وقد رَحَلُوا إلى أَذْرِعَاتٍ مِن أرضِ الشَّام، فأهلكهم الله ولم يَعُد لهم ذِكْرٌ في التاريخ.

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٢).

دُرُوس وعِبَر:

١- أن السيطرة على الاقتصاد هي مِفْتَاح السيطرة على المجتمعاتِ، وهذا ما يفعله اليهود قديمًا وحديثًا؛ لذا فحريٌّ بنا أن نقتدي برسول الله ﷺ، في حماية اقتصاد الأمة مِن الارتهان للشرق أو الغرب.

٢- مع أن يهود بني قينقاع مِن الذين وَقَّعوا على "وَثِيقَة المدينة"؛ فإن ذلك لم يردهم عن الخيانة ونَقْضِ العَهْد، وهذا ما ينبغي أن يكون حاضرًا في ذِهْن الأمة المسلمة في كلِّ زمان.

٣- بالنسبة لمعاملة المنافق في الإسلام، مثل: عبد الله بن أُبي ابن سَلُول، ومَن على شَاكِلَتِهِ مِن أصحاب المذاهب والأفكار الإلحادية؛ فإنه يُعَامَل في الدنيا مِن قِبَل المسلمين على أنه مسلمٌ؛ إلا إذا ظهر منه دليل وَاضِح يدل على كفره وخيانته للأمة، فعند ذلك تُطَبَّق عليه أحكامُ الإسلام[١].

٤- أهمية تحرير عقيدة الوَلَاء والبَرَاء، وخُطُورَة مُوَالَاة المشركين[٢].

٥- أن الأسواق مِن مَوَاطِن الشَّرِّ التي يَنْبَغِي على الأسرة المسلمة أَخْذ الحَيْطَة والحَذَر عند النزول إليها.

(١) «فقه السيرة» لمحمد البوطي (ص ٢٣٣).
(٢) المرجع السابق (ص ٢٣٤)، «السيرة النبوية» لمحمد أبو فارس (ص ٥٣٠).

غَزْوَة أُحُد

في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة تَوَجَّهَتْ قريشٌ في ثلاثة آلاف مُقَاتِل إلى المدينة لقتال المسلمين؛ انتقامًا لهزيمتها في غزوة بَدْر، واستعادةً لهيبتها ومكانتها التي اهْتَزَت بين القبائل العربية في أعْقَاب بَدْر، وكذلك مِن أجلِ تأمين طريق تجارتها إلى الشَّام[1].

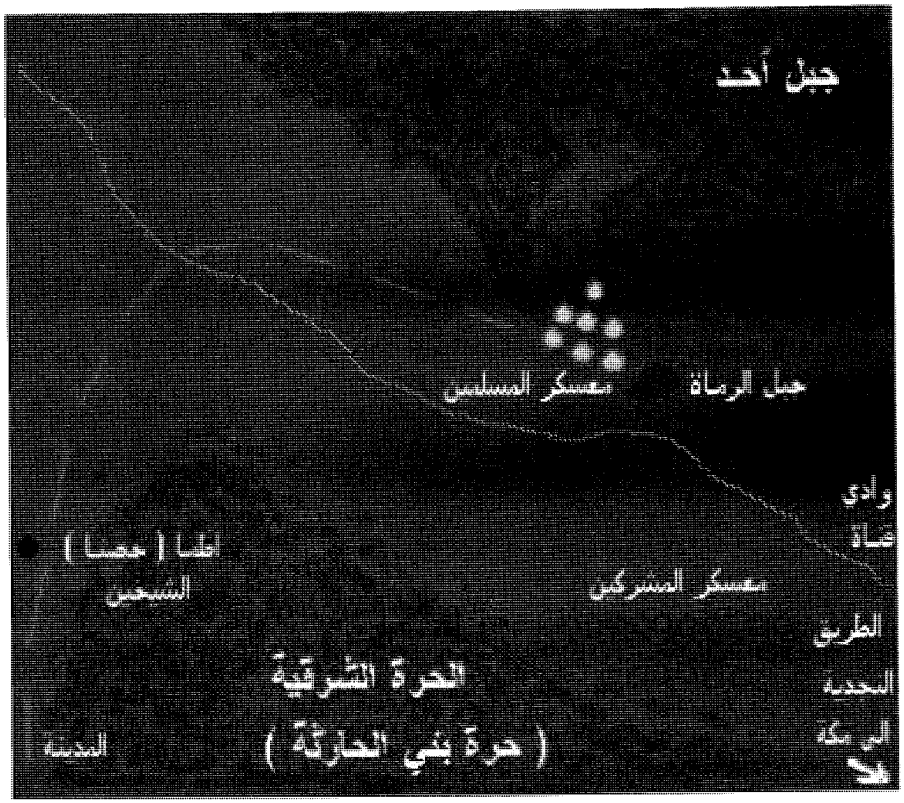
وجاءت الأخْبَارُ إلى رسولِ الله ﷺ فاسْتَشَار أصحابَه في أن يتم قتال قريش داخل المدينة، فقالت الأكثرية: "ما دُخل علينا فيها في جاهلية؛ فكيف يدخل علينا في الإسلام؟"، ورَغِبوا في مُلَاقَاتِهم خَارِج المدينة، فَدَخَل رسولُ الله ﷺ بَيْتَه ولَبِس عُدَّةَ الحرب، فلما خَرَج قالتِ الأنصار: "ما كان لنا أن نُخَالِفَكَ؛ فاصنع ما شِئْتَ"، فقال: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ[2] أَنْ يَضَعَهَا حتى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ»[3].

ولما وَصَل كفارُ قريش إلى المدينة عَسْكَرُوا عند جَبَل أُحُد، فخرج لهم رسولُ الله ﷺ في جيش عِدَّته ألف مقاتل، وفي الطريق إلى أُحُد تَظَاهَر المنافقُ عبدُ الله بن أبي ابن سَلُول بالغضب، وقال: "أطاعهم وعصاني"؛ لأنه كان مِن المؤيدين للقتال دَاخِل المدينة، ورجع معه ثلثُ الجيش ممَّن كانوا على شَاكِلَتِهِ مِن النِّفَاقِ والشَّكِّ[4].

وفي مَيْدَان المعركة جَعَلَ رسولُ الله ﷺ جَبَلَ أُحُد خَلْفَه، ووَضَعَ قوةً مِن الرُّمَاة بقيادة عبد الله بن جُبَيْر رضي الله عنه على جَبَل عَيْنَيْن والذي عُرِف

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٤٠).
(٢) اللأَمَة: عُدَّة الحَرْب.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٩٣)، والحديث أخرجه أحمد في المسند (١٤٧٨٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».
(٤) فتح الباري (٧/ ٤٠١).

فيما بعد بجبل الرُّمَاة؛ لتأمين الحماية للجيش، ومنع المشركين من اقتحام صفوف المسلمين، وقال لهم: «**لا تَبْرَحُوا، إن رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عليهم، وإن رَأَيْتُمُوهم ظَهَرُوا علينا فلا تُعِينونَا**»[1].



خريطة موقعة أحد

وبدأت المعركةُ بالمبارزة ثم الْتَحَمَ الجَيْشَان، فدارتِ الدَّائِرَةُ على المشركين أول النهار، فولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم في مؤخرة الجيش، فلما رأى الرماة هزيمة قريش، قالوا: "الغنيمة، الغنيمة"؛ فنهاهم أميرهم وذكَّرَهم عهدَ رسولِ الله ﷺ، فلم يستجيبوا له، وحسبوا

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٠٥).

أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وعندما رأى خَالِدُ ابن الوَلِيد ما فعل الرماة، استغل هذا الأمر وجاء إلى مَن بقي مِن الرُّمَاة فقتلهم، ثم التَفَّ على المسلمين، وعند ذلك كَرَّ كُفَّارُ قريش على المسلمين مِن كلِّ اتجاه؛ فاضطرب المسلمون، واخْتَلَّ نظامُهم، وثَبَتَ رسول الله ﷺ في مكانه، وأصيب ﷺ، وسالت الدماء من وجهه الشريف وأُشِيع أنه قُتِلَ، فتراجع بعض المسلمين إلى المدينة، وقعد بعضُهم عن المعركة، واستُشهِدَ سبعون صحابيًّا، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير حامل اللِّواء، وسعد بن الرَّبِيع -رضي الله عنهم جميعًا-[1].

ولما بَرَدت المعركة أَشْرَفَ أبو سفيان على المسلمين ونَادَى: "أفي القوم محمَّد؟"، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُجِيبُوه»، فقال: "أفي القوم ابن أبي قُحَافَة؟"، قال: ﷺ: «لَا تُجِيبُوه»، فقال: "أفي القوم ابن الخَطَّاب؟"، فقال: "إن هؤلاء قُتِلوا؛ فلو كانوا أحياء لأجابوا". فلم يملك عُمَرُ نفسه، فقال: "كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يخزيك". قال أبو سفيان: "اعْلُ هُبَلُ"، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَجِيبُوه». قالوا: "ما نقول؟"، قال: «قولوا: الله أَعْلَى وأَجَلُّ». قال أبو سفيان: "لَنَا العُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ". فقال النَّبيُّ ﷺ: «أَجِيبُوه». قالوا: "ما نقول؟"، قال: «قُولُوا الله مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: "يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي"، فقال رسول الله ﷺ: «أَجِيبُوه». قالوا: "ما نقول؟"، قال: «قُولُوا: لَا سَوَاءَ، قَتْلَانَا في الجَنَّةِ وقَتْلَاكُم في النَّارِ»[2].

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٤١)، زاد المعاد (٣/ ١٩٦).
(٢) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٠٥).

ثم انْسَحَبَتْ قريشٌ عَائِدَة إلى مكة دون أن تستثمِرَ نتيجةَ المعركة، فلم تأخذ أسيرًا ولا غنيمة.

وقد أنزل الله ﷻ في هذه الغزوة آيات مباركات من سورة آل عمران فيها وَصْفٌ لهذه الغزوة، وتِبْيَان لما فيها مِن الأحكام والحِكَم والغَايَات المحمودة، وقد أشار الله ﷻ إلى أمهاتها وأصولها، حيث افتتح القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١]، إلى تمام ستين آية من سورة آل عمران[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٨).

دُرُوس وعِبَر:

١- أن الشدائدَ تُطهِّر الصَّفَّ المسلم، وتنقِّيه من الخبث، ويتَّضِح ذلك مِن انسحاب المنافق ابن أُبي ابن سلول بثُلُثِ الجيش، وانكشاف المنافقين المُنْدَسِّين دَاخِل الصف المسلم، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩][١].

٢- الحذر مِن الحرص على الدنيا، وكيف أن فرحةَ بعض الرماة بالغنائم جعلتهم يتركون أماكنهم، وينسون وصيةَ رسولِ الله ﷺ لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢][٢].

٣- معرفة سوء عاقبة المعصية، والفشل، والتنازع، وأن الذي أصاب المسلمين يومَ أُحُد؛ إنما هو بشؤم ذلك، فلما ذاقوا عَاقِبةَ معصيتهم للرسول، وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حَذَرًا ويقظةً، وتَحَرُّزًا من أسباب الخُذْلَان[٣].

٤- أن ما نَتَج مِن خَبَرِ إِشَاعَةِ مَقْتَلِ رسولِ الله ﷺ، وتردد بعض المسلمين في مواصلة المعركة، ورجوعهم إلى المدينة؛ يبيِّن لنا أهمية التَّثَبُّت في قَبُول

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٩).
(٢) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٥٠).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٢١٨).

الأَخْبَار، كما يوضِّح خُطُورَة الإشاعة على الصَّفِّ المُسْلِم[1].

٥- أن دينَ الله لا يتعلَّق بالأشخاص، وهذا ما نبَّه الله ﷻ المسلمين إليه، عندما أشيع أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِل، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤][2].

٦- أهمية الرجوع إلى أهل العِلْم فيما يُشْكِل مِن الأمور، وهذا وَاضِح من قول الصحابة ﷺ لرسولِ الله ﷺ: "ما نقول؟" في رَدِّهِم على أبي سفيان[3].

٧- تحذير الجماعة المؤمنة من الهزيمة النفسية في كلِّ زمان ومكان، وأنها أشد فَتْكًا بالأمة من الهزيمة المادية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَالله لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

فَجَمَعَ لهم في الخِطَاب بيْن تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم، وبين حُسْنِ التَّسْلِيَة، وذكر الحِكَمِ البَاهِرَة التي اقْتَضَتْ إِدَالَة الكُفَّارِ عليهم؛ فأنتم وإن استويتم معهم في القَرْحِ والأَلَمِ، فإنكم قد تَبَايَنْتُم في الرَّجَاء والثَّوَاب، فما بَالُكُمْ تَهِنُونَ وَتَضْعُفُونَ لما أصابكم يوم أُحُد، وأنتم قد أُصِبْتُم في سبيلي وابتغاء مَرْضَاتِي، في حين أن ما أَصَاب الكفار يوم بدر كان في سبيل الشيطان[4].

(١) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٥٢).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).
(٣) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٥٥).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٢٢).

مِن آثَار غَزْوَة أُحُد:

لقد كان من نتائج غزوة أُحُد وما حَصَل فيها مِن نَكْسَةٍ واسْتِشْهَاد عَددٍ من المسلمين: تضَعْضع هَيبةِ المسلمين في نفوس المشركين، فتجرأ الأعرابُ عليهم، وبدأوا في التجمع لغزو المدينة، ومن ذلك: ما ظَهَر مِن تحركات عسكرية وتجميع للمقاتلة مِن قِبَل طُلَيْحَة الأَسَدِي في نَجْدٍ، وخَالِد بن سُفْيَانَ الْهُذَلِي في قَبَائِل هُذَيْلٍ وحُلَفَائِهم، ولكن المسلمين تَمَكَّنُوا من وَأْد تلك التَّحَرُّكَات في مَهْدِهَا؛ حيث أَغَارَتْ خيلُ رسولِ الله ﷺ بقيادة أبي سَلَمَة بن عبدِ الأَسَدِ رضي الله عنه على جُمُوع طُلَيْحَة الأَسَدِي؛ فَتَفَرَّقُوا لِهَوْل المُفَاجَأة، وغَنِمَ المسلمون معسكرهم وماشيتهم[1].

وأما خَالِد بن سُفْيَان الهُذَلِي؛ فقد أَرْسَلَ له رسولُ الله ﷺ أحد مغاوير الصحابة، وهو: عبد الله بن أُنَيْسٍ الجُهَنِي رضي الله عنه، فتَمَكَّن من قَتْلِهِ وإخْمَادِ فِتْنَتِهِ[2].

لقد كانت الدعوة إلى الله في ظل تلك الظروف العدائية محفوفة بالمَخَاطِر؛ لا سِيَّمَا أن قريشًا لم تتوقف لحظةً واحدةً عن تَأْلِيب القَبَائِل العَرَبِيَّة على المسلمين، ومع ذلك فقد كانت الدعوة إلى الله هي الشُّغْل الشَّاغِل لرسولِ الله ﷺ؛ رغم كثرة الْمُعَوِّقَاتِ؛ وكان رسولُ الله ﷺ على يقين أن طريقَ الدعوة إلى الله مليء بالتضحيات بالأموال والأنفس، لكن عاقبته نجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ١٥٢]. أي: إما النصر والغنيمة، وإما الموت والشهادة[3].

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٥٠)، «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٣٩٨).
(٢) «المصدر السابق» لأكرم العمري (٢/ ٣٩٨).
(٣) «السيرة النبوية» لمحمد أبو شهبة (٢/ ٢٤٢).

لقد كان رسولُ الله ﷺ حريصًا على استثمار كل مناسبة في الدعوة إلى الله، ومهما كانت التضحيات عظيمة وجسيمة، وقد حاول المشركون المخادعة والغدر بالمسلمين، فطلبوا من رسولِ الله ﷺ إرسالَ بُعُوثٍ مِن قِبَلِهِ للدعوة بين الأعراب عسى أن يستجيبوا للحق، فَبَعَثَ رسولُ الله ﷺ بَعْثَيْن للدعوةِ إلى الله، ونشرِ الإسلام.

الأول: بَعْثُ الرَّجِيع:

في أواخِر السَّنَة الثالثة من الهجرة -وقيل: في أوائل السنة الرابعة-، سَعَتْ قَبِيلَةُ هُذَيْل للانتقام لقَتْلِ زَعِيمِها خَالِد بن سُفْيَان الهُذَلِي، فاتَّفَقَتْ مع قبيلتين من مُضَر، هما: عَضَل، والقَارَة، على إرسالِ وَفْدٍ من هاتين القبيلتين إلى المدينة؛ ليحتالوا في إحضار بعض الصحابة ليقتلوهم انتقامًا لزعيمهم، ويبيعوا البعض الآخر لقريش (فإنهم ليسوا لشيء أَحَبَّ إليهم مِن أن يُؤْتَوْا بأحدٍ من أصحاب محمَّدٍ، يمثِّلون به ويقتلونه بمَن قُتِل منهم ببدر)[1]. فجاء رَهْطٌ مِن عَضَل والقَارَة إلى المدينة فقالوا: «يَا رَسُولَ الله، إنَّ فِينَا إسْلَامًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَنَا فِي الدِّينِ، وَيُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ»[2].

فبعث معهم رسولُ الله ﷺ نَفَرًا مِن أصحابة بقيادة عَاصِم بن ثَابِت الأنصاري رضي الله عنه، فلما اقْتَرَبَ الصَّحَابَةُ مِن عُسْفَانَ ثَارَ عليهم بَطْنٌ من هُذَيْل يُقَال لهم: لِحْيَان؛ فلجأ الصحابةُ إلى مُرْتَفَعٍ ليَتَحَصَّنُوا به، فَأَحَاط بهم المشركون، وقالوا لهم: "لَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إن نَزَلْتُم إلينا ألا نَقْتُلَ

(١) «المغازي» للواقدي (١/ ٣٥٠).
(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢٠).

مِنْكُمْ رَجُلًا"، فقال عَاصِمٌ: أَمَّا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللهم أَخْبِر عنا نَبِيَّكَ"، فقاتلوهم حتى قَتَلوا عَاصِمًا في سَبْعَةِ نَفَرٍ بالنَّبْل، وبَقِي خُبَيْب بن عَدِي، وزَيْد بن الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طَارِق، فأعطوهم العهدَ والميثاقَ أن لا يقتلوهم فنزلوا إليهم، فلما اسْتَمْكَنوا منهم حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فربطوهم بها.

فقال عبد الله بن طارق: "هذا أول الغَدْر"، فأبى أن يصحبهم فقتلوه.

وانطلقوا بخُبَيْب وزَيْد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خُبَيْبًا بنو حَارِث بن عَامِر بن نَوْفَل، وكان خُبَيْبًا قد قَتَل الحَارِث بن عَامِر يوم بَدْر، فَمَكَثَ عندهم أَسِيرًا، حتى إذا أجمعوا على قَتْلِهِ، اسْتَعَار مُوسَى مِن بعض بَنَات الحَارِث لِيَسْتَحِدَّ بها، فَأَعَارَتْهُ، قالت: فَغَفَلْتُ عن صَبي لي، فَدَرَج إليه حتى أتاه فوضعه على فَخِذِه، فلما رأيتُه فَزِعْتُ فَزْعَة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذاك إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيتُه يأكل مِن قِطْفِ عِنَب وما في مكة يؤمئذٍ ثَمَرَة، وإنه لَمُوثَقٌ في الحَدِيدِ، ، وما كان إلا رِزْقًا رَزَقَه الله، فَخَرَجُوا به من الحَرَم ليقتلوه[1]، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم بعد أن صلَّى فقال: "لولا أن تروا أن ما بي جَزَع مِن الموت لَزِدْتُ"، فكان أول مَن سَنَّ الركعتين عند القَتْل، ثم قال: "اللهم أَحْصِهِم عَدَدًا، واقْتُلْهُم بَدَدًا ولا تُغَادِر منهم أَحَدًا". ثم قال:

ولستُ أبالي حِين أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... على أي شِقٍّ كان لله مَصْرَعِي

وذلك في ذَاتِ الإله وإن يَشأْ ... يُبَارِك على أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

(١) وذلك أنهم خَرَجُوا به إلى التنعيم، بعد انقضاء الأَشْهُر الحُرُم. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢٢- ١٢٣).

ثم قام إليه عُقْبَةُ بنُ الحَارِثِ فَقَتَلَه بعد أن رَفَعُوه على خَشَبَةٍ.

وبَعَثَتْ قريشٌ إلى عَاصِم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصمٌ قَتَلَ عظيمًا مِن عظمائهم يوم بَدْر، فبعث الله عليه مِثْلَ الظُّلَّة من الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِن رُسُلِهِم، فلم يَقْدِروا منه على شيء[1].

وأما زَيْد بن الدَّثِنَّة ﷺ فقد اشتراه صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ ليقتله بأبيه أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وبَعَث به صفوان إلى التنعيم لِيُقْتَل خارج الحرم! فلما اجتمعت إليه قريش قبيل قتله، قال له أبو سفيان: «يا زَيْد، أَتُحِبُّ أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيبُهُ شَوْكَة تؤذيه وأنا جَالِس في أهلي! قال أبو سفيان: ما رأيتُ مِن الناس أحدًا يحب أحدًا كَحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمدًا»[2].

الثاني: بَعْثُ بِئْرِ مَعُونَة:

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة بَعَثَ رسولُ الله ﷺ سبعين صحابيًّا من القُرَّاء في بَعْثَةٍ تعليمية بقيادة الْمُنْذِر بن عَمْرٍو السَّاعِدِي ﷺ، مع عَامِر بن مَالِك الملَقَّب بملاعب الأَسِنَّة، إلى أهل نَجْد ليعلموهم أمور دينهم، فلما وصلوا بئر مَعُونَة، وهي بين أرض بني عَامِر بن صَعْصَعَة من هَوَازِن وأرض بني سُلَيْم، اعترضهم عدو الله عَامِر بن الطُّفَيْل العَامِري الهَوَزَنِي، فَنَدَبُوا له حَرَام بن مَلْحَان ﷺ ليكلمه، فبينما هو يكلمه أشار عَامِر بن الطُّفَيْل إلى رجل فأتاه من خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ غَدْرًا ﷺ[3]، فَقَام حَرَام بن مَلْحَان بنضح الدَّم على وجهه

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٣٧- ٤٤٤)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٢٠ - ١٢٣).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٢).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٤٥)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٩).

ورأسه، وقال: "الله أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!»[1].

ثم استصرخ عَدُوُّ الله عَامِرُ بن الطُّفَيْل قَبَائِل من بني سُلَيْم (رِعْلٍ، وذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ) على بَعْثِ رسولِ الله ﷺ، فقاتلوهم حتى قُتِلُوا إلا كَعْبَ بن زَيْد الأنصاري الذي تُرك وبه رَمَق، فَعَاش حتى قُتِل في غزوة الخَنْدَق، ورجلين كانا في رحالهم، هما: المُنْذِر بن محمَّد بن عُقْبَة الأنصاري، وعَمْرُو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي، فلما عَلِما بقتل أصحابهم، قاتلهم الأنصاري حتى قُتِل، وأُسِر عمرو بن أمية، ثم أطلقه عامر بن الطُّفَيْل لما عَلِم أنه من مُضَر برقبة كانت على أمِّ عَامِر -كما زعم- فرجع عمرو الضَّمْرِي إلى المدينة، وقتل في الطريق رجلين من بني عامر بن كِلَاب، وكان معهما أَمَانٌ من رسولِ الله ﷺ ولم يَعْلَم به؛ ولذا وَدَاهُما رسولُ الله ﷺ ووفَّى بذمته وعهده[2].

وقد كان في القَتْلَى عَامِر بن فُهَيْرَة، مَوْلَى أبي بكر ورفيقِهِ في الهجرة، وحصلت له كرامة بعد استشهاده، فقد قال عامر بن الطفيل لعمرو بن أمية لما أسره: «مَن هذا؟ وأشار إلى أحد القتلى. قال عمرو: هذا عامر بن فُهَيْرَة، قال: "لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مَا قُتِلَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ، ثُمَّ وُضِعَ!»[3].

وقد وصلَ خبرُهُم إلى رسولِ الله ﷺ من طريق الوحي، فقال: «إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ، فَقَالُوا: رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عَنَّا، فَأَخْبَرَهُمْ عَنْهُمْ»[4].

(١) رواه البخاري (٤٠٩٢)، ومسلم (٦٧٧).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٩). وخبر السرية في «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب: غزوة الرجيع، وبئر معونة: (الأحاديث: ٤٠٨٨ - ٤٠٩٦).
(٣) رواه البخاري (٤٠٩٣).
(٤) رواه البخاري (٤٠٩٣).

لقد كان القُرَّاء من خيرة الصحابة ﷺ، وأنفعهم للناس، حيث كانوا يقومون الليل، ويتدارسون القرآن ويتعلمون، وكانوا يحتطبون بالنهار، ويشترون بثمنه الطعام لفقراء الصحابة مِن أَهْل الصُّفَّةِ[1]، فَحَزِنَ عليهم رسولُ الله ﷺ والصحابة حُزْنًا عَظِيمًا، وتزامنت هذه الحادثة مع التي قَبْلَها (سَرِيَّة الرَّجِيع) وقَنَتَ ﷺ شهرًا كاملًا ثلاثين صباحًا يدعو على رِعْلٍ، وذَكْوَانَ، وبني لَحْيَان، وعُصَيَّةَ رِعل، الذين عَصُوا الله ورسوله[2].

(١) فتح الباري (٧/ ٤٤٧).
(٢) رواه البخاري (٤٠٩٠، ٤٠٩١، ٤٠٩٤).

دُرُوس وعِبَر:

١- أن مسؤولية الدعوة إلى الإسلام يشترك فيها جميع المسلمين، وليست محصورة بالأنبياء والرسل -عليهم السلام-[١].

٢- أن أفعال الغَدْرِ مما يتميز به المشركون قديمًا وحديثًا، وينبغي أن يَتَرَفَّع عنها أتباعُ رسولِ الله ﷺ، ولنا عبرة في قصة خُبَيْب رضي الله عنه الذي تَخَرَّج من مدرسة النُّبُوَّة، وترفعه عن مُقَابَلَة الغَدْر بالغدر، فلم يقتل الطفلَ الذي دَرَج إليه في بَيْت بنتِ الحَارِث وقد تمكَّن منه لو أراد.

٣- إثبات كرامة الله ﷻ لأوليائه، وهذا ظَاهِرٌ مِن إكرام الله ﷻ لخبيب رضي الله عنه بإطعامه العِنَب في غير زَمَانِهِ[٢]، وكذلك حفظ الله ﷻ لعَاصِم بن ثَابِت رضي الله عنه من المشركين، وإرسال الدَّبْر لمنع المشركين من أخذ جُثْمَانِهِ رضي الله عنه.

٤- شدة محبة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ، ويظهر ذلك من خلال الحوار بين أبي سفيان، وزيد بن الدَّثِنَّة رضي الله عنه، وهذا المستوى العظيم من المحبة لرسول الله ﷺ ينبغي أن يحرص عليه المسلم في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ.

٥- أنَّ للمسلم أنْ يَمتنعَ عن قَبُول أمانِ الكافر، وعدم النزول على حكمه، وإن أدَّى ذلك إلى قتله، وهذا ظاهرٌ مِن صنيع عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

٦- جواز الدعاء على المشركين عند وجود مناسبته.

٧- مشروعية الصلاة عند القتل، وهذا مأخوذ من صنيع خُبَيْب رضي الله عنه، والذي أقره عليه رسولُ الله ﷺ[٣].

---

(١) «فقه السيرة» لمحمد البوطي (ص ٢٥٥).
(٢) «السرايا والبعوث النبوية» لبريك العمري (ص ٢٣٤).
(٣) «السرايا والبعوث النبوية» لبريك العمري (ص ٢٣٤- ٢٣٦).

٨- شدة يقين الصحابة، وعمق إيمانهم بما أخبر به المصطفى ﷺ عما أعَدَّ الله للشهداء من النعيم المقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. وهذا ظاهرٌ من قول حَرَام بن مَلْحَان رضي الله عنه: "فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ".

٩- مشروعية القنوت عند النوازل اقتداءً برسولِ الله ﷺ عندما جاءه خبرُ استشهادِ القُرَّاء رضي الله عنهم وأهلِ الرَّجِيع!

غزوة بني النَّضِير

وَقَعَتْ في السَّنَة الرابعة من الهجرة النَّبوية، وسببها: أن رسولَ الله ﷺ قد أتى إليهم في جَمْعٍ مِن أصحابه لطلب المعونة في دية الرجلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري -وكان معهما كتاب أمان من رسول الله ﷺ، وهذا حسب العهد الذي كتبه النَّبيُّ ﷺ مع اليهود أول قدومه المدينة، لكن اليهود غلب عليهم طبعهم في الخيانة والغَدْر، فَرَحَّبوا برسولِ الله ﷺ وأصحابه، وأجلسوهم في ظلِّ أُطُمٍ مِن آطَامِهِمْ.

ثم تَآمَرُوا على الغَدْر واغتيال النَّبيِّ ﷺ؛ وذلك بأن يعلو رَجُلٌ منهم الحِصْن ثم يُلْقِي عليه حَجَراً فيقتله، لكن الله أَطْلَعَ رسولَه على غدرهم، فقام ﷺ كأنما يقضي حاجته، فرجع إلى المدينة، ثم لَحِقَ به أصحابُه، فَعَزَم ﷺ على غزوهم؛ لنقضهم العهد والميثاق، ولعزمهم على اغتيالِ رسولِ الله ﷺ[1].

فَسَارَ إليهم رسولُ الله ﷺ، فَتَحَصَّنوا في حُصُونِهِم، فَحَاصَرَهُم خمسَ عشرة ليلة، وقطع بعضَ نخيلهم حتى نزلوا على حُكْمِهِ، وهو الجَلَاء مِن المدينة، وأن لا يحملوا مِن مَتَاعِهِم؛ إلا ما حملت الإبل دون السِّلَاح، فَخَرَج أشرافُهم إلى خَيْبَر، ومنهم مَن سار إلى الشَّام[2].

وقد نَزَلَ في شأنهم "سورة الحشر"، وهي التي تُسمَّى: "سورة بني النضير"[3]، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ الله فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

(١) سيرة ابن هشام، السيرة (٢/ ١٣٢)، «السيرة النبوية» لمحمد مهدي رزق الله (ص ٤١٧).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٨٧).

دُرُوس وعِبَر:

١- عناية الباري ﷻ برسوله ﷺ وعصمته مِن كيد الخائنين[١].

٢- أن الحكم الشرعي في أَشْجَار العَدُوِّ وإتلافها منوطٌ بما يراه الإمام أو القائد مِن مصلحةِ النِّكَايَةِ بالأعداء؛ لأنها دَاخِلَة في باب السياسة الشرعية، وإن كان الأصل عدم الإتلاف[٢].

٣- أن ما غَنَمَه المسلمون من أعدائهم بدون قتالٍ -وهو الفيء- يعود النظر والتَّصَرُّف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسَّم عليهم الغَنَائِم التي غنموها بعد قتالٍ وحربٍ، وهو ما بيَّنَتْه سورةُ الحشر[٣].

(١) «السيرة النبوية» لمحمد أبو فارس (ص ٥٣٨).
(٢) «فقه السيرة» لمحمد البوطي (ص ٢٦٢).
(٣) المرجع السابق (ص ٢٦٣).

غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ

بعد ما حصل للمسلمين في أُحُد تَجَرَّأ الأعرابُ على المسلمين بتحريض من قريش، فكان لَزَامًا على الدولة الإسلامية تدارك النتائج السلبية لغزوة أُحُد، واستعادة هيبة أمة الإسلام؛ لذا فقد جاءت هذه الغزوة لكسرِ شَوْكةِ الأعراب، وقذفِ الرُّعْب في قلبِ مَن تسوِّل له نَفْسُه غزو المدينة النَّبوية[1].

وقد كانت غزوة ذاتِ الرِّقَاعِ[2] موجَّهة إلى بعض جموع قبيلة غَطَفَان في بلاد نَجْد، لكن لم يقع فيها قِتَال حيث آثر المشركون الانسحاب، بعد أن تواقفوا واستعدوا للقتال، وقذَف الله في قلوبهم الرُّعْبَ، وفي هذه الغزوة صلَّى رسولُ الله ﷺ بالمسلمين صلاةَ الخوف، ثم انصرف بالصحابة إلى المدينة عندما انسحبت جموع غَطَفَان دون قتال[3].

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ١٤١).
(٢) سُمِّيتْ بذلك؛ لأن المسلمين رَقَّعوا فيها راياتهم. وقيل: نِسْبة لاسم شَجَرَة في ذلك المكان. انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٤١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤١).

دُرُوس وعِبَر:

١- أن الباطل إذا تُرك انتفش وتطاول على أهل الحق؛ لذا فقد حَرَصَ رسولُ الله ﷺ على كَسْر شوكة الأعراب قَبْل أن يتجمَّعوا ويُهاجِموا المدينة النَّبوية.

٢- أهمية الصلاة وجلالة قَدْرِها، وأن المسلم مأمورٌ بالحفاظ عليها، وأدائها جماعة مع المسلمين، حتى في حال الخوف ومواجهة العدو.

٣- أن مِن أنواع النِّعَم، وأنواع النَّصْر، التي قد تغيب عن بعض المسلمين: كَفَّ أيدي المشركين، وردَّ كَيدِهم في نُحُورهم[1]، ومِن ذلك: عدم وقوع القتال في هذه الغزوة. وعن جنس هذه النعمة يقول الحق ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ١٨٧).

غَزْوَة بَدْر الصغرى

وتُسمَّى: "غزوة بَدْر المَوْعِد"، حيث إن أبا سفيان قبل انصرافه من أُحُد قال: "يا محمَّد موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا"، فكان ذلك من العام القابل، وقد خرج المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ إلى بَدْر الموْعِد في السنة الرابعة مِن الهجرة، ومكثوا هناك ثمانية أيام، لكن قريشًا بقيادة أبي سفيان، نكصوا وأخلفوا الموعد؛ بحجة أن العام عام جَدْب، وأن الخروج للقتال لا يصلح إلا في عام خَصِيب، فرجع الناس مع أبي سفيان بعد أن بَلَغُوا عُسْفَان، فسمَّاهم أهل مكة: "جيش السَّوِيق!"، تَهَكُّمًا بهم، وقالوا: "إنما خرجتم تشربون السَّوِيق"[1].

وقد كان توقيت المسلمين في الحضور إلى بدر يوافق سُوقًا تجتمع فيه العرب للبيع والشراء، فجلب المسلمون معهم من المدينة شيئًا من السِّلع لبيعها في ذلك السوق، فَرَبِحوا ثم رَجَعوا إلى المدينة، ولم يلقوا كيدًا[2].

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٤).
(٢) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٦٠).

دُرُوس وعِبَر:

١- أسفرت هذه الغزوة عن استعادة المسلمين لهيبتهم بين القبائل في أَعْقَاب غزوة أُحُد، وجَرَّدَت قريشًا من كلِّ مكاسبها السياسية التي نالتها عقب غزوة أُحُد[١].

٢- أهمية استثمار الإعلام في بَسْط هَيْبَة الدولة الإسلامية، ويظهر ذلك جليًّا في اختيارِ رسولِ الله ﷺ المجيء لبدر الموعد، زمن سوق عظيم من أسواق العرب.

(١) «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٤٠٢).

غزوة بَنِي المُصْطَلِق

بنو المُصْطَلِق: فَرْع مِن قَبِيلَة خُزَاعَة، وهي من القبائل التي تَجَرَّأت على المسلمين في أعقاب غزوة أُحُد؛ لا سيما أنهم ممَّن عَاون قريشًا على المسلمين، وقد أدَّى ذلك إلى تأليبهم القبائل من أجل الإغَارَة على المدينة، فلما جاءت الأخبار إلى رسولِ الله ﷺ، تهيَّأ لغزو بني المصطلق، فسار إليهم في شهر شعبان من السنة الخامسة من الهجرة، فلما وَصَل المسلمون إلى ديار بني المصطلق عند ماء لهم يُسمَّى: المُرَيْسِيع[1]، قَذَف الله الرُّعبَ في قلوب المشركين مِن هول المفاجأة، وأصبحوا بين قتيلٍ وأسيرٍ[2].

وتَزَوَّج رسولُ الله ﷺ بعد هذه الغزوة من جُوَيْرِيَة بنت الحَارِثِ زَعِيم بني المصطلق، والتي أُخْذَت في السَّبْي، وكان هذا الزواجُ سببَ خَيْر وبَرَكَة على قومها، حيث أَطْلَقَ المسلمون أسراهم[3].

وفي هذه الغزوة ظهر كيد المنافقين من خلال حدثين عظيمين:

الأول: إثارة العصبية الجاهلية والتطاول على رسولِ الله ﷺ:

وابتداء هذا الأمر أن غلامين؛ أحدهما: من الأنصار. والآخر: من المهاجرين تشاجرا على الماء، فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار. وصرخ المهاجري: يا معشر المهاجرين. فغضب المنافق عبد الله بن أُبَي ابن سَلُول، وكان ممَّن حَضَر الغزوة،

(١) هو ماء يقع في وَادِي سِتَارَة، وهو أعلى وَادِي قُدَيْد. انظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة» للبلادي (ص ٢٩٠).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٣٦)، طبقات ابن سعد (٢/ ٦٣)، «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٤٠٥).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٥٧).

فقال: «أَوَقَدْ فَعَلُوهَا، قَدْ نَافَرُونَا وَكَاثَرُونَا فِي بِلَادِنَا، وَاللهِ مَا أَعَدَّنَا وَجَلَابِيبَ قُرَيْشٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ"، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا مَا فَعَلْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلَادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ أَمْسَكْتُمْ عَنْهُمْ مَا بِأَيْدِيكُمْ لَتَحَوَّلُوا إِلَى غَيْرِ دَارِكُمْ»[1].

فَسَمِعَ ذلك زَيْدُ بنُ أَرْقَمَ ﷺ فأبلغ رسولَ الله ﷺ به، فأشار عمرُ على رسول الله ﷺ بقتل هذا المنافق، فقال له رسول الله ﷺ: «فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ؟! لَا وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيلِ»، حتى ينشغل الناس عن حديثِ ابن سَلُول[2].

ثم أنزل الله ﷻ سورةَ المنافقين في طريق عودة المسلمين إلى المدينة، تَفْضَح ابنَ سَلُول ومَن كان على شاكلته من المنافقين، فجاء عبد الله بن عبد الله بن أُبَي ابن سَلُول، إلى رسولِ الله ﷺ يستأذنه في قتل أبيه، فقال له نبي الرحمة ﷺ: «بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِي مَعَنَا»[3].

الثاني: حديث الإفك على أمِّ المؤمنين عَائِشَةَ ﷺ:

وقصة هذه الحادثة: أن عائشةَ ﷺ كانت مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المُصْطَلِق، فلما انتهت الغزوة أَذِن رسولُ الله ﷺ بالرحيل، وفي إحدى مراحل الطريق رَحَل القوم ليلًا، فجاء الرجال الموكلون برحلها، فحملوا الهودج ويظنوها به، بينما هي قد ذَهَبَتْ تَقْضِي

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٩).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥)، سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٩).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٤).

حاجتها، وفقَدَت عقدًا لها، فأخذت تبحث عنه، فلما عادت عائشةُ ﵂ وجدت الناس قد ارْتَحَلُوا، فجلست في مكانها؛ لعلمها أنهم إذا فقدوها سيرجعون إليها، فجاء الصحابي الأمين صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ في الصَّبَاح، على راحلته، وكان قد أخذه النوم فتأخر عن الجيش، فلما رَأَى أمَّ المؤمنين عائشةَ ﵂، قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، ثم قَرَّب إليها راحلته، فركبت وسار بها حتى لَحِق الجيشَ، فلما رَأَى المنافقون -قاتلهم الله- هذا المنظر، تَكَلَّموا في عِرْضِ رسولِ الله ﷺ واستطالوا في ذلك، وزَلَّت بعضُ الأقدام، واهْتَمَّ رسولُ الله ﷺ لذلك، واُحتبس عنه الوحيُّ في هذا الشأن شهرًا كاملًا، ثم نَزَل الوحيُّ ببراءة أم المؤمنين عائشة ﵂، فَاضِحًا المنافقين الذين تطاولوا على عِرْض رسولِ الله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

وقد بَيَّنت الآياتُ في سورة النُّور حقيقةَ ما حَصَل، والآداب التي ينبغي للمسلمين أن يَتَأَدَّبُوا بها في مِثْلِ هذه الحَوَادِث[1].

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٩٦).

دُرُوس وعِبَر:

١- لقد عَزَّزَتْ هذه الغزوةُ مَكَانَةَ المسلمين وهَيْبَتَهم بين القبائل العربية الأخرى التي كانت تفكِّر في غزو المدينة النبوية[١].

٢- زواجُ رسولِ الله ﷺ من أم المؤمنين جُوَيْرِيَة بنتِ الحَارِث، ابنة زَعِيم بني المصطلق، فيه مِن الحِكَم الدَّعَوِيَّة العَدِيدَة، ومن ذلك: حِفْظ كرامة هذه القبيلة العربية التي تَعَرَّضَتْ للأسر، وما ترتب على ذلك من تَسَابُق الصحابةُ في إطلاق سراح أسرى بني المصطلق؛ أصهار رسولِ الله ﷺ، وما نَتَج عن ذلك من إسلام هذه القبيلة؛ بسبب هذا الزواج المبارك[٢].

٣- حِكْمَةُ رسولِ الله ﷺ في التعامل مع الشجار الذي حصل حول ماء المريسيع، وأَمْرُهُ النَّاسَ بالمَسِير، حتى ينشغلوا عن الحديث، وتوليد الكلام في أمرٍ مِن أمور الجاهلية، والعَصَبِيَّة القَبَلِيَّة إلى الاشتغال بأنفسهم[٣].

٤- أن عقيدةَ الولاء والبراء هي التي تحكم تصرفات المسلم، وعلاقته مع الآخرين، ويظهر ذلك في موقف الصحابي الكريم عبد الله بن عبد الله بن أُبَي ابن سَلُول، مِن والده المنافق، وفيه بيان: أن رابطةَ العقيدة مقدَّمة على جميع الروابط الأخرى.

٥- أما حادثة الإفك؛ فإنها حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمِحَن التي لقيها رسولُ الله ﷺ[٤]؛ ذلك مِن أَجْلِ تحطيم شخصِ

(١) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٧٧).
(٢) «السيرة النبوية» لمحمد أبو شهبه (٢/ ٢٥٣)، «مرويات غزوة بني المصطلق» إبراهيم قريبي (ص ٣٥١).
(٣) «فقه السيرة» للبوطي (ص ٢٨٤).
(٤) المرجع السابق (ص ٢٨٥).

رسولِ الله ﷺ وصرفِهِ عن الدعوة بأي وسيلة، حتى ينشغل عن الدعوة إلى الله بأهل بيته.

٦- وفي حادثة الإفك بيانٌ لبشرية الرسول ﷺ؛ إذ يجري عليه من الابتلاء ما يجري على سائر الناس[١]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

٧- وفي الحادثة بيانٌ أن الوحيَ الإلهي ليس شعورًا نفسيًّا، أو أمرًا خاضعًا لإرادته ﷺ كما يدَّعي الذين لا يعلمون؛ وإلا لكان مِن السهل على المصطفى ﷺ أن ينهي تلك المعاناة في مهدها، دون أن ينتظر شهرًا كاملًا مِن الألم؛ هو وأهل بيته -عليه الصلاة السلام-[٢].

٨- وفي الحادثة درسٌ في أهمية التَّثَبُّت والتعامل مع الإشاعات، والتي لم يَنْجُ منها، ومِن شَرِّها أيُّ مجتمع على مَرِّ التاريخ[٣]، قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٢-١٣].

٩- يُلَاحَظ اهتمام القرآن بذِكْر أوصافِ المنافقين، والإعراض عن أسمائهم، وفي هذا إشارة إلى أن هذا النوع مِن البشر يتجددُ وُجُودُه في كلِّ عَصْر[٤].

١٠- وعن تأخر الوحي شهرًا كاملًا يقول ابن القيم رحمه الله:

(١) «مرويات غزوة بني المصطلق» إبراهيم قريبي (ص ٣٥٣).
(٢) «فقه السيرة» للبوطي (ص ٢٨٧).
(٣) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٨٦).
(٤) المرجع السابق (ص ٤٨٢).

"لتتم العبودية المرادة من الصِّدِّيقة، وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم؛ ولتشتدَّ الفاقةُ والرغبةُ منها ومِن أبويها، والافتقارُ إلى الله والذُّلُّ له، وحسنُ الظَّنِّ به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النُصرة والفرج على يد أحد من الخلق... وأيضًا: فإن اللهَ ﷻ أحبَّ أن يُظْهِرَ مَنْزِلَةَ رسولِه وأهل بيته عنده وكرامته عليهم، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون لرسول الله فيه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك... وأيضًا: فإن رسولَ الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى الذي رميت به زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها"[1].

١١- إجماع العلماء على كفر مَن قَذَف عائشة ﵂ مما بَرَّأها الله ﷻ منه؛ لأن القرآنَ نزل ببراءتها، فمَن قذفها؛ فقد كَذَّب بشيء من القرآن -والعياذ بالله-[2].

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦٢).

(٢) «مرويات غزوة بني المصطلق» لإبراهيم قريبي (٣٢٩).

غَزْوَةُ الأَحْزَاب (الخَنْدَق)

في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة وَقَعَت غَزْوَةُ الأحزاب، وسببها: أن قريشًا، وزعماء اليهود في خَيْبَر، أثارت مخاوفهم النجاحات التي أحرزها المسلمون، وأدَّت إلى فرض هيبتهم على القبائل العربية، وحضورهم في كل الأحداث المهمة؛ مما أدَّى إلى تضييق الخناق على قريش: سياسيًّا، واقتصاديًّا.

فجاء وفدٌ من يهود بني النَّضِير الذين استقروا في خَيْبَر بعد إجلائهم من المدينة بزعامة حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ، وتَفَاهَموا مع قريشٍ على تَنْسِيق الجهود، وتأليب القبائل لاستئصال المسلمين بجهدٍ جَمَاعِي يَضُمُّ كلَّ القبائل الموتورة، والمتوجِّسَة مِن دولة الإسلام بقيادةِ رسولِ الله ﷺ[1].

وكان مِن حديث يهود: أن قريشًا سألوا يهود: أَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ؟ فقالوا لهم: بل دِينُكُمْ خَيْرٌ مِن دِينِهِ، وأنتم أَوْلَى بالحَقِّ منه!

وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٠-٥٥].

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٦)، طبقات ابن سعد (٢/ ٦٥).

فَفَرِحَتْ قريشٌ بذلك الثَّنَاء مِن قِبَل اليهودِ[1]؛ لا سِيَّمَا أنهم كانوا أهلَ كِتَاب، وما ذلك إلا لتستخدمه في دعايتها ضدَّ رسولِ الله ﷺ.

وبعد أن عَزَمَت قريشٌ على الحرب، انضمت إليها بنو سُلَيْم، وغَطَفَان، وأَسَد، وفَزَارَة، ومُرَّة، وأَشْجَع، وبذلك شَكَّلوا قُوَّةَ الأَحْزَابِ[2].

ولما جاءت الأخبارُ إلى رسولِ الله ﷺ بعزمِ الأحزاب على مهاجمة المدينة واستئصال المسلمين؛ استشار الصحابةَ، فأشار عليه سَلْمَان الفَارِسي رضي الله عنه بالبقاء في المدينة، وأن يَحْفِرَ خَنْدَقًا في الجهة الشمالية من المدينة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الأحزاب[3].

وشَرَع المسلمون بحفر الخَنْدَق بِجِدٍّ ونَشَاطٍ، ومعهم رسولُ الله ﷺ، ووقع في أثناء الحفر بعضُ دَلَائِل نُبُوَّتِهِ ﷺ، ومِن ذلك: البشارة بفتح الشام، والبشارة بفتح فارس، والبشارة بفتح اليمن، وكذلك تكثير الطعام القليل الذي لا يَكْفِي أهلَ بيتٍ واحدٍ؛ فإذ به يشبع جيشًا كاملًا[4].

استطاع رسولُ الله ﷺ حَشْدَ ثلاثة آلاف مقاتل، وتم وضعُ النساء والذراري في أحد الحُصُون، فلما وصلت قريش والأحزاب فوجئوا بالخَنْدَق ومِن خَلْفِهِ المسلمون بقيادةِ رسولِ الله ﷺ، فقرروا حصار المدينة، ومراسلة يهود بني قُرَيْظَة الذين كانوا داخل المدينة، فمالت يهودُ بني قُرَيْظَة إلى الأحزاب[5].

واشتعل النفاق، وقد وَصَفَ الله ﷻ هذا الموقف العَصِيب بقوله:

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٦).
(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٦)، «السيرة النبوية» لأكرم العمري (٢/ ٤٢٠).
(٤) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٥٦).
(٥) طبقات ابن سعد (٢/ ٦٧).

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

وقد طَالَ أمدُ الحِصَار، ونزل بالمسلمين من الكَرْب ما لا يعلمه إلا الله، حتى إنهم شُغِلوا عن أداء الصلاة في وقتها، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ، مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللهمَّ، اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»[(١)].

فأرسلَ الله ﷻ على الأحزابِ جُنْدًا من جُنْدِه؛ لنصرة عباده الموحِّدين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

ونَزَّل الرُّعْبَ في قلوب الأحزاب، وأصبح هَمُّ كلِّ واحدٍ منهم العودةَ إلى دياره، فانصرفوا مخذولين خائفين لم يَنَالوا شيئًا[(٢)]، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ مُبَشِّرًا أصحابَه رضي الله عنهم: «الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا ونَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»[(٣)].

(١) رواه البخاري (٤١١٥)، ومسلم (١٧٤٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ٧١)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٤٩ - ٤٥٥).
(٣) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٤٦٧).



خريطة موقعة الأحزاب

غَزْوَة بَنِي قُرَيْظَة

بعد رَحِيل الأحزاب، وَضَع رسولُ الله ﷺ سلاحَه واغتسل، فجاءه جبريلُ عليه السلام وقال له: قد وَضَعتَ السِّلَاح! والله ما وضعناه؛ فاخْرُج. قال: «فإلى أين؟» قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة[1].

وسببُ ذلك: أن بني قريظة ارتكبوا الخيانةَ العظمى، واتفقوا مع الأحزاب على الغَدْر بالمسلمين من الدَّاخِل، لكنَّ الله خَذَلَهم وكَبَتَهم، فَسَار إليهم رسولُ الله ﷺ وحاصرهم، فنزلوا ورضوا أن يحكمَ فيهم سعدُ بن مُعَاذ رضي الله عنه فجيء بسَعْدٍ، وكان يُعَالَجَ مِن جِرَاحِه، فقال سَعْد: "فإني أحكم فيهم: أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ، وَأَنْ تُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ"[2]. فقال له رسول الله ﷺ: «قَضَيْتَ فيهم بِحُكْمِ الله»[3].

(١) رواه البخاري (٤١١٧).
(٢) رواه البخاري (٤١٢١).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٩٤).

دُرُوس وعِبَر:

١- أهمية الأخذ بالأسباب المادية في قِتَال الأعداء، مثل: حَفْر الخَنْدَق، وأن الاستفادة مما لدى المشركين من أسبابٍ ماديةٍ، يُعَدُّ مِن الأمور المباحة ما لم يتعَارَض مع ثَوَابِت الإسلام، أو يكون سببًا لهدم الدِّين[١].

٢- على الدَّاعِيَة والقَائِد المُطَاع إذا أَمَر بخير أن يكون أول المبادِرين إليه، والمسهمين فيه، ويظهر ذلك: مِن اشتراك الرسولِ ﷺ مع أصحابه في حَفْر الخَنْدَق[٢].

٣- الثِّقَةُ بنَصْر الله، وأن جندَ الله هم الغالبون؛ رغم المُخَذِّلِين والمُرْجِفِين، ويظهر ذلك: مِن تَبْشِير المصطفى ﷺ لأصحابِهِ بفتح الشَّام، وفَارِس، واليَمَن، وهم في تلك الحالة من الكَرْب العَظِيم، وفي ذلك تحذير للأمة من الخُذْلَان والشَّكِّ في نَصْر الله، والواجب على الدُّعَاةِ: تحذير الأمة مِن الخذلان، والعمل على تَثْبِيت الناس في الشَّدَائِد التي قد تَطِيش فيها العقولُ[٣].

٤- إن أسبابَ انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب هي نفسها التي كانت سببًا للنصر في غزوة بَدْر؛ ألا وهي: التَّضَرُّع إلى الله، والإِقْبَال عليه بالدُّعَاء والاستغَاثَة، وإخْلَاص العبودية لله ﷻ، مع الأخذ بالأسبابِ والاستعدادِ بالمستطاع مِن القوة المادية[٤].

٥- وُجُوب قضاء الصلاة الفَائِتَة، وهو ما فعله رسولُ الله ﷺ وأصحابه عندما شغلهم الأحزابُ عن الصلاة[٥]، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن

(١) «فقه السيرة» للبوطي (ص ٢٩٦).
(٢) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٤٩٩).
(٣) المصدر نفسه (ص ٤٩٩- ٥٠٠).
(٤) «فقه السيرة» للبوطي (ص ٣٠٢).
(٥) «فقه الغزوات» لمحمود العيساوي (ص ٣٢٠).

عمر بن الخطاب ﷺ جاء يوم الخندق بعد ما غَرَبَتِ الشمس، وجَعَل يَسُبُّ كُفَّارَ قريشٍ، وقال: "يا رسولَ الله، ما كِدْتُ أن أصلي حتى كادت الشمس أن تَغْرُبَ"، قال النَّبيُّ ﷺ: «وَالله مَا صَلَّيْتُهَا» فنزلنا مع النَّبيِّ ﷺ بُطْحَان[1]، فتوضأنا لها، فَصَلَّى العَصْر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[2].

٦- جُوَازُ قِتَال مَن نَقَضَ العَهْد، وخَان الأمة[3].

٧- جَوَازُ تحكيم أهل العِلْم والعَدَالَة والصَّلَاح في أمور المسلمين ومهامهم العظام، وهذا مأخوذٌ من جَعْلِ رسولِ الله ﷺ أَمْر بني قريظة إلى سَعْد بن مُعَاذ ﷺ.

٨- أن يهودَ بني قُرَيْظَة عُوقِبوا بجنس ما كانوا يريدون فعله بالمسلمين لو انتصر الأحزاب، وهذا الحكم مُوَافِق لِمَا صَرَّحَتْ به تُورَاتُهم في حقِّ العَدُوِّ المهزوم، ففي سفر التثنية، الإصحاح ١٣، فقرة ١٣، ١٤: «وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورهم بالسيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك».

وهكذا، فإن ما حَكَمَ به سَعْدٌ ﷺ لم يَخْرُج عما حَكَمَتْ به التوراة، وهم ليسوا أعداءً مهزومين فحسب، بل هم خائنون غادرون، غير وافين بالعهد[4]. وقد أَقَرَّه النَّبيُّ ﷺ، وأخبره أنه مُوَافِق لحُكْمِ الله.

---

(١) اسم وَادٍ بالمدينة.

(٢) رواه البخاري (٤١١٢)، ومسلم (٦٣١).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٢/ ٩٢)، «فقه السيرة» لمحمد البوطي (ص ٣٠٧).

(٤) «السيرة النبوية» لمحمد أبو شهبة (٢/ ٤٠٩).

غَزْوَةُ بَنِي لَحْيَان

في شهر جُمادَى الأولى من السَّنَة السادسة من الهجرة، خَرَجَ رسولُ الله ﷺ لغزو بَنِي لَحْيَان؛ الذين غَدَرُوا بخُبَيْب رضي الله عنه وأصحابه من القُرَّاء في السنة الرابعة من الهجرة، فلما وَصَل المسلمون دِيَار بني لَحْيَان (قُرْب عُسْفَانَ) وجدوهم قد حَذِرُوا المسلمين، وتَفَرَّقُوا في رؤوس الجِبَال، فَعَاد ﷺ إلى المدينة[1].

ومِن فوائد هذه الغزوة: أن المسلمين لا يَنْسَون شهداءَهم الذين ضَحُّوا في سبيلِ الدعوةِ إلى الله، بل يثأرون لهم ولو بعد حين.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٦)، «السيرة النبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٣١٨).

غَزْوَةُ الغَابَة

وَقَعَتْ في السَّنَة السادسة من الهجرة، حيث أَغَار الأعرابُ على سَرْح رسولِ الله ﷺ؛ فأخذوا الإِبِلَ وقَتَلوا راعيها، فطاردهم المسلمون حتى استَنْقَذُوها منهم، واضطروهم للهَرَب[1].

ويظهر في إصرار المسلمين على مطاردة الأعراب وتأديبهم: الحرصُ على تَرْسِيخ هَيْبَة الدولةِ الإسلامية، ومعاقبة كلِّ مَن يعمل على الانْتِقَاصِ مِن سِيَادَة أُمَّة الإسْلَام.

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٥٢٦). والغابة: اسم مكان به أشجار الطرفاء وغيرها، شمال المدينة عند اجتماع أودية المدينة: قَنَاة وبُطْحَان، والعَقِيق، ويُسَمَّى الوادي بعد اجتماعها: بالخُلَيْلِ -مُصَغَّرًا-. انظر: «المعالم الجغرافية» للبلادي (ص ٢٢٣).

صُلْحُ الحُدَيْبِيَة

في شهر ذِي القَعْدَةِ مِن السَّنَة السادسة من الهجرة خَرَجَ رسولُ الله ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه إلى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا، حيث أَحْرَم وسَاق الهَدْي وأَشْعَرَه، فلما عَلِمَت قريشٌ بذلك تَهَيَّأت لحرب المسلمين وصَدِّهِم[1]، وحين بَلَغ رسولُ الله ﷺ ذلك تَفَادَى الصِّدَام معهم وحَوَّل طريقه عن مقاتليهم حتى وصل الحُدَيْبِيَة، وبَرَكَتْ نَاقَتُه، فقال الناس: «خَلَأَتْ القَصْوَاء». فقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»[2].

ثم عَسْكَرَ رسولُ الله ﷺ في الحُدَيْبِيَة، فقامت قريش بإرسال عدة رسل لمفاوضةِ رسولِ الله ﷺ، حتى انتهى الأمر إلى سُهَيْل بن عَمْرو الذي عَقَدَ مع رسولِ الله ﷺ صُلْحَ الحُدَيْبِيَة، نيابة عن قريشٍ.

وقد تَمَّ الاتفاق على البُنُودِ التَّالِيَة[3]:

١- تضع الحربُ أوزارها بين المسلمين وقريش مُدَّة عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفُّ بعضُهم عن بعض.

٢- أنه مَن أَتَى رسولَ الله ﷺ من قريش بغير إِذْن وليه يَرُدُّه على قريشٍ، ومَن أتى قريشًا ممَّن مع رسولِ الله ﷺ لم يردوه عليه!

٣- أنه مَن أحب أن يدخل في عقد محمَّدٍ وعهده دَخَل فيه، ومَن أحب أن يدخل في عقد قريش دخل فيه.

٤ - أن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة على أن يأتوها معتمرين العام القادم.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٤). ومعنى: «أَشْعَر الهَدْي»: وضع علامة وشَارَة تدل عليه.
(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١).

بَيْعَةُ الرِّضْوَان

حَصَلَتْ هذه البَيْعَة في أثناء غزوة الحُدَيْبِيَة؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ أرسلَ عُثْمَانَ بن عَفَّان رضي الله عنه إلى قريش ليستطلع أخبارهم، فَأُشِيع أنه قد قُتِلَ، فَدَعَا رسولُ الله ﷺ الصحابةَ إلى قتال قريش انتصارًا لعثمان رضي الله عنه فبايعوه على مُنَاجَزَة قريشٍ، وهذه البَيْعَة تُسَمَّى: "بَيْعَة الرِّضْوَان"، أو: "بَيْعَة الشَّجَرَة"[1]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٠- ٢١٣)، «فقه السيرة» للبوطي (ص ٣١٩).

دُرُوس وعِبَر:

تَضَمَّن صُلْحُ الحُدَيْبِيَة حِكَمًا وفَوَائِد جَمَّة، قال عنها ابن القيم رحمه الله: "هي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده"[(١)].

ومِن تلك الدروس والحِكَم:

١- تَوَجُّه رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا وهي بأيدي الكفار وتحت سلطانهم، هو مِن باب السياسة الشرعية، ويعرف في السياسة المُعَاصِرَة بقلب الطاولة على العدو، وإحراجه في المفاوضات، فإن قريشًا تدَّعي حمايةَ البيت واحترام مَن جاءه حَاجًّا ومعتمرًا؛ فكيف تصدُّ المسلمين وهم جاءوا عُمَّارًا؟

٢- ذهب أكثر أهل العلم إلى أن مقدار المدة التي تجوز بها مهادنة المشركين لا تزيد على عشر سنين، وتجدد إن كان هناك ضرورة أو مصلحة عليا للأمة يراها الإمام[(٢)].

٣- في معارضة بعض الصحابة لصلح الحديبية في أول الأمر، نأخذ منه اتهام العقل أمام النصوص الشرعية، والحذر من معارضة نصوص الشرع بالعقل والرأي[(٣)].

٤- من فوائد الصلح اعتراف قريش بالدولة الإسلامية، حيث جلست معهم وعاملتهم معاملة النِّدِّ للنِّدِّ[(٤)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٩).
(٢) «مرويات غزوة الحديبية» لحافظ حكمي (ص ٢٨٣).
(٣) «مرويات غزوة الحديبية» لحافظ حكمي (ص ٣٠١)، «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٥٣٩).
(٤) «السيرة النَّبوية الصحيحة» لأكرم العمري (٢/ ٤٥٠).

٥- تحييد قريش وتوقيف الصراع معها، وتَفَرُّغ الرسول ﷺ للدعوة، ومراسلة ملوك الأرض، وكذلك تفرغه ﷺ لتصفية وَكْر التَّآمُر اليهودي في خَيْبَر[١].

٦- لقد كانت الحديبية ابتداء الفتح المُبين على المسلمين؛ لما ترتب على الصلح الذي وقع بين الطرفين من الأمن ورفع الحرب، فتمكن مَن يخشى قريشًا من الدخول في الإسلام الوصول إلى المدينة، ثم تتابعت الأسباب إلى أن كَمُل الفتحُ بفتح مَكَّةَ[٢]. قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

٧- فضل مَن شهد بيعة الرِّضْوَان، وفضل عثمان رضي الله عنه الذي حَصَلَتْ لأجله تلك البيعة[٣].

(١) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٥٤٤).
(٢) فتح الباري (٧/ ٥٠٦).
(٣)) «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٥٤٥).

غَزْوَةُ خَيْبَرَ

بعد رُجوع رسولِ الله ﷺ من الحُدَيْبِيَة إلى المدينة، مَكَثَ فيها إلى دُخُولِ شهرِ مُحَرَّم من السَّنَة السابعة من الهجرة، ثم خرج إلى خَيْبَر لتصفية وَكْر التَّآمُر اليهودي الذي طالما حَاكَ الدَّسَائِس والمُؤَامَرَات على أمة الإسلام، فخرجَ رسولُ الله ومعه الذين حضروا الحديبية من الصحابة متوجِّهين إلى خَيْبَر، واستخدم ﷺ خطتين:

الأولى: المفاجأة للعدو، فما علمت اليهود إلا وقد نَزَلَ بهم.

الثانية: قطع الإمداد عنهم، حيث أظهر أنه يريد غَطَفَان، فخافت غَطَفَان ولم تتمكن من إمداد اليهود. ولما نَزَلَ بهم حَاصَرَهُم في حُصُونِهم حتى تَمَكَّن من فَتْحِها جميعًا عُنْوَة، وقد قَسَّم أرضها بين الفَاتِحين[1].

وتبع ذلك تَسْلِيم "فَدَك" مِن غير قِتَال، ثم غَزَا ﷺ تَيْمَاء، ووادي القُرَى، وهي مِن مراكز تَجَمُّعَاتِهم، واستسلمت له، وبهذا تمكَّن رسولُ الله ﷺ من القضاء على قُواهم السياسية وإن عاشوا في المجتمع المسلم أهلَ ذِمَّة وعَهْد.

وقد استعملَ النَّبيُّ ﷺ يهودَ خَيْبَر عُمَّالًا في المَزَارِع على شَطْر ما يَخْرُج منها[2]؛ وذلك لخبرتهم في الزراعة، ولما رأى فيه مِن المصلحة بعدم اشغال الصحابة بالزراعة؛ مما يؤثِّر على تفرغهم للجهاد والدعوة، وكانت أرض خيبر خِصْبَة غَنِيَّة بالزراعة، ووفيرة الإنتاج، قالت عائشة رضي الله عنها: «لما فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا: الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ»[3].

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٥٢٩)، «فقه السيرة» لزيد الزيد (ص ٥٥٣).
(٢) رواه البخاري (٤٢٤٨).
(٣) رواه البخاري (٤٢٤٢).

وقال عبد الله بن عمر ﷺ: «مَا شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا خَيْبَرَ»[١].

وقد تَزَوَّج النَّبيُّ ﷺ صَفِيَّةَ بنت حُيَيِّ بن أَخْطَب حيث وَقَعَتْ في الأَسْر؛ فأعتقها ﷺ وتَزَوَّجها، فجعل عِتَاقَها صَدَاقَها[٢]، وبَنَى بها في طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إلى المدينة[٣].

وعند فَتْح خَيْبَر قَدِم عليه جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِب عائِدًا من هجرته إلى الحَبَشَة ومعه جمع من المهاجرين، فيهم: أبو موسى الأشعري وجماعته، وقد قسم لهم رسولُ الله ﷺ من الغنيمة[٤]. وقد استعمل النَّبيُّ ﷺ سَوَاد بن غَزِيَّة مِن بَنِي عَدِي بن النَّجَّار أميرًا على خَيْبَر[٥].

(١) رواه البخاري (٤٢٤٣).
(٢) رواه البخاري (٤٢٠١).
(٣) رواه البخاري (٤٢١١، ٤٢١٢، ٤٢١٣).
(٤) رواه البخاري (٤٢٣٠).
(٥) رواه البخاري (٤٢٤٦، ٤٢٤٧)، وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٩٦).

دُرُوس وعِبَر:

١- تأميـن الحـدود الشـمالية لدولـة الإسـلام مـن عـدوٍّ طالمـا حـاك المؤامـرات والدسـائس علـى الإسـلام والمسـلمين.

٢- التفرُّغ للدعوة ونشر الإسلام، ومخاطبة ملوك الأرض.

٣- أخـذ الحيطـة والحـذر مـن اليهـود، وعـدم الاغتـرار والانخـداع بهـم، مـع الحـزم فـي التعامـل معهـم.

٤- أهمية المباغتة للعدو وحصاره، وقطع الإمداد عنه.

٥- فـي هـذه الغـزوة وقعـت بعـض دلائـل النبـوة، مثـل: نعـي النَّبـيِّ ﷺ لعامـر بـن الأكـوع قبل استشـهاده[١]، وتفله في عيـن علي رضي الله عنه لما أصابـه الرَّمَد فشـفي مباشـرة[٢]. وإخبار ذراع الشـاة المسـمومة له أن بها سُـمًّا[٣]، وكانت قد أهدتهـا له إحـدى نسـاء اليهود، وهي مِـن دسائسـهم وكيدهم.

٦- الحـرص علـى هدايـة النـاس إلـى ديـنِ الحـقِّ وإن كانـوا أعـداءً ومجرميـن، كمـا فـي وَصِيَّـةِ النَّبـيِّ ﷺ لعلـي رضي الله عنه عندمـا أعطـاه الرايـة وقـال لـه: «انْفُـذْ عَلَـى رِسْـلِكَ حَتَّـى تَنْـزِلَ بِسَـاحَتِهِمْ، ثُـمَّ ادْعُهُـمْ إِلَـى الإِسْـلَامِ، وَأَخْبِرْهُـمْ بِمَـا يَجِـبُ عَلَيْهِـمْ مِـنْ حَـقِّ اللهِ فِيـهِ، فَـوَاللهِ لَأَنْ يَهْـدِيَ اللهُ بِـكَ رَجُـلًا وَاحِـدًا، خَيْـرٌ لَـكَ مِـنْ أَنْ يَكُـونَ لَـكَ حُمْـرُ النَّعَـمِ»[٤].

(١) رواه البخاري (٤١٩٦).
(٢) رواه البخاري (٤٢١٠).
(٣) رواه البخاري (٥٧٧٧).
(٤) رواه البخاري (٤٢١٠).

الفصل الخامس

انتشار الإسلام ودخول الناس في دِينِ الله أَفْوَاجًا

انتشار الإسلام ودخول الناس في دِينِ الله أَفْوَاجًا

نشر الدعوة الإسلامية:

صلح الحديبية سَمَّاه الله: "فَتْحًا مُبِينًا"، وقد سَاد الأمن بين القبائل زمن الصلح، وانفتح الباب للدعوة إلى الإسلام، فقد تفرَّغ النَّبيُّ ﷺ لمراسلة الملوك والزعماء في داخل الجزيرة العربية وخارجها، فأرسل إلى هرقل عظيم الروم رسالة مع دِحْيَة الكَلْبِي وَرَدَ نَصُّها في الصحيح: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ»[1]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤][2]، ومع الردِّ الحَسَن من هِرَقْل؛ إلا أن حِرْصَه على مَنْصِبِهِ مَنَعَه أن يُسْلِم.

كذلك أرسل ﷺ عبدَ الله بن حُذَافَة السَّهْمِي إلى مَلِك البَحْرَيْن، ومِن ثَمَّ أوصلها إلى كِسْرَى الذي غَضِب ومَزَّق الرسالةَ[3]، وأرسل

(١) الأريسيون: الفلاحون والرعية.
(٢) البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).
(٣) رواه البخاري (٤٤٢٤).

إلى واليه على اليمن يأمره بإرسال مَن يعتقِل النَّبيَّ ﷺ ويوصله إليه! وبالفعل أرسل والي اليمن رجلين وصلا إلى المدينة، فأخبرهما ﷺ بأن ربَّه أهلك ربهما[1]، حيث استجاب الله دعاءَ النَّبيِّ ﷺ على كسرى، فوقعت ثورة قُتِل فيها، ثم ما زال أمرُهُم في نَقْصٍ حتى تَمَزَّقَت الدولةُ الفارسية، وانْمَحَتْ مِن الوجود فيما بعد في عهدِ الخلفاء الراشدين.

وممَّن راسله ﷺ المقوقس مَلِك الإسكندرية الذي قَابَل الرسالةَ بالاحترام والتقدير الذي يليق بها، وأكرم حاملها حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة، وردَه مُحَمَّلًا بالهدايا مع أنه لم يُسْلِم[2].

وكذلك أرسل ﷺ إلى النَّجَاشِي أَصْحَمَة، وقد أسلم ومات في حياة النَّبيِّ ﷺ ونَعَاه إلى الصحابة، وصلى عليه صلاة الغائب، ثم راسل مَنْ خَلَفَه ولم يكن مُسْلِمًا[3].

أما ملوك الجزيرة العربية الذين راسلهم رسولُ الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فمنهم: المُنْذِر بن سَاوَى أمير البحرين، الذي أسلم؛ فَأَقَرَّه الرسولُ ﷺ على بلده. وهَوْذَة بن علي الحَنَفِي صَاحِب اليَمَامَة؛ أرسل له النَّبيُّ ﷺ سَلِيط بن عَمْرو ﷺ برسالة ولم يُسْلِم. وملكا عُمَان: جَيْفَر وعَبَّاد ابنا الجُلَنْدِي اللذان وصلهما العَلَاء بن الحَضْرَمِي فأسلما[4].

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٥ - ٦٥٦). وقد حَسَّن الألباني ﷺ الخبرَ في تعليقه على «فقه السيرة للغزالي» (ص ٣٨٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٦)، طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٠).
(٣) فتح الباري (٨/ ١٢٩).
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٢٧٣).

دُرُوس وعِبَر:

١- الدلالة على عالمية الإسلام.

٢- احترام وتقدير الزعامات بعبارات الاحترام والتفخيم اللائقة.

٣- انتشار الإسلام في الجزيرة وخارجها حتى صار يُتحدَّث به، بل دخل فيه بعضُ الأفراد من خارج الجزيرة العربية.

٤- كان النَّبيُّ ﷺ يزاوج في نشر الإسلام والدعوة إليه بين السِّلْم والحَرْب بحسب مواقف الدول والقبائل من الدعوة، فيقدِّم ﷺ الدعوة؛ لكن إذا حصلت عقبة توجب المواجهة العسكرية؛ فإنه لا يتردد في المواجهة، كما في الغزوات التي وَقَعَت بعد صلح الحديبية.

غَزْوَةٌ مُؤْتَة

وقعت في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وسُمِّيت غزوة خلافًا لغيرها من السَّرَايَا؛ بسبب كثرة عدد الجيش حيث بلغ ثلاثة الآف مقاتل، وتعدد الأمراء، وحصول القتال فيها.

وسبب هذه الغزوة: أن رسولَ الله ﷺ أرسل من ضمن رسله إلى ملوك الأَرض وأمرائها: الحَارِث بن عُمَير الأَزْدِي رسولًا إلى مَلِك بُصْرى، فَعَرَض له شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْرو الغَسّانِي واعتقله وضَرَب عُنُقَه، فَغَضِب المصطفى ﷺ وجَهَّز جيشًا أَمَّر عليه ثلاثة أمراء خلافًا لسراياه، حيث جعل الأميرَ زيدَ بن حَارِثَة، فإن قُتِل فجَعْفَر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رَوَاحَة[1]، وأرسل الجيش إلى المكان الذي قُتِل فيه رسولُه الحارثُ بن عُمَير، وأمرهم بدعوة مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا قاتلوهم، وخرج مودِّعًا لهم حتى بَلَغَ ثَنِيَّة الوَدَاع، وقال لهم: «اغْزُوا بِاسْمِ الله، فقَاتِلُوا عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ، إنكم ستدخلون الشَّام وَسَتَجِدُونَ رِجَالًا فِي الصَّوَامِعِ مُعْتَزِلِينَ، فَلَا تَعَرَّضُوا لَهُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلَا تَقْطَعوا شَجَرَةً، وَلَا تَهْدِمُوا بِنَاءً»[2]، وعندما وصل الخبرُ الرومَ جَهَّز هِرَقْل مائة ألف مقاتل، وتبعه مائة ألف أخرى من العَرَب، من لَخْمٍ وَجُذَام وَبَلْقَيْنَ وَبَهْرَاءَ وَبَلِيٍّ، فلما بلغ جيش المسلمين مَعَان تشاوروا في أمرهم، وقالوا: "نكتب إلى رسولِ الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي"، فشجَّعهم عبدُ الله بن رواحة قائلًا: "يا قوم إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس

(١) رواه البخاري (٤٢٦١).

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١/ ٣٩١)، وانظر: «غزوة مؤتة» لبريك أبو مايلة (ص ٢٦٩).

بعددٍ، ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور، وإما شهادة. فقال الناس: "قد صَدَقَ والله عبدُ الله بن رواحة"[1].

وتَحَرَّك جيشُ المسلمين والتقى بالروم عند قرية مُؤْتَة، وهناك دارت رحى معركة غير متكافئة في العَدَد والعُدَد، ولكن الله ثبَّت عبادَه ووفَّقهم، حيث أثخنوا في جيش العدو، قال خالد بن الوليد ﷺ: «انقطع في يدي يوم مُؤْتَة تسعة أسياف!»[2]؛ فهذه الأسياف التي انقطعت في يده كم مِن الرِّقَاب والدماء أزالت وأسالت؟!

وقُتِل القائد الأول زيدُ بن حارثة ﷺ برماح الأعداء، فأخذ الراية جعفرُ بن أبي طالب ﷺ، فاقتحم عن فرسه ثم عقرها حتى لا يستفيد منها العدو، وثَبَتَ ثَبَات الأبطال حتى قُطعت يده التي تحمل الراية، فأخذ الراية باليسرى؛ وظل يقاتِل فقطعت أيضًا فحملها بعضديه، فصرعه أحد الفرسان، وقد عَوَّضَه الله بجناحين يطير بهما في الجنة[3].

وأخذ الراية عبدُ الله بن رواحة ﷺ وتردد قليلًا ثم جالد الأعداء حتى سقط صريعًا، ولما سقطت راية المسلمين حملها ثَابِت بن أَقْرَم الأنصاري وقال: "يا قوم اصطلحوا على رجلٍ منكم. فقالوا: أنت، فقال: ما أنا بفاعل". ثم اصطلح الناس على خالد بن الوليد ﷺ فدفعها إليه[4].

وكان ذلك في آخر النهار، وقد بَرَد القتال، فاتخذ خالد خطة

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٧٥).
(٢) رواه البخاري (٤٠١٧).
(٣) رواه البخاري (٣٧٠٩، ٤٢٦٤).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٧٩).

حربية محكمة حيث غيَّر مواقع الجند، فجعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، والمقدمة مؤخرة، والمؤخرة مقدمة، واختار عددًا من الفرسان وأمرهم بأن يثيروا الغُبَار فيظن العدو بأن هناك مددًا قادمًا، فأوقع الله في قلوب الروم الرعبَ فانسحبوا، وبذلك نصر الله جنده، ودليل النصر وهزيمه الكفار قوله ﷺ: «ثم أَخَذَ الرَّايَة سَيْفٌ من سُيُوف الله حتى فَتَحَ الله عليهم»[1].

ومع ما حصل من قتل القادة والشدة على جيش المسلمين؛ إلا أن عدد القتلى من المسلمين كان من القِلَّة بمكان، قال ابن كثير -رحمه الله-: «وهذا عظيم جدًّا أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين، أحدهما: وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عِدَّتُها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة وعِدَّتُها: مائتا ألف مقاتل؛ من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف أخرى، يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يُقْتَل مِن المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا، وقد قُتِل من المشركين خَلْقٌ كَثِير!»[2].

(١) رواه البخاري (٤٢٦٢).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٥٩).

دُرُوس وعِبَر:

١- أن النصر ليس بالكثرة، بل هو بالثبات، والصبر، وتقوى الله.

٢- قتل الرسل والسُّفَرَاء جريمة من الجرائم الشنيعة في عُرْف العُقَلَاء.

٣- ميزان التفاضل هو التقوى لا غير؛ ولذا وَلَّى ﷺ زَيْدَ بن حَارِثَة مولاه وقَدَّمه على ابن عمه الشريف القرشي، وابن رَوَاحَة الأنصاري.

٤- منزلة جَعْفَر ومَن معه مِن القَادَة، وأنهم مِن أهل الجنة[1].

٥- خالد بن الوليد سَيْف من سُيُوف الله كما قال المصطفى ﷺ، وقد وَهَبَه الله عبقرية عسكرية نادرة.

٦- مُؤْتَة أول لقاء بين المسلمين والروم، واكتسب المسلمون خبرة أفادتهم عند الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام.

٧- الوصية النَّبوية للجيش تمثِّل الرحمة وقمة الإنسانية، واحترام الإنسان؛ فلا تدمير للممتلكات، ولا قتل للضعفاء والعجزة، وغير المقاتِلين.

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥).

فَتْحُ مَكَّة المُشَرَّفَة

كان من شروط صلح الحديبية: أن لكل قبيلة الحق في أن تتحالف مع مَن شاءت. فأعلنت خُزَاعَة تحالفها مع محمَّدٍ ﷺ، وأعلنت بنو بكر تحالفها مع قريش، وكان بين هاتين القبيلتين ثَارَاتٍ جاهلية، وآخرها تمكُّن خزاعة من قتل أشراف بني كنانة من بني الأسود بن رَزْن الدِّيلي عند أنصاب الحرم من جهة عَرَفَة، وقد حَجَز الإسلام بينهم حتى كانت السنة الثامنة للهجرة حيث حانت فرصة لبني الأسود ابن رَزْن الدِّيلي للأخذ بثأرهم، حين اجتمعت خزاعة على ماءٍ يقال له: الوتير[1] بأسفل مكة، فهجدوهم ليلاً، وكان الأمر مباغتًا لخزاعة فلم تستعد لقتال؛ ولذا فروا من المكان باتجاه الحرم، وحينما دخلوا حدود الحرم قال أناس من بني الديل لزعيمهم نَوْفَل بن معاوية الدِّيلي: إلاهك، إلاهك، فقال كلمة عظيمة: "لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم"، فقاتلوا في الحرم وانتهكوا حرمته.

وكان المفترض أن قريشًا تمنع مثل هذا الاعتداء وتستنكره، ولكنها أعانت على خُزَاعة بالسلاح، وقيل: بل شارك بعضهم: كسُهَيل بن عَمْرو، وصَفْوَان بن أُمَيَّة، وغيرهما.

وأسرع عمرو بن سالم الخُزَاعي إلى المدينة ووقف أمام النَّبيِّ ﷺ وقال منشدًا هذه الأبيات:

يَا رَبِّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا

قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدًا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا

(١) الوتير: ماء في أسفل حي الكعكية الحالي بعد أنصاب الحرم. وقد هربوا منه جهة عرفة، ثم دخلوا الحرم من هناك. انظر: «معجم معالم السيرة النَّبوية» للبلادي (ص ٣٣١).

فَانْصُـرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَعْتَـدَا ... وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا

فِيهِـمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرَّدَا ... إِنْ سِـيمَ خَسْـفًا وَجْهُـهُ تَرَبَّـدَا

إِنَّ قُرَيْشًـا أَخْلَفُـوكَ الْمَوْعِـدَا ... وَنَقَضُـوا مِيثَاقَـكَ الْمُؤَكَّـدَا

هُـمْ بَيَّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجَّـدَا ... وَقَتَّلُونَـا رُكَّعًـا وَسُـجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرتَ يا عَمْرو بن سالِم»، ونظر إلى السماء فإذا سَحَابُ فقال: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»[1].

وقد شعرت قريش بخطورة الأمر؛ ولذا سار زعيمها أبو سُفْيَان ابن حَرْب إلى المدينة مُسْرعًا لاستجلاء الأوضاع، وقابل في الطريق بُدَيْل بن وَرْقَاء الخُزَاعِي في جماعة من خُزَاعَة عند عُسْفَان، فسأله: متى عهدكم بيثرب؟ فقال بُدَيْل: "لا عِلْم لنا بذلك"، فعلم أنهم كتموا أمرهم، وحاول استجلاء الخبر فلم يصل إلى شيء، وعند رحيلهم جاء مبرك نوقهم فوجد بعرها ففته فوجد نَوَى التَّمْر، فقال: "أحلف بالله لقد جاء القوم محمدًا"[2].

وعندما وصل المدينة اتَّجَه لابنته أم حبيبة أم المؤمنين ودخل عليها وعندما هَمَّ بالجلوس طَوَت الفراش عنه، فقال: "يا بنية أراغبة بالفراش عني؟ أم بي عنه؟"، فأجابته: "بل به عنك؛ لأنه فِرَاش الرسول ﷺ، وأنت رجل مُشْرِك، نَجَس"، فغضب منها، وقال: "والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرٌ"، فقالت: "لا والله، بل خير"[3].

وحاول تجديد العقد[4]، ولكنه فشل في ذلك حيث حاول مع

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٤).
(٢) «المغازي» للواقدي (٢/ ٧٩٢)، «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٥/ ٢٠٦).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٦).
(٤) في رواية أنه قال: «يا محمد جَدِّد العهد وزدنا في المدة. فقال رسول الله ﷺ: أوَلذلك

أبي بكر أن يكلِّمَ رسولَ الله، فقال: "ما أنا بفاعل"، ثم سار إلى عمر فقال له عمر: «أنا أشفع لكم عند رسول الله؟! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به».

وأخيرًا: انتهى إلى أن قام بالمسجد قائلًا أمام رسول الله ﷺ: "أيها الناس إني قد أجَرْتُ بين الناس، ولا والله ما أظنُّ أن يُخْفِرَني أحد"، فقال رسول الله ﷺ: «أنت تقول ذلك يا أبا حنْظَلةَ؟!»، وهذا عدم إقرار لكلامه ورد له. ثم عاد إلى مكة وأخبر قريشًا الخبرَ، فقالت: «ما فعلتَ شيئًا»[1].

وحَرَص رسولُ الله ﷺ عند التجهز على إخفاء أمره حتى يُباغِت قريشًا فلا تستعد للقتال حتى لا يحصل بمكة قتال لتعظيم الله ورسوله لها، ولكن حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة رضي الله عنه كَتَب لقريش يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ المسير إليهم، وأخبر الله رسولَه بخبر الرسالة، وأنها مع امرأة في رَوْضَة خَاخ[2]، فَبَعَث عَلِيًّا، والمِقْدَاد، والزُّبَيْر بن العَوَّام، فلما طلبوا منها الكتاب أنكرتْ، فقال علي: «إنَّا نَحْلِفُ بِالله مَا كَذَبَ رَسُولُ الله ﷺ وَلَا كَذَبْنَا وَلَتُخْرِجِنّ هَذَا الْكِتَابَ أَوْ لَنَكْشِفَنّكِ». فقالت: «أعرضوا»، وحَلَّت قرونَ رأسها واستخرجت الكتاب، ودعا رسولُ الله ﷺ حَاطِبًا، وقال له: «ما حَمَلَك على هذا؟» فقال: "يا رسول الله، إني امرؤ ليس لي في القوم مِن أصل، ولا عشيرة، وكان

قَدِمتَ؟ هل كان مِن حَدَثٍ قِبَلَكم؟ قال: مَعَاذ الله. قال رسول الله ﷺ: فنحن على عهدنا وصلحنا».

(١) قال أكرم العمري: «الخبر عند ابن حجر في المطالب العالية من مرسل محمد بن عباد بن جعفر بإسنادٍ إليه صحيح».

(٢) رَوْضَة خَاخ: موضع بقرب حَمْرَاء الأسد جنوب المدينة، وهي من حدود وادي العَقِيق. انظر: «المعالم الأثيرة» لمحمد شراب (ص ١٠٧).

لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر"، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صَدَقَكُم». فقال عمر: "دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق"، فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدْرِيك يا عُمَر أن الله ﷻ اطَّلَع على أصحاب بَدْر يوم بدر فقال: اعملوا ما شِئْتُم فقد غَفَرْتُ لَكُم»[1].

وقَدْ مَوَّه ﷺ كعادته في الخروج للغزو، فأرسل أبا قَتَادَة بن رِبْعِي إلى بطن إِضَم[2]؛ ليظن الظان أنه مُتَوجِّه صَوْب تلك المنطقة، وخرجَ رسولُ الله ﷺ في العاشر من رمضان بعد العصر وخَيَّر الناسَ بين الصوم والفطر، وسار حتى كان بالعَرْج[3]، وهو صائم فصبَّ على رأسه ووجهه الماء من العطش، وعند الجُحْفَة لقيه عَمُّه العَبَّاس مسلمًا مهاجرًا بأهله، فأرسل أهله إلى المدينة، وسار هو مع رسول الله ﷺ، ولما بَلَغ قُدَيدًا[4] لقيته سُلَيْم، وعَقَد الألوية والرايات، ودفعها للقبائل في قُدَيد.

وكان قد لقيه ابنُ عمِّه أبو سُفْيَان بن الحَارِث بن عبد المُطَّلِب، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية بن المُغِيرَة بِنِيقِ العُقَابِ[5]، فَرَدَّهما

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧).

(٢) إِضَمٌ: هو وادي المدينة إذا اجتمعت أوديتها الثلاثة -بُطْحَان وقَنَاة والعَقِيق- بَيْنَ أُحُدٍ وَالشَّرْثَاءِ يُسَمَّى الْوَادِي «الْخَلِيلَ» إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ كُتَانَةَ الَّتِي يَذْكُرُهَا «كَثِيرٌ» -وهي غَيْرُ كُتَانَةِ غَيْقَةَ- فَيُسَمَّى الْوَادِي: «وَادِيَ الْحَمْضِ» إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي البَحْرِ بَيْنَ الوَجْهِ وَأُمِّ لَجٍّ. هَذِهِ أَسَمَاؤُهُ الْيَوْمَ، أَمَّا اسْمُهُ قَدِيمًا، فَكَانَ يُسَمَّى: «إِضَمًا» مُنْذُ اجْتِمَاعِ تِلْكَ الرَّوَافِدِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ. «معجم المعالم الجغرافية» لعاتق البلادي (ص ٢٩).

(٣) العَرْج: وادي من أودية الحِجَاز يمر به طريق الحاج، وهو على بعد ١١٣ كم من المدينة. المرجع السابق (ص ٢٠٣).

(٤) قُدَيد: بضم القاف وفتح الدال المهملة، وهو مِن أودية الحجاز التهامية يأخذ مياهه من حَرَّة ذَرَة، ويسمَّى أعلاه وادي سِتَارَة، ويقطعه طريق المدينة عند الكيلو ١٢٠، ويصب في البحر عند بلدة القَضِيمَة. المرجع السابق (ص ٢٤٩).

(٥) نِيق العُقَاب: موضع قرب الجحفة. معجم البلدان (٥/ ٣٣٣).

فَتَوجَّهت لهما أمُّ المؤمنين أمُّ سَلَمَة وقالت: "لا يكون ابن عمك وصِهْرك أشقى الناس بك"، فقبلهما وأسلما[١]، وعندما بلغ الكَدِيد[٢] أفطر وقت العصر وهو على دابته حتى يراه الناس، وبقي مفطرًا حتى آخر الشهر[٣].

وعسكر جيشُ الرسول ﷺ في مَرِّ الظَّهْرَانِ[٤]، وأمر الناس بإيقاد النيران، واستأذن العَبَّاسُ رسولَ الله ﷺ أن يأخذ بغلته لعله يجد أحدًا من الحَطَّابة أو غيرهم حتى يُبلِّغوا أهل مكة بالمسارعة إلى لقاءِ رسولِ الله ﷺ ويطلبوا الأمان، فسار على بَغْلَة الرسولِ ﷺ، وإذا بصوت أبي سفيان يحادِث بُدَيْل بن وَرْقَاء قائلًا: "ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا! فقال بُدَيل: هذه والله خُزَاعَة حَمَشَتْهَا الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، وهنا سَمِع العباسُ الصوت وعرفه. فقال: يا أبا حنظلة، فقال: لبيك يا أبا الفضل. فقال العباس: ويلك! هذا رسول الله ﷺ في عشرة الآف، فقال: واصباح قريش والله، بأبي أنت وأمي فما تأمرني؟ هل من حيلة؟ قال: نعم، اركب عجز هذه البغلة فأذهب بك إلى رسولِ الله ﷺ فأستأمنه لك.

فحمله العباس وسار، وكلما مَرَّ بنار، قال الناس: مَن هذا؟ حتى مر بنار عمر بن الخطاب فعرفه عمر فقال: أي عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهدٍ فأسرع العباس يركض البغلة حتى

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٠).
(٢) الكَدِيد: بفتح الكاف وكسر الدال، يقع بين عُسْفَانَ وَخُلَيْصٍ على مسافة ٩٠ كم من مكة «معجم المعالم الجغرافية» لعاتق البلادي (ص ٢٦٣).
(٣) رواه البخاري (١٩٤٤، ١٩٤٨).
(٤) بَلْدَة الجُمُوم اليوم.

دخل على رسول الله ﷺ عليه، وقبل أن يتكلم وإذا بعمر يقول: يا رسول الله: هذا أبو سفيان قد أَمْكَن الله منه بغير عَقْدٍ ولا عَهْدٍ، فدعني فلأضرب عنقه. قال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته، ولكن عمر كان يُلح، فغضب العباس وقال: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عَدِي بن كَعْب ما قلتَ هذا، ولكنك عرفتُ أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ مِن إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامَك كان أحبَّ إلى رسولِ الله من إسلام الخطاب لو أسلم"[1].

واستأذن العباس بأن يأخذ أبا سفيان في رَحْلِه، وفي الصباح جاء به إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وأوقفه العباس بأمرِ رسولِ الله في عرجة الوادي حتى يرى قوةَ جيش المسلمين، وسارت أمامه الكتائب حتى مَرَّ به سَعْد بن عُبَادَة فقال: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذَلَّ الله قريشًا"، فاشتكى أبو سفيان للرسول ﷺ، فقال ﷺ: «بل اليوم تعظَّم الكعبة، اليوم أعَزَّ الله قريشًا، وعَزَلَ سعدًا وولَّى ابنه قَيْس»[2].

وقال أبو سفيان للعباس: "لقد عَظُم ملك ابن أخيك اليوم، فقال العباس: إنها النُّبوة. قال: نعم". وأعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان فضلًا وشرفًا حيث قال: «مَن دَخَل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومَن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمِن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمِن»[3].

وقسَّم رسولُ الله ﷺ الجيش إلى كَتَائِب، منها: كتيبة عليها الزُّبَيْر

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٣)، ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٧٥)، «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٢١٦).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٠٢).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٥).

وأمرها أن تدخل مكة من كَدَاء (الحُجُون). وكتيبة يقودها: خَالِد بن الوَلِيد وأمرها أن تدخل مكة من أسفلها من كُدَى (جبل الكعبة). وقد جمع بعض زعماء مكة قوة صغيرة عليها عِكْرِمَة، وصَفْوَان، وسُهَيْل عند جبل خَنْدَمَة، ومعهم شاب يقال له: حِمَاسُ بن قَيْس رأته امرأته يصلح سلاحه، فقالت: لمن تفعل هذا؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما أراه يقوم لمحمدٍ وأصحابه شيء. قال: إني والله أرى أني سأخدمك بعض أصحابه، فخرج وبعد وقت ليس بالطويل عاد وَجِلًا خائفًا، وأغلق الباب، وقال لامرأته: أحكمي غلق الباب. قالت: أين الخدم؟ فقال:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتُ يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ... إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

وَأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالْمُوتَمَهْ ... وَاسْتَقْبَلَتْهُمْ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَهْ

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهْ

لَهُمْ نَهِيتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ[1]

ودخل رسولُ الله ﷺ من أَذَاخِر (رِيع ذَاخِر)، ورَأَى السيوف تلمع، فقال: ما هذا ألم أَنْه عن القتال؟ فقالوا: يا رسول الله، خالد بن الوليد قوتل ولو لم يُقَاتَل ما قَاتَل، وما كان يا رسول الله ليعصيك، ولا ليخالف أمرك، فقال رسول الله ﷺ: قضاء خير. ودخل رسول الله ﷺ مكة.

ومِن تواضعه وشكرِه لله على نعمته: أن فتح الله عليه البلد الحرام، كانت لِحيته تكاد تمَسُ رحلَه.

وسار حتى وصل البيت الحرام، وفي يده قوس، فصار كلما مَرَّ

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٨)، سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٢٢٩).

بصنمٍ أشار إليه وطعنه في عينيه، والأصنام تتساقط، وهي ثلاثمائة وستون صنمًا وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

ثم دخل دارَ أمِّ هانيء بنت أبي طالب فقدَّمت له كسر خبز يابس فكسرهن بالماء والخل، وصلى في دارها ثماني ركعات[١]؛ قال بعض العلماء: إنها صلاة الشكر، وقد فعلها سعد بن أبي وقاص يوم دَخَل المَدَائِن، وقال بعضهم: بل هي صلاة الضحى.

وكان قد أمر برجال ونساء أن يقتلوا أينما وجدوا، منهم: عبد الله ابن خَطَل، وُجِد متعلقا بأستار الكعبة فَقُتِل، وعِكْرِمَة بن أبي جَهْل، وصَفْوَان بن أُمَيَّة، وقد فَرَّا بعد الهزيمة جهة اليمن؛ كلًّا على حِدَة، فأسلمت أم حكيم امرأة عكرمة، وطلبت الأمان لزوجها، فوهبه لها رسول الله ﷺ، فلحقت به حتى أعادته إلى مكة، واستقبله رسول الله ﷺ، وأوصى أصحابه قائلًا: يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت[٢]، ولما أقبل على النَّبيِّ ﷺ قال له: مرحبا بالراكب المهاجر.

وأما صفوان فطلب صاحبه عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي مِن رسولِ الله ﷺ أن يؤمِّنه شهرين، وسار عمير حتى لَحِق به، وأخبره الخبر، وعاد صَفْوَان ولا زال الخوف والوجل في قلبه، فلما وقف على رسول الله ﷺ وقد صلى بالناس العصر في المسجد، قال له صائحًا: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سيرتني شهرين، فقال: انزل أبا

(١) صلاته ثابتة في صحيح البخاري (٤٢٩٢).
(٢) «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٢٥٣).

وهب، قال: لا والله حتى تبيِّن لي، قال: بل لك تسيير أربعة أشهر، فنزل صفوان[1].

وكان ممَّن أهدر دَمَه عبد الله بن سَعْد بن أبي السَّرْح، وكان قد أسلم ثم ارتد. وجاء به أخوه من الرَّضَاعَة عُثْمَان بن عَفَّان ورسول الله ﷺ في جماعة، وصار يستشفع له ويطلب الصفح عنه ورسول الله ﷺ لا يتكلَّم، حتى طال الوقت فأعطاه الأمان، فخرج مع عثمان، فقال ﷺ: «أما فيكم رجلٌ رشيد يقوم إلى هذا حين رأى أني قد صَمَتُّ فيقتله». فقالوا: يا رسول الله، هَلَّا أومأت إلينا. فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنةُ الأَعْيُن»[2].

وأمر ﷺ بلالًا أن يصعد على الكعبة ليؤذن لصلاة الظهر؛ وليغيظ المشركين، وبالفعل حَصَل هذا، فقال أحدهم: لقد أكرم الله أبي أن لا يكون سَمِع هذا فيسمع ما يغيظه، وقال الآخر: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعته. وقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمتُ لأخبرتْ عني هذه الحصاة، فقال لهم رسول الله ﷺ: "قد علمت الذي قُلْتُم"[3].

وخَطَب رسولُ الله ﷺ بمكة خطبةً عظيمة أبانت عن كَرَم خُلُقِهِ وحِلْمِه وعَفْوِه وتجاوزه، حيث قال فيها: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم، وابن أخ كريم وقد قَدَرْتَ، فقال رسولُ الله ﷺ: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء[4].

(١) «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٢٥٤).
(٢) رواه أبو داود (٤٣٥٩)، وصححه الألباني.
(٣) «المغازي» للواقدي (٢/ ٨٤٦)، «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٣٧٣).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢) وسنده ضعيف، ولم يثبت لفظ: «الطلقاء» مِن قول النَّبيِّ ﷺ، لكن ورد لفظ الطلقاء في صحيح البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٨٠٩) وَصْفًا لمسلمة الفَتْح،

وكان ﷺ قد أخذ مفتاح الكعبة فدخلها بعد أن طُهِّرت من الصور التي بداخلها وكَبَّر في نواحيها وصلى ركعتين، ثم سَلَّم مفتاح الكعبة لعثمان ابن طَلْحَة، وقال له: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظَالِم[١].

وأرسل رسولُ الله ﷺ السرايا لهدم الأصنام ودعوة القبائل المحيطة بمكة، فأرسل خالد بن الوليد لهدم العُزَّى، وخالد بن سعيد ابن العاص إلى عُرَنَة، وهشام بن العاص قِبَل يَلَمْلَم، وسعد بن زَيْد الأَشْهَلي إلى مَنَاة الطاغية عند المُشَلَّلِ من قُدَيْدٍ، وعمرو بن العاص إلى رُهَاطٍ لهَدْم الصَّنَم سُوَاع.

وبقي رسولُ الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة يقصر فيها الصلاة[٢].

وفي البخاري روايتان: الأولى: عن أنس: أنهم أقاموا عشرًا. والثانية، عن ابن عباس: تسع عشرة ليلة[٣].

وقد رتَّب رسولُ الله ﷺ أمور مكة فَعَيَّن عليها عَتَّاب بن أَسِيد أميرًا عندما خرج إلى حُنَيْن، كما عَيَّن أبا مَحْذُورَة مؤذنًا للمسجد الحرام، وأمر مُعَاذ بن جبل بتعليم الناس السُّنَن والفقه والتدريس في المسجد الحرام، وأضاف معه بعد رجوعه من الطَّائِف أبا موسى الأشعري.

وبعث تَمِيم بن أَسَد الخُزَاعِي فَجَدَّد أنْصَاب الحَرَم[٤]، وخطب ﷺ في الناس موضِّحًا حُرْمَة مكة، وقال: «إن الله حَرَّم مكةَ يوم خلق السماوات والأرض، وقد أَذِن الله له بالقتال فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت»[٥].

وهو ليس وصفَ تحقير، وإنما هو بيان واقع وحال.

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٧)، وهو في «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٣٦٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٢٩٧، ٤٢٩٨).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٧).

(٥) رواه البخاري (٤٣١٣).

دُرُوس وعِبَر:

١- كان فتح مكة من أهم الإنجازات التي قام بها رسولُ الله ﷺ حيث كانت قريش تمثِّل القيادة للعرب، وبسقوطها سقطت بقية البلاد بسهولة، فقد روى البخاري عن عمرو بن سلمة قال: كانت العرب تتلوم بإسلامها الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح؛ بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قَوْمَه بإسلامهم[1].

٢- حُرمة مكة وتأكيد رسولِ الله ﷺ على ذلك بفعله وقوله.

٣- تواضع الرسول ﷺ عند دخوله مكة فاتحًا، وهذه من أخلاق الأنبياء.

٤- العصبية والتفاخر باللون والنَّسَب من سمات أهل الجاهلية.

٥- قوة إيمان عمر رضي الله عنه حيث يقدِّم ما يحب رسولُ الله ﷺ على ما تحبه نفسه.

٦- تحطيم الأصنام التي حَوْل الكعبة، وطمس الصور التي على جُدْرَانِها، وإزالة الأصنام الكبار حول مَكَّةَ، مِثْل: العُزَّى، وسُوَاع، ومَنَاة؛ مما أزال عن الناس الرهبة والخوف من تلك الأصنام الذي سيطر على قلوبهم زمنًا طويلًا؛ مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا.

(١) رواه البخاري (٤٣٠٢).

غَزْوَة حُنَيْن

لما عَلِمَت هَوَازِن بدخول النَّبيِّ ﷺ مكة وفتحها، صارت تجمع القبائل استعدادًا للحرب، للمبادرة قبل أن يغزوها رسولُ الله ﷺ، واجتمع لها من القبائل: ثَقِيف، ونَصْرٌ وجُشَمٌ كُلُّهَا، وَسَعْدُ بن بَكْرٍ، وغيرهم. وغاب عنها مِن هَوَازِن فرعا كَعْب وكِلَاب. وقادهم شابٌ في الثلاثين من عمره هو مَالِك بن عَوْفٍ النَّصْرِي.

وكان في جُشَم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ، وهو يومئذٍ ابن ستين ومائة، وهو شيخ قد عَمِي، ليس فيه إلا التَّيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخًا مجرِّبًا.

واجتمع الناس بأَوْطَاس[1]، فسمع دُرَيْد الأصوات، فسأل: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الْخَيْلِ؛ لَا حَزْنٌ ضَرِسٌ، وَلَا سَهْلٌ دَهِسٌ مَا لِي أَسْمَعُ بُكَاءَ الصّغِيرِ، ورُغَاءَ الْبَعِيرِ، ونُهَاقَ الحَمِيرِ،، وَيُعَارَ الشَّاءِ، وخُوَار البَقَر؟! قالوا: ساق مالك مع الناس أبناءَهم، ونساءَهم، وأموالهم، فاسْتَدْعَى مالكًا واسْتَنْكَر عليه إحضار الأموال والذرية، فقال مالك: أردتُ أن أجعل خَلْفَ كل إنسان أهله وماله يقاتل عنهم؛ فَأَنْقَضَ[2] به، وقال: راعي ضَأْن والله، ما له وللحرب! ثم قال: هل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك.

وأصر مالك على رأيه وهدد بقتل نفسه إن لم تطعه القبائل، فأطاعوه، فقال دُرَيْد بن الصمة: هَذَا يَوْمٌ لَمْ أَشْهَدْهُ، وَلَمْ يَفُتْنِي.

(١) سهل يقع على طريق الحاج العراقي شمال بلدة عشيرة. انظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة» للبلادي (ص ٣٤).

(٢) أي: زَجَرَه زجرًا شديدًا.

يَـا لَيْتَنِـي فِيهَـا جَـذَعْ ... أَخُـبُّ فِيهَـا وَأَضَـعْ
أَقُـودُ وَطْفَـاءَ الزَّمَـعْ ... كَأَنَّهَـا شَـاةٌ صَـدَعْ

وأرسـل رسـولُ الله ﷺ عبـدَ الله بـن أبـي حَـدْرَد الأَسْـلَمي ليتأكـد مـن جمعهـم وخروجهـم، واسـتطاع ﷺ الدخـول فيهـم، فرجـع وأخبـر النَّبـيّ ﷺ بالخبـر، وقـد احتـاج ﷺ سـلاحًا فاسـتعار مـن صَفْوَان بـن أُمَيَّـة أَدْرُعًـا، وقال صفـوان: أغَصْبًـا يـا محمـد؟ قـال: بـل عَارِيـة مَضْمُونَـة حتـى نردهـا إليـك. فأعطاهـم مائـة درع، وحملهـا لهـم[1]، واسـتعار ﷺ مـن نَوفل بـنِ الحارث بن عبـد المطلب ثلاثـة الآف رمـح[2].

وخَـرَج رسـولُ الله فـي عشـرة الآف قَدِمـوا معـه مِـن المدينـة ومـا حولهـا، وألفـان ممَّـن أسـلم بمكـة، وذلـك فـي شـوال مـن السـنة الثامنـة.

ومـر بمَـن معـه علـى شـجرة يعظمهـا أهـل الجاهليـة تسـمَّى: ذات أنْـواطٍ[3] يُعلِّقـون بهـا أسـلحتهم، ويذبحـون عندهـا، ويعكفـون عليهـا يومًـا، فقـال بعـض حُدَثـاء الإسـلام: يـا رسـول الله، اجعـل لنـا ذاتَ أنـواطٍ كمـا لهـم ذاتُ أنـواط. فقـال ﷺ: الله أكبـر، قلتـم والـذي نفسـي بيـده كمـا قـال قـوم موسـى لموسـى: ﴿اجْعَـلْ لَنَـا إِلَهًـا كَمَـا لَهُـمْ آلِهَـةٌ قَـالَ إِنَّكُـمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُـونَ﴾ [الأعـراف: ١٣٨]، إنهـا السُّـنن، لتركبـن سَـنَن مَـن كان قَبْلَكـم[4].

وقـال بعـض مَـن خـرج فـي جيـش المسـلمين: لـن نُغلـب اليـوم مـن قِلَّـة، إعجابـا بكثرتهـم، فأنـزل الله تعالـى: ﴿وَيَـوْمَ حُنَـيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُـمْ

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٨٤).
(٢) «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٣٨٥)، «الإصابة» لابن حجر (٣/ ٣٢١).
(٣) ذَات أَنْوَاط: شجرة سِدْر عظيمة، يأتونها في الجاهلية ويعلِّقون بها أسلحتهم. وقيل: يعلِّقون بها أرديتهم قبل دخولهم الحرَم تعظيمًا للبيت، وهي قريبة من مكة. «المعالم الأثيرة» لمحمد شراب (ص ٢٣).
(٤) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الألباني.

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وتقدَّم المشركون من سَهْل أَوْطَاس نحو مَكَّةَ، والتقى الجيشان في وادي حُنَيْن[١] -وهو وادي أَجْرَد حَطُوط ذو شِعَاب ومَضَايق- وكان قائد المشركين قد عَبَّأ أصحابه من آخر الليل وفرَّقهم في الشِّعَاب، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ حملة واحدة.

ورتَّب ﷺ أصحابه وصفَّهم صفوفًا بالسَّحَر، ثم ساروا في الوادي في عَمَايَةِ الصُّبْحِ[٢] فما راع الناس إلا الكتائب تشد عليهم شدة رجل واحد، فانكشفت مقدمة جيش المسلمين؛ فولوا الأدبار، وتبعهم أهل مكة، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على أحدٍ، وارتفع الغبار،

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: أيها الناس هلم إليَّ، هلم إليَّ أنا رسول الله، أنا محمَّد بن عبد الله. وأمر العباسَ أن ينادي بصوته الجَهْوَريِّ: يا أهل السَّمُرَة، يا أهل سورة البقرة وآل عمران، وأخذ رسول الله ﷺ يُرْكِضُ بَغْلَتَه تجاه العدو، وهو يقول: أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب[٣]،

ولما رأى بعض أهل مكة الهزيمة تَكَلَّموا وقالوا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أحدهم: ألا بَطَل السِّحْرُ اليوم! فقال صَفْوَان بن أُمَيَّة -وهو مشرك يومئذٍ-: اسْكُتْ فَضَّ الله فَاكَ، فَوَالله لَئِنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أن يربني رجل مِن هَوَازِنَ[٤].

(١) هو وادي الشرائع العليا -شرائع النخل- وأعلاه يسمَّى: الصدر، والخبر أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٥/ ١٢٤) من طريق يونس بن بكير.
(٢) عَمَاية الصُّبْح: أي: ظلمته وغلسه قبل انتشار النُّور.
(٣) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٨٧).

وصار مَن يسمع صوتَ النَّبيِّ ﷺ وصوتَ العباس يُردِّد، ومَن يسمع وهو منهزم يعود سريعًا، حتى إن بعضَهم نزل عن دابته خشية أن يتأخر في الاستجابة، ومَن بقي على دابته ما عاد إلا وقد انتهى الأمرُ وهزم اللهُ المشركين، فمنهم مَن فَرَّ، ومنهم مَن قُتِل، ومنهم مَن كُتِّف وأُسِرَ، وجيء بالنساء، والإبل والغنم والبقر، والأموال.

وكان ﷺ قد تَعَرَّض لمحاولة اغتيال من قِبَل شَيْبَة بن عثمان[١]، فقد استغل ارتداد مُقدمة جيش المسلمين أمام هَوَازِن فقال في نفسه: اليوم أدرك ثأري، وكان أبوه قتل يوم أُحُد مشركًا، فاقترب من الرسول ﷺ، فالتفت إليه وقال: يَا شَيْبَ، اُدْنُ مِنِّي! فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي وَقَالَ: اللهمَّ، أَذْهِبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ! قَالَ: فَرَفَعْت إلَيْهِ رَأْسِي وَهُوَ أَحَبّ إلَيَّ مِنْ سَمْعِي وَبَصَرِي وَقَلْبِي![٢].

وثَبَتَ مع النَّبيِّ ﷺ يومئذٍ عَمُّه العَبَّاس، وابن عَمِّه أبو سُفْيَان بن الحَارِث بن عبد المطلب في ثمانين رجلًا من المهاجرين والأنصار. ونَظَر رسولُ الله ﷺ إلى قِتَال الناس فقال: هذا حين حَمِي الوَطِيس، ثم أخذ حَصَيات فَرَمَى بهن وجوهَ الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد[٣]. وأمدَّ الله رسولَه الكريم ﷺ بالسكينة ونزول الملائكة. وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦][٤].

وجَمَعَ رسولُ الله ﷺ الغنائم، وأمر بها أن توضع بالجِعْرَانَةِ[٥] وبقيت

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٤).
(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ١٤٥)، وانظر: «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٣٢٠ - ٣٢١).
(٣) رواه مسلم (١٧٧٥).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٨).
(٥) الجِعْرَانَة: بلدة معروفة تقع شمال مخططات الشرائع، وهي مِن الحِلِّ، وبها مسجد يُحْرِم منه بعض الحُجَّاج بالعمرة.

بها حتى عَاد مِن الطَّائِف. وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة. وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

ولما انهزمت هَوَازِن انقسمت فرقتين: فرقة رجعت إلى أَوْطَاس، والأخرى ذهبت إلى الطائف، فأرسل رسول الله ﷺ سرية بقيادة أبي عامر الأشعري لمطاردة فُلُول هوازن بأوطاس فقاتلهم، وقُتِلَ رضي الله عنه؛ فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن أخيه، فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم[1].

(١) «المغازي» للذهبي (ص ٥٨٩). وانظر: صحيح البخاري (٤٣٢٣).

غَزْوَةُ الطَّائِف وحِصَارها

سار النبيُّ ﷺ من حُنَينٍ إلى الطَّائِف على طريق نَخْلَة اليمانية، ثم على قَرْن المَنَازِل، وسلك على الْمُلَيْحِ[١]، ثم على بَحْرَةِ الرُّغَاءِ، حيث التفَّ على الطائف حتى خَرَج عليها من جنوبها جهة لِيَّة[٢]، وهَدَم حِصْن مَالِك بن عَوْف في لِيَّة، ووصل الطائفَ وحاصرها، وعسكر بجيشه قُرْب حصنهم؛ فآذتهم السهام والسكك المحمية بالنار، حتى إن أبا سفيان بن حرب أصيبت عينه فجاء بها في يده، فخيره بها أو بمثلها في الجنة، فاختار ما في الجنة ورمى بعينه[٣].

فابتعد ﷺ عن الحصن ودعاهم إلى المبارزة فلم يخرج منهم أحدٌ، ودعا الموالي للخروج ومَن خرج فهو حر، فأتاه بضعة عشر. وقيل: ثلاثة وعشرون، منهم: أبو بَكْرة نُفَيعُ بن الحارث بن مسروحٍ الثقفي، وسمي بذلك؛ لأنه تَدلَّى من الحصن ببكرة[٤].

واستخدم رسولُ الله في حصار الطائف أسلحة يستخدمها لأول مرة، مثل: المَنْجَنِيق التي أشار بها سَلْمَان الفَارِسِي، وكذلك حاول اقتحام الحصن بما يُسَمَّى بالدبابة، وهي: عبارة عن ما يشبه الصندوق الخشبي مغلق من ثلاث جهات ومغطى من الأعلى بالخشب أو الجلد يحمله الجند ويسيرون إلى الحصين في محاولة لإحداث ثغرة فيه،

(١) المُلَيْح: وادٍ يصب في وادي قَرْن من الشرق، وأعلاه يسمَّى السَّيْل الصغير. «معجم المعالم» للبلادي (ص ٢٥٤).

(٢) لِيَّة: بكسر اللام وتشديد الياء، وادٍ مِن أودية الطائف يسير من السَّرَاة ويمر جنوب الطائف، ويدفع في سهل رُكْبَةٍ شرق الطائف. المصدر السابق (ص ٢٧٤). وبَحْرَةُ الرُّغَاء: في طرف لِيَّة من الجنوب، والمراد: المكان المتسع (المصدر نفسه ص ٢٥٤).

(٣) انظر: الإصابة (٢/ ٢٧٩)، «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٩٢).

(٤) قصة أبي بكرة في صحيح البخاري (٤٣٧١).

ولكن أهل الطائف أرسلوا عليهم سَكَكَ الحَدِيدِ المُحَمَّاة بالنار، ففرَّ مَن تحت الحصون، فرموهم بالنَّبْل فَقُتِل مَن قُتِل منهم، ولما طال الحصار أمرَ ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها، وهي أحد مصادر رزقهم. فسألوه الله والرحم أن يدعها لهم فتركها، ثم إنه ﷺ عزم على تركهم والعودة إلى مكة، وقال له نَوْفَل بن مُعَاوِية الدِّيلي لما استشاره: يا رسول الله، ثَعْلَبٌ في جُحْر، إن أقمتَ عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك[1].

وبعد حِصَار استمر ما يقارب الشهر أعلن عزمه على الرحيل، فشقَّ ذلك على أفراد من الجيش، وقالوا: لا نبرح أو نفتحها، فقال النَّبيُّ ﷺ: فاغدوا على القتال، قال: فغدوا فقاتلوهم قتالًا شديدًا وكثر فيهم الجراحات، فقال رسول الله ﷺ: إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فسكتوا، فضحك رسولُ الله ﷺ[2]. ثم أمر عمرَ أن ينادي بالرحيل، فلما ركب ﷺ دعا لثقيف قائلًا: اللهم اهْدِهِم واكْفِنَا مُؤْنَتَهُم[3].

تقسيم غنائم حُنَيْن:

عاد ﷺ من الطائف إلى الجِعْرَانَة ثم بدأ في توزيع الغنائم، وكان يعطي زعماء مكة، وزعماء القبائل ويجزل لهم في ذلك، يتألفهم على الإسلام، فأعطى أبو سفيان بن حرب أربعين أوقية من الفضة، ومائة من الإبل، وأعطى ابنيه يزيد، ومعاوية، فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، وسالمتك فنعم

(١) «السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٦٦٢)، «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٣٨٧).
(٢) رواه البخاري (٤٣٢٥، ٦٠٦٨).
(٣) «السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٦٦٣)، والحديث أخرجه الترمذي بلفظ: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا» (٣٩٤٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

المسالم أنت، هذا غاية الكرم، جزاك الله خيرًا[1].

وأعطى حكيم بن حزام مائة، ثم سأله فأعطاه مائة أخرى، ثم سأله فأعطاه مائة، وقال له: يا حكيم، هذا المال خَضِرة حُلَوة، مَن أخذه بسَخَاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى،- فيقال: أخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها-، وقال حكيم: والله يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبيًّا لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئًا، وكذلك رَفَضَ العطاء مِن عمر[2].

وأعطى رسولُ الله ﷺ وَالأَقْرَع بن حَابِس مائة من الإبل، وأعطى عُيَيْنَة بن حِصْنٍ بن بدْر مثله، وأعطى العَبَّاسَ بن مِرْدَاسٍ السُّلَمِي أربعين، فقال شعرًا يُعَاتِب الرسولَ في نقص عطائه عمَّن سَبَقَه:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ العَبِيدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

فما كَانَ بَدْرٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي المَجْمَعِ

وما كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... ومَن يُخْفَضِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

فأكمل له المائة[3].

وكان صَفْوَان بن أمية يَنْظُر إلى شِعْب فِيهِ غَنَمٌ وَإِبِلٌ وَرِعَاؤُهَا مَمْلُوءٌ، فأعجب صفوانَ وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: أعجبك هذا الشِّعْبُ يا أبا وَهْبَ؟ قال: نعم. قال: هو لك بما فيه. فقال

(١) «المغازي» للواقدي (١/ ٩٤٤)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم الأصبهاني (١٠/ ٤٩٣).
(٢) رواه البخاري (١٤٧٢).
(٣) رواه مسلم (١٠٦٠، ١٣٧)، وانظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٣).

صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طَابَت بهذا نَفْسُ أحدٍ قط إلا نبي[1].

ووقع في نفوس الأنصار أن رسولَ الله ﷺ يعطي الناس ويوزِّع الغنائم ويدعهم؛ خاصة أنه يعطي مَن أسلم حديثًا، أو مَن لم يُسْلِم بعد؛ أما هم فلم يُعطَ أحدٌ منهم بعيرًا ولا شاة، حتى كَثُر فيهم الحديث، وقال قائلهم: يغفر الله لرسول الله، إن هذا لهو العجب! يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر مِن دمائهم، إذا كانت شديدةٌ فنحن نُدْعَى ويُعْطَى الغنيمةَ غيرُنا؟ وددنا أن نعلم ممَّن كان هذا، فإن كان مِن أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من رأي رسول الله ﷺ استعتبناه[2].

وجاءه سَعْدُ بنُ عُبَادَة فأخبره الخَبَرَ، وأن الأنصار وَجَدُوا في أنفسهم مِن توزيع الغنائم حيث يعطي زعماء بعضهم لم يُسْلِم بعد، وبعضهم أسلم قريبًا، ويترك الأنصار، فأمر بجمعهم في مكانٍ وخطبٍ فيهم قائلًا: أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله؟ فقالوا: رضينا يا رسول الله. فقال: أَوَجَدْتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، فوالله لمَن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فوالذي نفسي بيده، لو أن الناسَ سَلَكوا شِعْبًا وسلكتِ الأنصارُ شِعْبًا لسلكتُ شِعْبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار[3].

وفي لفظ لابن إسحاق قال: فبكى القوم حتى أَخْضَلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ربًّا ورسوله قَسْمًا[4].

(١) «المغازي» للواقدي (٣/ ٩٤٦)، وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان مائة من النَّعَم ثم مائة ثم مائة (٢٣١٣).
(٢) رواه البخاري (٣١٤٧، ٤٣٣٧).
(٣) رواه البخاري (٣١٤٦، ٤٣٣١).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٨)، «السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٣٧٩)، وقال: «رواه أحمد من

وفي حُنَيْن اعترض ذو الخُوَيْصِرَة التميمي الأعرابي الجافي على قِسْمَةِ رسولِ الله ﷺ قائلًا: يا محمَّد، اعدل! فَغَضِب ﷺ وتغيَّر وجهه وقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند مَن يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني أقتل هذا المنافق. فقال ﷺ: دعه يا عمر، فإن له شيعة يتعمَّقون في الدِّين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة[1].

وكان ﷺ قد أعلن أن مَن جاء مَن هَوَازِن مُسْلِمًا رَدَّ إليه ماله وأهله، وانتظر بضع عشرة ليلة، ثم وزَّع الغنائم فجاء مَن جاء منهم بعد توزيع الغنائم، وقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك؛ فامنن علينا مَنَّ الله عليك يا رسول الله، وإنما في الحَظَائِر مِن السَّبَايَا: عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ، ولو أَنَّا مَلَحْنَا لِلْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ، أو النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ، ثم أصابنا مثل الذي أصابنا منك، رَجَوْنَا عَائِدَتَهما وعطفهما علينا، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَكْفُولِينَ[2]، فخيَّرهم بين أهلهم أو أموالهم، فاختاروا الأهل، فقال: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وعندما سمع الناسُ ذلك رَدُّوا ما معهم؛ إلا ما كان من عُيَيْنَة بن حِصْنٍ الذي وقعت في سهمه عجوز، فأبى ردها حتى وُعِدَ بستٍّ من الإبل.

حديث ابن إسحاق، وهو صحيح».

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٣٦)، وأصل الخبر في الصحيحين. وانظر «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٤٠٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٢٨)، ومعنى ملحنا: أي: أرضعنا. وانظر «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٣٩٠ - ٣٩١).

ومن اهتمامه ﷺ بالقادة: أنه سأل عن مالك بن عوف، فقالوا: بحصن الطائف، فقال: أخبروه إنه إن أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل.

وعندما سمع بذلك أسرع ليلًا حتى لَحِقَ برسولِ الله ﷺ فَرَدَّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل؛ فَحَسُن إسْلَامُه[1].

وبعد فراغه من أمر الغنائم، أَحْرَمَ ﷺ بالعمرة من الجِعْرَانَة فأدَّاها ليلًا، ثم عاد وبات بالجِعْرانة، ثم عاد إلى المدينة، وسلك على وادي سَرِف، ثم على مَرِّ الظَّهْرَان (الجُمُوم) ولَحِقَ به في الطريق أحدُ الزعماء الكبار لثَقِيف، عُرْوَة بن مَسْعُود، فَأَسْلَم، وعاد إلى الطَّائِف فقتلته ثَقِيف.

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٠)، «سبل الهدى» للصالحي (٥/ ٤٠٦).

دُرُوس وعِبَر:

١- الحذر مِن الغرور والفرح بالكثرة، وأن النصرَ من الله ﷻ.

٢- شجاعةُ رسولِ الله ﷺ وثباته عندما انكشف عنه الناس.

٣- أهمية التوحيد والتَّعَلُّق بالله وحده.

٤- زهد النَّبيِّ ﷺ في الدنيا وأموالها، فلم يأخذ مِن غنائم حنين شيئًا مع كثرتها.

٥- الرحمة من سمات أهل الإسلام، وجواز الدعاء لمن يُرْجَى إسلامه مِن الكفار، كما دعا رسولُ الله ﷺ لثقيف بالهداية.

٦- الحِنكة النَّبوية، والمقدرة على احتواء المشكلات وتسويتها.

٧- الاعتراض على حكم الله ورسوله من صفات المنافقين والخوارج.

٨- جواز الاستفادة من أدوات الحرب التي يملكها المشركون.

٩- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم، تأليفًا لهم على الإسلام، أو لكفِّ أذاهم وشرهم؛ تحقيقًا لمصلحة الإسلام والمسلمين.

١٠- حرصه ﷺ على إنقاذ المشركين من النار، ودخولهم الإسلام ولو بالمال.

١١- فضل الأنصار ومكانتهم ومنزلتهم من رسول الله ﷺ.

غَزْوَة تَبُوك

في السنة التاسعة للهجرة وفي شهر رجب منها في وقت الصيف اللاهب، حيث يحلو للناس الظِّلُّ، ويبدأ نضوج الثَّمَر، كانت غزوة تَبُوك، وهي الغزوة التي سُمِّيَت بالعُسْرَة؛ لاجتماع الشِّدَّةِ في الطقس، والشدة في المال والدواب، وبُعْد الشُّقة والمسافة.

وسبب الغزوة كما ذكر ابن كثير ﷺ هو: تحقيق قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] (١)، فَقَصَدَ رسولُ الله ﷺ دعوةَ الرُّوم إلى الإسلام، وقتالهم إن لم يستجيبوا، حيث بَلَغَه أنهم يجمعون له، ويؤلِّبون القبائل العربية الخاضعة لهم على غزو المسلمين كما فعلوا مِن قَبْل في مُؤْتَة.

وعندما أعلن رسولُ الله ﷺ عَزْمَه على التَّوَجُّه إليها دَعَا إلى الصَّدَقَة، ووضع رِدَاءَه، فكان كلُّ مسلم يأتي بما يستطيع، فمنهم مَن يأتي بالكثير، ومنهم مَن يأتي بالقليل، والمنافقون يسخرون مِن صاحب الكثير والقليل (٢).

وجاء عمرُ بنصف ماله قائلًا: ما أظن أحدًا يسبقني إلى ما فعلتُ، وجاء أبو بكر بكل ماله، فقال عمر: والله لا أسابقك أبدًا (٣).

وأنفق العَبَّاس، وعبد الرحمن بنُ عوف، وطلحة، وسَعْدُ بن عُبَادَة، وعَاصِم بن عَدِي نفقاتٍ كثيرة، وجَهَّز عُثْمَان ثُلُثَ الجيش، فَسُرَّ بذلك

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٤).
(٢) رواه البخاري (٤٦٦٨).
(٣) رواه الترمذي (٣٦٧٥)، وحسنه الألباني.

رسولُ الله ﷺ، وقال: مَا ضَرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم[1].

وكان عددُ الجيش يزيد على ثلاثين ألفًا، بينما كان عددُ الجيش في حُنَيْن في آخر السنة الثامنة اثني عشر ألفًا، مما يؤكِّد نجاح خطة النَّبيِّ ﷺ في نشر الإسلام، وازدياد الدخوك فيه بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة، وفتح مكة.

وتَخَلَّف عن الخروج مع رسولِ الله ﷺ في هذه الغزوة طوائف من المنافقين، فقد جاء أحد المنافقين إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في التخلُّف والقُعُود وقال: ائذن لي ولا تفتني، فوالله لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا أَحَدٌ أَشَدُّ عُجْبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وإني لَأَخْشَى إنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الأَصْفَرِ ألا أَصْبِرُ عَنْهُن[2]، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال بعضُهم لابنه: يا بني ما لي وللخروج في الريح والحرِّ الشديد، والعُسْرَة إلى بني الأصفر، وقال آخر: لا تنفروا في الحرِّ، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿... وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

كما تَخَلَّف عن الخروج مع رسولِ الله ﷺ قومٌ معذورون، وبكوا حَسْرَة أن لا يجدوا ما ينفقون، وتَخَلَّف مِن المسلمين مَن لم يكن له عذر، منهم: كَعْب بن مَالِك، ومُرَارَة بن الرَّبِيع، وهِلَال بن أُمَيَّة، وتَخَلَّف أبو خَيْثَمَة الأنصاري، ولما سَار الجيش دخل بستانه وفيه امرأتان لكل منهما عريشٌ قد رَشَّته وبَرَّدَت له فيه الماء، وهيَّأت له

(١) رواه الترمذي (٣٧٠١)، وحسنه الألباني.
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٦).

فيه طعامًا، فلما دخل وَقَفَ على الباب، فقال: سبحان الله! رسول الله قد غفر الله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر في الضِّحِّ والريح والحرِّ يحملُ سلاحَهُ على عُنُقِهِ، وأبو خيثمة في ظلٍّ بَارِد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسنة، في ماله مقيمٌ؟! ما هذا بالنَّصَفِ! والله لا أدخل عريش واحدة منكما، وأمرهما بتجهيز راحلته، ولَحِقَ برسولِ الله ﷺ.

فأقبل على الجيش وهم قريبا من تبوك فرآه الناس، وقالوا: هذا رَاكِب مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة[1] ثم دعا له بخير.

وخرج أبو ذَرٍّ على بَعِير فتأخَّر به، فقال الناس: أبطأ فلان، فقال ﷺ: إن يكن به خيرٌ فسيلحقه الله بكم، وإن كان غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه، فلما آذاه بعيره حمل متاعَه على ظهره ولحق بهم. فقال رجل: يا رسول الله هذا رجلٌ يمشي على الطريق وحده، فقال ﷺ: كن أبا ذر. ثم قال: رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبْعَث وحده[2]. وكان ذلك بالفعل حيث تحقق ما قاله ﷺ، فمات أبو ذَرٍّ وحده ﷺ بِالرَّبَذَةِ شرقي المدينة، واستخلف النَّبيُّ ﷺ على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري،

وخَلَّف عليَّ بن أبي طالب في أهله خاصة، فقال المنافقون: استثقله فخلَّفه، فلحق به بالجُرْفِ[3]، وأخبره بقولهم. فقال ﷺ: كذبوا، لكني خلفتك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. والحديث متفق عليه[4]. وقد بَنَى عليه بعضُ أهل الفرق

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٦٠).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٦٤)، وانظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٢٢١)، وقال ابن كثير: «إسناده حسن».
(٣) الجُرْف: موضع شمال المدينة يتخذه النَّبيُّ ﷺ قاعدة ومعسكرًا للجيش.
(٤) رواه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

الضَّالَّة بناءً كبيرًا واهيًا في موضوع الخلافة، ولا حجة لهم في ذلك.

وسار رسولُ الله ﷺ بالجيش حتى مَرَّ بالحِجْر، وهي ديار ثمود فأسرع فيها ولم ينزل، فاستسقى أناسٌ من آبار ثمود وعجنوا وطبخوا، فجمعهم وأمرهم قائلًا: لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، لا يصيبكم ما أصابهم، ولا تشربوا من مائها ولا تتوضئوا منه للصلاة، واعْلِفُوا العَجِينَ الإبلَ، وإنه ستهب عليكم ريحٌ فلا يخرجن أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صَاحِب له. ثم ارتحل حتى نَزَل على بِئْر النَّاقَة[1]؛ فامتثل الناس الأمر إلا رجلين من بني ساعدة خَرَج أحدُهما لحاجته، والآخر في طلب بعيره؛ فأما الذي ذهب لحاجته فقد خنقته الجنُّ، وأما الآخر فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طَيء، فدعا رسولُ الله ﷺ للذي أُصيب فشفي، وأما الآخر فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ حين قَدِم المدينة[2].

واجتمع بعض المنافقين في مجلس سُخرية واستهزاء من النَّبيِّ ﷺ وصحابته، منهم: مَخْشِيُّ بنُ حِمْيَر، وقال بعضهم لبعض: أَتَحْسِبُونَ جَلَادَ بَنِي الأَصْفَرِ كَقِتَالِ العَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَالله لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فِي الحِبَالِ، إِرْجَافًا وَتَرْهِيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وندم مَخْشِي نَدَمًا شديدًا، وأرسل رسولُ الله ﷺ عَمَّار بن ياسر وقال: أدرك القوم فقد احْتَرَقوا، فسلهم عما قالوا، فجاءوا يعتذرون، وقال أحدهم -وَدِيعَة بن ثَابت-: إنما كنا نَخُوضُ ونَلْعَبُ! فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ... ﴾ الآية [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

(١) رواه البخاري (٤٤١٩، ٣٣٧٨، ٣٣٨١)، ومسلم (٢٩٨٠).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٦١) وهو مرسل، وله شاهد عند البخاري (١٤٨١).

وقال مَخْشِي: والله يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، وقيل: إنه تاب وقُتِل يوم اليمامة[1].

وضَلَّتْ نَاقةٌ للنبي ﷺ فقال أحد المنافقين، وهو: زَيْدُ بن اللُّصَيْتِ القَيْنُقَاعِيُّ: أليس محمَّد يزعم أنه نَبِي ويخبركم عن خَبَر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟! فقال رسول الله ﷺ: إن رجلًا قال كذا وكذا. وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دَلَّني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شِعْب كذا، وقد حبستها شجرةٌ بزمامها. ولما علم عُمَارَةُ ابن حَزْمٍ الأنصاري رضي الله عنه وكان عَقَبِيًّا بَدْرِيًّا ما قال زَيْدُ بن اللُّصَيْتِ طَرَدَه من رَحْلِه وهو يضرب في عُنُقِهِ ويقول: أي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر! اخرج، أي عدو الله مِن رحلي فلا تصحبني[2].

(١) «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/ ٢٩٦)، «المعازي» للذهبي (ص ٦٤٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٦٣) وإسناده حَسَن، وقد صَرَّح ابنُ إسحاق بالتحديث، وذكره الذهبي في المغازي (ص ٦٤١).

الوصول إلى تَبُوك

عندما اقترب ﷺ مِن تبوك قال لهم: إنكم ستأتون غدًا -إن شاء الله- عَيْن تَبُوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَضْحَى النَّهَارُ، ، فمَن جاءها فلا يمس من مَائِها شيئًا حتى آتي. فوصلها قبله رجلان فسألهما: هل مسستما من مائها شيئًا؟ قالا: نعم. فسبهما، وغرف الصحابة من الماء حتى اجتمع في إناء فغسل فيه وجهه ويديه وأعاده فيها، فجرت العين بماءٍ كثيرٍ فاستسقى الناس، فقال ﷺ: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جِنانًا[1].

وخَطَب ﷺ بتبوك خطبة عظيمة، ووَفَدَ عليه صاحب أَيْلَة يُوحَنَّا ابن رُؤْبَة، وصالحه وأعطاه الجِزْيَة، وأتاه أهل جَرْبَاءَ وأَذْرُحَ، فأعطوه الجزية[2].

وفي تبوك تَخَلَّف رسولُ الله ﷺ يومًا عن صلاة الفجر لحاجة، فأقام المسلمون الصلاة وقَدَّموا عبدَ الرحمن بن عوف إمامًا لهم، وجاء رسولُ الله وهم في الصلاة، وصَلَّى مأمومًا خَلْفَ عبد الرحمن ابن عوف، وهي من مناقبه رضي الله عنه[3].

(١) رواه مسلم (٦٠٨٦).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٧٧). وأَيْلَة: مدينة العَقَبَة الحالية. وأَذْرُحَ وجَرْبَاءَ: قريتان في جنوب الأردن حاليًا.

(٣) رواه مسلم (٢٧٤)، وليس فيه أنه كان في تبوك، ولكن ذكره غيره. وانظر: «السيرة النَّبوية» لمهدي رزق الله (ص ٦٢٩).

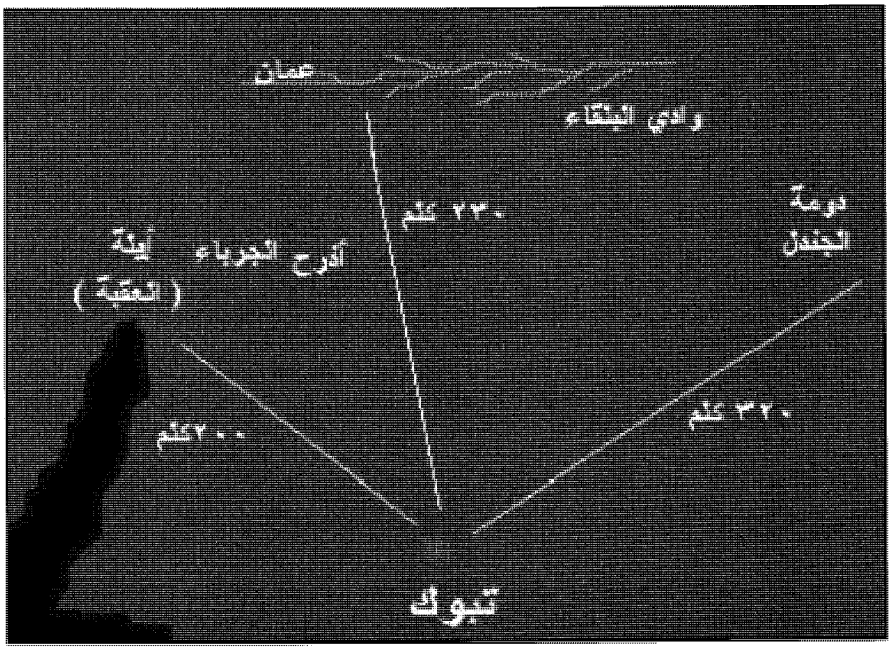
بَعْثُ خَالِد إلى دُومَةِ الجَنْدَلِ:

بعث ﷺ وهو في تَبُوك خَالِد بن الوَلِيد إلى أُكَيْدِر صَاحِب دُومَة الجَنْدَل، وقال له: إنك ستجده يصيد البَقَرَ الوَحْشِي، وكان أُكَيْدِر في سطح حِصْنِهِ مع امرأته، فأتت البقر الوحشي تحك رأسها وقرونها بباب الحصن. فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله. قالت: فمَن يترك مثل هذا. قال: لا أحد، فَخَرَج ومعه نَفَرٌ مِن أهل بيته منهم أخوه حسان، فتلقتهم خيلُ المسلمين، فَقُتِل حَسَّان، وأُخِذَ أُكَيْدِر أسيرًا، وجيء به لرسولِ الله ﷺ فأمَّنَه وصالحه على الجِزْيَة[1].

وكان عليه قَبَاء فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويعجبون منه، فقال ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سَعْد بن مُعَاذ في الجنة أَحْسَن مِن هذا[2].. وقد بَقِي ﷺ في تبوك قرابة عشرين يومًا ولم يجد كَيْدًا مِن العَدُوِّ، بل خافوا وانشمروا في أرضهم، فقرر العودة إلى المدينة،

وفي طريق عودته ﷺ تَآمَرَ عددٌ من المنافقين لقتله، حيث أرادوا أن يلقوه عن دابته مِن عَقَبَة يمر بها الجيشُ، فكشفَ الله له ذلك، وكان حُذَيْفَة آخذًا بزِمام الناقة يقودها، وعمار يسوقها، وإذا هم باثني عشر مُلَثَّمِين فَصَرَخ بهم، فَهَرَبوا[3].

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧١)، «المغازي» للذهبي (ص ٦٤٥)، البداية والنهاية (٧/ ١٧٩).
(٢) رواه البخاري في مواضع من صحيحه (٣٢٤٩، ٣٨٠٢).
(٣) رواه مسلم (٢٧٧٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧).



خريطة غزوة تبوك

مَسْجِدُ الضِّرَار:

بنى المنافقون بالمدينة قُرْبَ مسجد قُبَاء مَسْجِدًا، ودعوا رسولَ الله ﷺ للصلاة فيه، فاستمهلهم حتى يعود مِن تَبُوك، فأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَالله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَالله يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ الله وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

ولهذا أمرَ ﷺ عند رجوعه بهدم وإخراب ذلك المسجد، فقام بتلك المهمة: مَالِك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عَدِي[١].

استقبال المدينة لرسول الله ﷺ:

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة قال: إن بالمدينة أقوامًا ما سِرْتُم مسيرًا ولا قَطَعْتُم وَادِيًا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حَبَسَهُم العُذْر[٢]. وعندما أشرف على المدينة قال: "هذه طابة، وهذا أُحُد جَبَلٌ يحبنا ونحبه"[٣]. واستقبله الناس والصبيان عند ثَنِيَّة الوَدَاع يُرَحِّبون بهم[٤]، وهم يقولون:

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧١).
(٢) رواه البخاري (٤٤٢٣).
(٣) رواه البخاري (٤٤٢٢).
(٤) رواه البخاري (٤٤٢٧)، لكن ليس فيه ذكر النَّشِيد.

طَلَـعَ البـدرُ علينـا... مِـن ثَنِيَّـات الـوَدَاع
وَجَـبَ الشُّـكْر علينـا... مَـا دَعَـا لله دَاع

أصناف الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:

كان الذين تَخَلَّفوا عن غزوة تبوك، أربعة أصناف:

١- مأمورون بالتخلف منه ﷺ، مثل: محمَّد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب، وهؤلاء مأجورون.

٢- معذورون، وهم الضعفاء والمَرْضَى، وهم مأجورون أيضًا؛ لأنهم قد حبسهم العذر.

٣- عصاة مذنبون، مثل الثلاثة الذين خُلِّفُوا.

٤- ملومون مذمومون، وهم الأعراب والمنافقون.

وعند عودته ﷺ إلى المدينة قَدِم عليه مَن تَخَلَّف عن الغزوة، وصَاروا يعتذِرون وهو يعذرهم، حتى جاء كعب بن مالك فقال له: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قال كعب: فقلت: لا والله ما كان لي مِن عُذْرٍ، والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر مني حين تَخَلَّفْتُ عنك. فقال ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، وعندما قام أسرع إليه أناس يؤنبونه على صدقه حتى هَمَّ بالعودة والبحث عن عُذْرٍ، ولكنه سأل: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت. فقال: مَن هما؟ قالوا: مُرَارَة بن الرَّبِيع، وهِلَال بن أُمَيَّة. قال: فذكروا لي رَجُلَين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلام أولئك الثلاثة، فاجتنبهم

الناس حتى تَنَكَّرَت لهم الأرض. قال كعب: فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلَدَهم، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلِّم عليه فأقول في نفسي: هل حَرَّك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل عَليَّ، وإذا التفتُ نحوَه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جَفْوَةِ الناسِ، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلام. فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أُحِبُّ الله ورسوله؟ فَسَكَتَ، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار. وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيٌّ من أنباط الشام ممَّن قَدِم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَن يَدُلُّني على كَعْب بن مَالِك؟ فَطَفِقَ الناسُ يشيرون له، حتى إذا جاءني دَفَعَ إليَّ كِتَابًا من مَلِك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدَار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نواسِك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فَتَيَمَّمْتُ بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة وإذا برسول رسول الله ﷺ يأمره باعتزال امرأته، فقال: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صَاحِبَيَّ بمثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأةُ هِلَال بن أمية إلى رسولِ الله ﷺ. فقالت: يا رسول الله، إن هِلَال

ابـن أميـة شـيخ ضائـع ليـس لـه خـادم، فهـل تكـره أن أخدمـه؟ قـال: لا، ولكـن لا يقربـك. قالـت: إنـه والله مـا بـه حركـة إلـى شـيء، والله مـا زال يبكـي منـذ كان مـن أمـره مـا كان إلـى يومـه هـذا.

قـال كعـب: فلمـا كملـت لنـا خمسـون ليلـة وأنـا علـى ظهـر بيـت مـن بيوتنـا، فبينـا أنـا جالـس علـى الحـال التـي ذكـر الله ﷻ، قـد ضاقـت علـيَّ نفسـي، وضاقـت عليَّ الأرض بمـا رحبـت، سـمعتُ صـوتَ صَـارِخ أوفـى علـى جبـل سَـلْع بأعلـى صوتـه: يـا كعـب بـن مالـك، أَبْشِـر، فخـررتُ سَـاجِدًا، وعرفـت أن قـد جَـاء الفَـرَج، وآذَنَ[1] رسـولُ الله ﷺ بتوبـة الله علينـا حيـن صَلَّـى الفجـر، حيـث نَـزَل عليـه قولـه تعالـى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَـةِ الَّذِيـنَ خُلِّفُـوا حَـتَّى إِذَا ضَاقَـتْ عَلَيْهِـمُ الْأَرْضُ بِمَـا رَحُبَـتْ وَضَاقَـتْ عَلَيْهِـمْ أَنْفُسُـهُمْ وَظَنُّـوا أَنْ لَا مَلْجَـأَ مِـنَ الله إِلَّا إِلَيْـهِ ثُـمَّ تَـابَ عَلَيْهِـمْ لِيَتُوبُـوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ التَّـوَّابُ الرَّحِيـمُ... ﴾ الآيـة [التوبـة: ١١٨]، وَرَكَـضَ رَجُـلٌ إِلَـيَّ فَرَسًـا وَسَـعَى سَـاعٍ فأوفـى علـى الجَبَـل، وكان الصـوت أسـرع مـن الفَـرَس،

فلمـا جاءنـي الـذي سـمعتُ صوتـه يبشـرني، نزعـت لـه ثوبـيَّ فكسـوته إياهمـا ببشـراه، والله مـا أملـك غيرهمـا يومئـذٍ، واسـتعرت ثوبيـن فلبسـتهما، وانطلقـتُ إلـى رسـولِ الله ﷺ، فتلقانـي النـاس فوجًـا فوجًـا يهنئونـي بالتوبـة يقولـون: لِتَهْنِـكَ تَوْبَـةُ الله عليـك، قـال: حتـى دخلـتُ المسـجدَ، فـإذا برسـول الله ﷺ جالـس حولـه النـاس، فقـام إلـيَّ طلحـةُ بـن عبيـد الله يهـرول حتـى صافحنـي وهنأنـي، والله مـا قـام إلـيَّ رجـل مـن المهاجريـن غيـره، ولا أنسـاها لطلحـة.

قـال كعـب: فلمـا سـلمتُ علـى رسـولِ الله ﷺ، قـال -وهـو يبـرق وجهه

(١) آذَنَ: أَخْبَر.

مـن السـرور-: أبشـر بخيـر يـوم مـرَّ عليـك منـذ ولدتـك أمـك، قلـت: أمـن عنـدك يـا رسـول الله أم مـن عنـد الله؟ قـال: لا، بـل مـن عنـد الله.

قـال كعـب: إن مِـن توبتـي أن أَنْخَلِـع مـن مالـي صدقـة إلـى الله وإلـى رسـوله، قـال رسـول الله ﷺ: أمسـك عليـك بعـض مالـك، فهـو خيـر لـك. ثـم قـال كعـب: يـا رسـول الله، إن الله إنمـا نجانـي بالصِّـدْق، وإن مـن توبتـي ألا أحـدث إلا صدقًـا مـا بقيـتُ[1].

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، وانظر: البداية والنهاية (٧/ ١٩٦ - ١٩٧).

دُرُوس وعِبَر:

١- فضل أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، ومسابقتهم إلى الإنفاق في سبيل الله، وتجهيز المجاهدين، وفضل علي ﷺ حيث استخلفه في أهله، وجعله بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبي بعد محمدٍ ﷺ.

٢- فضل أبي ذر الغفاري ﷺ وحرصه على مشاهد الخير مع رسول الله ﷺ.

٣- فضل عبد الرحمن بن عوف وصلاة النَّبيِّ ﷺ خلفه.

٤- الحَذَر من دخول ديار المعذَّبين إلا معتبرًا خَائِفًا وَجِلًا، وتحريم الإقامة في أمكنة العذاب.

٥- خير أيام العبد يوم توبته وهداية الله له.

٦- فضل كَعْب بن مالك، وهِلَال بن أمية، ومُرَارَة بن الربيع، بعد توبة الله عليهم، ونجاتهم بسبب الصدق، وخطر التسويف الذي كان سبب محنتهم، ووجوب المبادرة للطاعة والمسابقة في الخيرات.

٧- انضباط الصحابة مع أوامر النَّبيِّ ﷺ.

٨- القوي في الدِّين يُؤَاخَذ بأشد مما يُؤَاخَذ الضعيف.

٩ - في أمره ﷺ بتحريق مسجد الضِّرَار دليلٌ على أهمية حَسْم ما فيه ضرر على المسلمين وتفريق كلمتهم؛ حتى لا يعود مرة أخرى، قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا، كل مسجد بُنِي ضِرَارًا أو رياءً وسمعة؛ فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٥٧).

عَامُ الوفُود

العام التاسع يُسَمَّى: "عام الوفود"؛ لكثرة وفود القبائل فيه على رسولِ الله ﷺ، وإن كانت بعض الوفود قد قَدِمتْ على رسولِ الله في وقتٍ مبكرٍ[1]؛ غير أنه منذ فَتَح النَّبيُّ ﷺ مكةَ أَخَذَتْ وفودُ العرب تَفِد عليه مبايعة مسلمة، وذلك في العام التاسع، فقد وَفَد عليه غَالِب وفود العرب في العامين التاسع والعاشر، وعدد الوفود يقارب المائة وفد، وقد اعتنى بذكر الوفود محمَّد بن سعد في كتابه: «الطبقات الكبرى»[2]، وعَدَّهم مهدي رزق الله، ستة وتسعين وفدًا[3]، ويختلف عدد الأفراد في كلِّ وفدٍ كثرة وقلة، مِن أكثر مِن المائة إلى الواحد، وأول الوفود بعد الهجرة: وَفْدُ مُزَيْنَةَ الذي قَدِم على النَّبيِّ ﷺ في رجب من العام الخامس، وهم أربعمائة، فجعل الهجرة لهم في دارهم[4].

ومن أسباب كثرة الوفود في العام التاسع وما بعده:

١- فَتْحُ مكة وهزيمة المشركين في حُنَيْن، مما قَرَّر عند قبائل العرب الأخرى: عدم القدرة على مواجهة النَّبيِّ ﷺ.

٢- هَدْمُ النَّبيِّ ﷺ للطواغيت والأصنام الكبيرة حول مكة والتي كانت تشكِّل ضغطًا نفسيًّا وخوفًا منها عند العرب، فلما أزالها انفتح الباب لهم في دخول الإسلام، وزال الخوف عنهم.

٣- يسر التعاليم الإسلامية وموافقتها للفطرة.

٤- العدل والأمن الذي أقامه النَّبيُّ ﷺ وتحقق للمسلمين في الواقع.

---

(١) مثل: ضِمَام بن ثَعْلَبَة، وَافِد بني سَعْد بن بَكْر، ووَفْد عبد القيس مِن رَبِيعَة، ووَفْد جُذَام.
(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٩١- ٣٥٩).
(٣) انظر: «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ٦٤٠ - ٦٧٢).
(٤) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٩١).

نماذج من الوفود:

١- وَفْدُ بني تَمِيم:

قَدِم هذا الوفدُ في أول العام التاسع، وهم الذي نَزَل فيهم ما نَزَل من آداب الاستئذان، وكيفية مخاطبة رسولِ الله ﷺ في أول سورة الحجرات، وجاءوا معهم بشاعرٍ وخطيبٍ يفاخرون به رسولَ الله ﷺ، وخطيبهم عُطَارِد بن حَاجِب، وشاعرهم: الزِّبْرِقانُ بن بَدْر، وكان خطيب رسول الله ﷺ: ثَابِت بن قَيْس، وشاعره: حَسَّان بن ثَابِت[١]. فَغَلَب خطيبُ النَّبيِّ ﷺ خطيبَهم، وشاعره شاعرهم.

٢- وَفْدُ عَبْد القَيْس:

عبد القيس هم سُكَّان جُوَاثا، وهي: بَلْدَة بالأَحْسَاء الآن، وقريتهم هي أول قرية أقيمت بها الجمعة بعد المدينة[٢]. وكان لهم وفادتان: الأولى: في العام الخامس. والثانية: في العام التاسع.

الوفد الأول: وعددهم ثلاثة عشر رجلًا، وفيهم الأَشَجُّ الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: «إن فيك خَصْلَتين يحبهما الله ورسوله: الحِلْم والأَنَاة»[٣].

الوفد الثاني: وكانوا أربعين رجلًا، وفيهم الجارود العبدي وكان نصرانيًّا فأسلم وحَسُن إسْلَامُه. وقد رَحَّب بهم رسولُ الله ﷺ قائلًا: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»[٤].

---

(١) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ٦٤٠)، وقد ذَكَر البخاري وَفْدَ تَمِيم في الأحاديث (٤٣٦٥، ٤٣٦٧).

(٢) رواه البخاري (٤٣٧١).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٨٥٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٢٧).

(٤) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ٦٤١)، وقد ذكر البخاري وَفْدَ عبد القَيْس في الأحاديث (٤٣٦٨، ٤٣٧١).

٣- وَفْدُ ثَقِيف:

سَبَق إلى الإسلام مِن ثَقِيف عُرْوَة بن مَسْعُود، الذي لَحِقَ رسولَ الله ﷺ وهو في طريق عودته بعد الفتح وتوزيع غنائم حنين، فأسلم وسأل النَّبيَّ ﷺ أن يعود ويدعو قومه للإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: إنهم قاتلوك، فقال: يا رسول الله، أنا أحب إليهم مِن أبكارهم، وكان فيهم مُحَبَّبًا مُطَاعًا، وعندما عاد رَمَاه رَجُلٌ من بني مالك يُقَال له: أَوْس بن عَوْف، بسهم فَقَتَلَه، ثم نَدِمَتْ ثَقِيف على هذا العمل وسارع زعماؤها: عبد يَالِيل بن عمرو ومَن معه إلى رسولِ الله ﷺ بعد عودته من تبوك، فأسلموا وأعلموه بإسلام قومهم، واشترطوا على رسولِ الله ﷺ أن يترك لهم صنمهم اللَّات ثلاثَ سنين فَرَفَض ذلك، وبَعَثَ معهم أبا سُفْيَان والمُغِيرَة بن شُعْبَة لهدمها[١].

وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، ومِن كَسْر أصنامهم بأيديهم، فقال: أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك، وأما الصلاة فلا خير في دِين لا صلاة فيه. واشترطوا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، فوافقهم على ذلك، وهو يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا[٢]، وسألوه أن يعفيهم من الوضوء لبرودة بلادهم، وأن يسمح لهم بنبيذ القَرْع، وأن يعيد لهم مِن مواليهم: أبا بَكْرَة الثَّقَفِي، فرفض كل ذلك، وأمّرَ عليهم: عُثْمَان بن أبي العَاص، وكان أصغرهم سِنًّا؛ لكنه كان أَحْرَصَهُمْ على تَعَلُّم الدِّين والتَّفَقُّه فيه[٣].

وبعد خمسة عشر يومًا قضوها بالمدينة عادوا إلى الطَّائِف، وأرسل رسولُ الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنم ثَقِيف،

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣١٣).
(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٥)، وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (٥٣١)، وصححه الألباني.

وعند هَدْمِ اللَّات اجتمع النساء يبكين حول الصَّنَم، فهُدِم وأُخذِ ذهبه وماله[1].

٤- وَفْدُ بَنِي حَنِيفَة:

سَبَق هذا الوَفْد أسر ثُمَامَة بن أُثَال وربطه بسَارِية المسجد ثلاثة أيام، ثم فُكَّ أَسْرُه ومَنَّ عليه رسولُ الله ﷺ؛ فاغتسل وأسلم وعاد إلى بلده[2]. وفي العام التاسع قَدِم بضعة عشر رجلاً، ومعهم مُسَيْلِمَة بن حَبِيب، وكان يقول: إنْ جَعَلَ محمَّدٌ لي الأمر من بعده اتبعته، وعندما التقى بالنَّبيِّ ﷺ قال له: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ -وهي جريدة في يده- مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ الله، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ»[3].

ومقصده ﷺ قَوْلَه: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي، أَحَدُهُمَا: العَنْسِيُّ، وَالآخَرُ: مُسَيْلِمَةُ»[4].

وقد قَتَلَ الله مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب في مَعْرَكَةِ اليَمَامَة في عهدِ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

٥- وَفْدُ نَجْرَان:

قَدِم هذا الوفدُ وهم ستون راكبًا، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم. ورؤساؤهم ثلاثة: العَاقِب أمير القوم، والسيد، وأبو حَارِثَة أحد بني بَكْر بن وَائِل، وهو أسقفهم وصاحب مِدْرَاسِهم، وكانت ملوك

(١) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله (ص ٦٥٩ - ٦٦٠).
(٢) رواه البخاري (٤٣٧٢).
(٣) رواه البخاري (٤٣٧٣)، ومسلم (٢٢٧٣).
(٤) رواه البخاري (٤٣٧٤).

الروم قد شَرَّفوه ومَوَّلوه وأخدموه، وبسطوا عليه الكرامات، وبنوا له الكنائس؛ لِمَا بلغهم عنه من عِلْمِهِ واجتهاده في دينهم، وكان الوفد كلهم على النصرانية، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأبوا قبول الإسلام، فطلب منهم المباهلة، فتشاوروا ثم عادوا يطلبون الصلح فصالحهم، ورفضوا المباهلة؛ خوفًا مِن العقوبة[1].

وبَعَث معهم أبو عُبَيْدَة بن الجَرَّاح -حسب رغبتهم في رجل أمين- ووصفه بأنه أمين هذه الأمة[2].

وكانوا يعلمون أنه رسولُ الله حقًّا، كما في خبر أبي حَارِثَة وأخوه كُوز بن عَلْقَمَة عندما عثرت بغلة أبي حارثة، فقال كُوزُ: تَعِس الأبعد -يريد رسول الله ﷺ فقال له أبو حارثة: بل أنت تَعِسْتَ، فقال كُوز: لِمَ يا أخي؟ فقل: والله إنه للنبي الذي كنا ننتظره، فقال له كوز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا؟ فقال له: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرَّفونا وموَّلونا وأخدمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلتُ نَزَعوا منا كلَّ ما ترى قال: فأضمر عليها منه أخوه كُوز حتى أَسْلَم بعد ذلك[3].

٦- وَفْدُ بني عَامِر بن صَعْصَعَة:

وَفَدَ على رسولِ الله ﷺ بنو عَامِر بن صَعْصَعَة مِن هَوَازِن، وفيهم مِن أشرافهم: عَامِر بن الطُّفَيْل، وأَرْبَدُ بن قَيْس، وجَبَّار بن سَلْمَى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

وأَضْمَر عَامِرٌ الغَدْرَ برسولِ ﷺ، وقال له قومُه: إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: "وَالله لَقَدْ كُنْتُ آلَيْتُ أَنْ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى تَتْبَعَ الْعَرَبُ عَقِبِي،

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٣)، وخَبَر المُبَاهَلَة في صحيح البخاري (٤٣٨٠).
(٢) رواه البخاري (٤٣٨١).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٣).

أَفَأَنَا أَتْبَعُ عَقِبَ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ!"، واتفق مع أَرْبَد على أن يُشَاغِلَ رسولَ الله ﷺ وأَرْبَد يقتله بالسيف، فطلب عَامِر من النَّبيِّ ﷺ أن يخليه (أي: يُسَارُّهُ)؛ فأبى أن يخلي مُشْرِكًا، فلما قاما قال لأَرْبَد: "أين ما كنتُ أمرتك به؟" قال أَرْبَد: "وَالله مَا هَمَمْتُ بِالَّذِي أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا دَخَلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرَّجُلِ، حَتَّى مَا أَرَى غَيْرَكَ، أَفَأَضْرِبكَ بِالسَّيْفِ؟!"[1].

وكان عَامِرٌ خَيَّر النَّبيَّ ﷺ بين ثَلَاث خِصَال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المَدَر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان، بألفٍ وألفٍ، فدعا النَّبيُّ ﷺ الله أن يكفيه شَرَّه. وعند عودته إلى بلاده خَرَجَتْ في عُنُقِهِ غُدَّة طاعون، وكان في بيت امرأة سَلُولِيَّة، فقال: "أَغُدَّةٌ كغُدَّةِ البعير ومَوْتٌ في بَيْتِ امرأة سَلُولِيَّة"، فركب فَرَسَه فمات عليه[2].

أما أَرْبَد فسأله قومه: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جملٌ له يتبعه، فأرسل الله عليه صاعقةً أحرقته وجَمَلَه[3].

٧- وَفْدُ طَيء:

وكان سَيِّدهم زَيْد الخَيْل، فَسَمَّاه رسولُ الله ﷺ زَيْد الخَيْر، وبعد حوار مع النَّبيِّ ﷺ أَسْلَم وَفْدُ طيء، فكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتابًا فيه إقطاع زيد أرض فَيْد، وأَرَضِين أخرى معه، فأصابته حُمَّى المدينة فمات، وحَرَقَت امرأته ما معه مِن الكتب جهلًا منها[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٦٨).
(٢) رواه البخاري (٤٠٩١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٦٩)، وانظر: تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٥٦٠).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٧٧)، وانظر: تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٥٦٢)، وفيه:

٨- وَفْدُ دَوْس:

أسلم سيدهم الطُّفَيْل بن عمرو قبل الهجرة، ثم عاد إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فقَدِم على رسولِ الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله عليهم، ولكن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اهْدِ دَوْسًا وائتِ بهم»[(١)]، ثم قال له: «ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم»، فرجع وجعل يدعوهم حتى هَدَاهُم الله، وقَدِم بهم ورسول الله ﷺ بخَيْبَر وهم نحو سبعين أو ثمانين بيتًا[(٢)].

٩- وَفْدُ الأشعريين من اليمن:

قَدِم الأشعريون في ثلاثة وخمسين رجلًا، ومعهم: أبو مُوسَى الأَشْعَرِي وأخوان له، هما: أبو بُرْدَة، وأبو رُهْم، من بلادهم في اليمن مهاجرين، فألقت بهم السفينة إلى الحَبَشَة، ووجدوا جَعْفَرَ بن أبي طالب وأصحابه عند النَّجَاشِي، فبقوا هناك حتى قَدِموا جميعًا على رسولِ الله ﷺ يوم فتح خَيْبَر، فأسهم لهم مِن غَنَائِم خَيْبَر[(٣)].

١٠- وِفَادَةُ فَرْوَة بن مُسَيْكٍ المُرَادِي:

قَدِم فَرْوَة من اليَمَن مُفَارِقًا لملوك كِنْدة، فأسلم، فاستعمله رسولُ الله ﷺ على مُرَادَ وَزُبَيْدٍ وَمَذْحِجٍ، وبَعَثَ معه خَالِد بن سَعِيد بن العَاص على الصَّدَقَة، فكان معه في بلاده حتى تُوفِّي رسولُ الله ﷺ.

«موضع بديار طيء».

(١) رواه البخاري (٤٣٩٢).

(٢) «السيرة النَّبوية» لمهدي رزق الله (ص ٦٥١).

(٣) رواه البخاري (٣١٣٦)، وانظر: تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٥٦٩)، و«السيرة النبوية» لمهدي رزق الله (ص ٦٥٣- ٦٥٤).

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن فَرْوَة أنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، أُقَاتِلُ بِمُقْبِلِ قَوْمِي مُدْبِرَهُمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَقَاتَل بمُقْبِلِ قومِك مُدْبرَهُم» فَلَمَّا وُلِّيت دَعَانِي، فقال: «لا تقاتلهم حتى تدعوهم للإسلام... » الحديث[1].

١١- قدومُ جَرِيرِ بن عبدِ الله البَجَلِي:

قال جريرٌ: لما دنوتُ من المدينة أنخت راحلتي ثم حللت عيبتي ثم لبست حُلتي، ثم دخلتُ، فإذا رسولُ الله ﷺ يَخْطُب فَرَمَانِي النَّاسُ بِالحِدَقِ، ، فقلت لجليسي: يا عبد الله، هل ذكرني رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ذكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عَرَضَ له في خطبته وقال: يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفَجِّ من خير ذي يمن؛ إلا أن على وجهه مَسْحة مَلَكٍ.

قال جرير: فحمدت الله ﷻ على ما أَبْلَانِي[2].

وكان له مكانة عند رسولِ الله ﷺ قال جرير: "ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي"[3].. وأكرمه رسول الله وألبسه حلته وقال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه[4]، وأسلم معه قومُه، وعددهم: مائة وخمسون، وقد كَلَّفَهم رسولُ الله ﷺ بهدم صنم ذي الخَلَصَةِ في ديار خَثْعَم، ودعا له ولقومه[5].

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩١٨٠)، والترمذي (٣٢٢٢)، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٢) رواه أحمد في مسنده (١٩١٨٠)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «صحيح».
(٣) رواه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥)، وانظر: تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٥٧٢).
(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٤٧).
(٥) رواه البخاري (٣٠٢٠).

١٢- وَفْدُ بَلِيٍّ:

قَدِم وفدُ بلي في ربيع الأول من سنة تسع، فأنزلهم رُوَيْفِع بن ثَابِتٍ البَلَوِي عنده، وقَدِم بهم على رسول الله ﷺ وقال: هؤلاء قومي، فقال رسول الله: مرحبًا بك وبقومك، فأسلموا، وقال لهم رسول الله ﷺ: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل مَن مات على غير الإسلام، فهو في النار. فقال له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله، إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير؛ فهو صدقة، قال: يا رسول الله، ما وقت الضيافة؟ قال ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك. قال: يا رسول الله، أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض؟ قال: هي لك أو لأخيك أو للذئب، قال: فالبعير؟ قال: مالك وله، دعه حتى يجده صاحبه، قال رويفع: ثم رجعوا إلى منزلي، فجاء رسولُ الله إلى منزلي ومعه تمر، فقال: استعن بهذا التمر، وكانوا يأكلون منه ومن غيره، وأقاموا ثلاثة أيام، ثم وَدَّعوا رسولَ الله ﷺ وأجازهم كما هي عادته مع الوفود[1].

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٥٧) وما بعدها، وقد تَضَمَّن هذا الحوار جملة من الآداب والأحكام، وله شواهد صحيحة عند البخاري (٦٠١٩، ٦١٣٥)، ومسلم (١٣٥٢)، وأبو داود (٣٧٤٨).

دُرُوس وعِبَر:

١- هـذه النمـاذج مـن وفـود العـرب علـى رسـول الله ﷺ مُسـلِمين، توضـح مـدى نجـاح دعـوة النَّبـيِّ ﷺ، وانتشـار الإسـلام فـي أرجـاء الجزيـرة العربيـة، وتوحيدهـا تحـت رايـة الإيمـان وتوحيـد الله.

٢- أن النَّبيَّ ﷺ أُعطي من حُسْنِ الخُلُق ما جعله يستوعب النماذج المختلفة من الرجال والمواقف والأقوال، ويكسب حبها جميعًا، ويحسن التعامل معها، ويُقَدِّر رجالاتها، ويهيئ لهم الضِّيَافَة والاستقبال، ويُمَكِّنهم من التعلُّم والتفقُّه في الدِّين، ثم يحسن صلتهم وجوائزهم إذا رجعوا إلى بلدانهم، ويزودهم بالوصايا والآداب الإسلامية التي جعلت منهم نماذج حية لمن وراءهم، في قبول الإسلام والعمل بأحكامه وآدابه.

٣- مـدح صفـة الحلـم والأنـاة، وأن الله يحبهمـا، وضدهمـا: الطيـش والعجلـة، وهمـا خُلُقَـان مذمومـان[١].

٤- التأني والصبر في الدعوة إلى الله، وأن لا يعجل بالعقوبة والدعاء على العصاة[٢].

٥- قـال ابـن القيـم رحمه الله: "وإقـرار الكاهـن الكتابـي لرسـول الله ﷺ أنه نبي لا يدخلـه فـي الإسـلام مـا لـم يلتـزم طاعتـه ومتابعتـه". قـال: "ومَـن تأمَّـل مـا فـي السِّـير والأخبـار الثابتـة مِـن شـهادة كثيـرٍ مِـن أهـل الكتـاب والمشـركين للنبـي بالرسـالة وأنـه صـادق، فلـم تدخلهـم هـذه الشـهادة في الإسـلام؛ علم أن الإسـلام أمـرٌ وراء ذلـك، وأنـه ليـس هـو المعرفـة والإقـرار، بـل المعرفـة والإقـرار والانقيـاد، والتـزام طاعتـه ودينـه ظاهـرًا وباطنًـا"[٣].

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٠٨).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٦٢٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٦٣٨).

حج أبي بكر الصديق ﷺ

كان المشركون قد تولوا الحَجَّ في السنة الثامنة بعد الفتح، وعَتَّاب ابن أَسِيد أمير رسولِ الله على مكة حج بالمسلمين، وفي السنة التاسعة أَمَّرَ رسولُ الله ﷺ على الحَجِّ الصِّدِّيقَ، وبعد مسيره أرسل في أثره علي بن أبي طالب، ولما رآه الصديق رحَّب به وقال: أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور. وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن للناس في الحج أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عُرْيَان، وأن مَن بينه وبين رسول الله ﷺ عهد أو ميثاق محدد؛ فهو إلى مدته، ومَن كان عهده غير محدد فإن نهايته بعد أربعة أشهر. فأرسل رسولُ الله عليًّا بها ليبلِّغ أبا بكر، فكان أبو بكر وعلي ﷺ يعلنان ذلك للناس يوم الحج، ويأمرون مَن ينادي[1] به ليصفو الحج بعد ذلك للمسلمين.

(١) رواه البخاري (٤٣٦٣)

حَجَّةُ الوَدَاع

سُمِّيت حجة الوداع؛ لأن النَّبيَّ ﷺ وَدَّع الناسَ فيها، وسُمِّيت حجةَ الإسلام؛ لأنه لم يحج مِن المدينة غيرها، وسميت حجة البلاغ؛ لأنه بَلَّغ الناسَ فيها شرع الله في الحج قولًا وعملًا، وأشهدهم على ذلك.

خرج ﷺ من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة في السنة العاشرة، وبات في الوادي المبارك وادي العَقِيق، فلما كان بذي الحُلَيْفَة صلَّى الظهرَ وأحرم من مُصَلَّاه، ثم لبَّى عندما استوى على راحلته راكبًا، فلما أخذت به في البيداء لَبَّى بالحج، وساق معه الهَدْي.

وسار حتى وصل مكة لخمس خلون من ذي الحجة، وعندما وصل مكة بات بذِي طُوَى[1] حتى أصبح، فاغتسل ودخل مكة من ثَنِيَّة كَدَاء (الحُجُون) ثم دخل الحرم من باب بني شَيْبَة[2]، ثم طاف بالبيت، وسَعَى بين الصفا والمروة.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة توجَّه إلى مِنى فصلى بها الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، ثم مَكَثَ قليلًا حتى طلعت الشمس، ثم سار إلى عَرَفَة وخطب خطبة عظيمة بعرفة، جاء فيها: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا؛ ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا: دمُ ابن رَبيعة بن الحارث بن عبد المطلب -كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل-، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضعه من رِبانا: رِبا العباس بن عبد

(١) رواه البخاري (١٥٧٤)، ومسلم (١٢٥٩).
(٢) تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٦١٣).

المطلب، فإنه موضوع كله، واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا بعده إن اعتصمتم به: كتابُ الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت. فقال: «اللهم اشهد»، ثلاثًا[1].

ثم صلى الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، ووقف بعرفة حتى غربت الشمس، ونزل عليه في موقفه ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣]. قال عمر: "نزلت على رسول الله عَشِيَّة عرفة يوم الجمعة"[2]، ثم سار حتى وصل مُزْدَلِفَة فَصَلَّى بها المغرب والعشاء، ثم نام حتى الفجر، ثم استقبل القبلة ودعا، وحمد الله وكَبَّره وهلله ووحَّده حتى أَسْفَرَ جدًّا.

ثم انطلق إلى منى، والتُقِطت له سبع حصيات مثل حَصَى الخَذْف، ورَمَى بهن جَمْرَة العَقَبَة، ثم انصرف إلى المَنْحَر، فَنَحَر ثلاثًا وستين بَدَنَة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غبر، وأشركه في هديه وهو مائة بدنة، ثم أمر مِن كل بَدَنَة ببضعة فجُعِلَتْ في قِدْرٍ فطُبِخَت، فأكلا من لحمها وشربا مِن مَرَقِها[3]، ثم أمر الحَلاَّق فحلق رأسه، ثم أفاض

(١) رواه مسلم (١٢١٨).
(٢) رواه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).
(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

من يومه وطاف بالبيت سبعًا، ثم عاد إلى مِنَى فبات بها ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرات إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة.

وقد خطب يوم النحر خطبة عظيمة كرر فيها بعض ما جاء في خطبته يوم عرفة، وزاد مثل قوله: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». وقوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[1].

وقوله: «إن أُمِّر عليكم عبدٌ مُجدَّع يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا».

وقال: «إنما هن أربع، لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا».

وقال: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

وقال: «ولا يجني جانٍ على ولده؛ إلا إن الشيطان قد يَئِس أن يُعبد في بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى».

وقال: «اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم».

وقال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث، والولد

(١) رواه البخاري (٤٤٠٥، ٤٤٠٦).

للفراش، وللعاهر الحجر، وحسابهم على الله، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله متتابعة إلى يوم القيامة، لا تنفق امرأة شيئًا من بيتها إلا بإذن زوجها». وقال: «العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدَّين مَقْضِي، والزَّعِيم[1] غَارِمٌ»[2].

(١) الزعيم: الكفيل.

(٢) انظر: «حجة الوداع» لابن كثير، تحقيق خالد أبو صالح، دار الوطن ط/ ١، ١٤١٦ هـ.

دُرُوس وعِبَر:

١- فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأنه أول أمير للحج، وبهذا مَضَتِ السُّنَّة بتأمير مَن يقيم للناس الحج، ويقود الحجيج في هذه الشعيرة العظيمة.

٢- إبلاغ النَّبيِّ ﷺ ما أنزل الله إليه من وجوب منع المشركين من قربان المسجد الحرام، وأن يكون الحج ومشاعره خالصًا للمسلمين، لا يشركهم فيه أحدٌ من المشركين؛ ولذا أرسل بها عليًّا بعد خروج الصديق إلى مكة، فناديا بذلك طيلة أيام الحج حتى تم البلاغ، وقامت الحجة بذلك.

٣- بيان هدي النَّبيِّ ﷺ في أَدَاء نُسُك الحَجِّ، وهو القائل: «خُذُوا عني مناسككم».

٤- التأكيد على أصول الدِّين وثوابته، وإعلان الحقوق الشرعية للإنسان؛ رَجُلًا أو امرأة.

٥- تحريم التقاليد والعادات الجاهلية، والالتزامات المترتبة عليها، وأنها كلها موضوعة.

٦- التأكيد على حُرْمَة الدماء والأموال والأعراض.

٧- وجوب طاعة ولي الأمر، ولزوم الجماعة، والتحذير من التَّفَرُّق، والاختلاف، والحِرْص على الوَحْدَة والائتِلَاف، والتَّعَاوُن على البِرِّ والتَّقْوَى.

وفاة الرسول ﷺ ووصاياه وشمائله وخصائصه وزوجاته

مقدمات الوفاة:

الأحداث الكبيرة يجعل الله لها مُقَدِّمات وإِرْهَاصَات، وقد كان مِن علامات دُنُوِّ أَجَلِ النَّبيِّ ﷺ:

١- فتح مكة قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١- ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هو أجل رسول الله أعلمه إياه"(١).

وقال قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما: "هذه السورة عَلَمٌ وحَدٌّ حَدَّه الله لنبيه ﷺ، ونَعَى له نفسه، أي: أنك لن تعيش بعدها إلا قليلًا"(٢).

٢- تتابع الوحي عليه في العام الذي قُبِض فيه(٣).

٣- عَرَضَ جبريلُ القرآنَ عليه مرتين في آخر رمضان صامه ﷺ(٤).

٤- اعتكافه ﷺ عشرين ليلة من رمضان في العام الذي قُبِض فيه(٥).

٥- تخييره ﷺ بين الخُلْدِ في الدنيا ثم الجنة، وبين لقاء الله، كما في حديث أبي مُوَيْهِبَة(٦).

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٧)، وقد وافقه عمر رضي الله عنه على ذلك فقال: «ما أعلم منها إلا ما تعلم».
(٢) «جامع البيان» لابن جرير (٣٠/ ٣٣٥).
(٣) رواه البخاري (٤٩٨٢).
(٤) رواه البخاري (٤٩٩٨).
(٥) رواه البخاري (٢٠٤٤).
(٦) رواه أحمد (٣١٥٩٩٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٦٢- ١٦٣).

وقد أخبر رسولُ الله ﷺ أصحابه بذلك تعريضًا في آخِر خطبة خطبها حين اشْتَدَّ به المَرَضُ ففهمها الصِّدِّيق رضي الله عنه وبَكَى[1].

مَرَضُ النَّبيِّ ﷺ:

بعد عودته ﷺ من الحج بقي في المدينة النَّبوية شهري: محرم وصفر، وفي أواخر صفر وأوائل شهر ربيع الأول ابتدأ به المرض بعد أن زار البَقِيع مع مولاه أبي مُوَيْهِبَة، وسَلَّم عليهم ودعا لمَن دُفِن فيه من المسلمين؛ واستغفر لهم.

وقد مَرَّ مَرَضُ النَّبيِّ ﷺ بمراحل مختلفة؛ بدأ بالصداع في بيت عائشة، ثم اشتد عليه المرض في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه في أن يمرض في بيت عائشة، فبقي في بيتها حتى وفاته ﷺ، وكان في أول الأمر يخرج إلى المسجد فيصلي بالصحابة، وقد خطب بهم خطبة أَوْصَى فيها ببعض الوصايا، ثم لما عَجَز عن الخروج استخلف أبا بكر على الصلاة[2].

وكان من أسباب مرضه: أثر السُّمِّ مِن الشاة التي قَدَّمتها له امرأة من يهود خَيْبَر، وقد اعترفت بذلك هي وقومها، فقال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[3]، وقالت هي: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذلك[4]، فلم يقتله السم في وقت تناوله كما قَتَل بِشْر بن البَرَاء الأنصاري[5]؛ ليكون دليلاً من دلائل

(١) رواه البخاري (٤٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) «الأيام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ» لعادل حسن (ص ٢٧).
(٣) رواه البخاري (٣١٦٩).
(٤) رواه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠)
(٥) رواه أبو داود (٤٥١١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

نبوته، ولكن اليهود لم ينتفعوا بذلك فلم يُسْلِمُوا وقد رأوا الآية والبرهان على نبوته، غير أن أثرَ السُّمِّ بَقِي معه، فقال لعائشة في مرضه الذي مات فيه: «يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»[1]، فأراد الله ﷻ أن يجمع له بين النبوة والشهادة مبالغة في الترفيع والكرامة، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يُقْسِم على أن النَّبيَّ ﷺ مات شهيدًا[2].

خُطْبَةُ النَّبيِّ ﷺ الأخيرة (سببها ومضمونها):

قد حَزِن الأنصارُ ﷺ لمرض رسولِ الله ﷺ فمَرَّ بهم العباس وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النَّبيِّ ﷺ منا، فدخل العباس على رسول الله فأخبره بذلك، فقال النَّبيُّ ﷺ: «صُبُّوا عليَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ مِنْ سَبْعِ آبَارٍ شَتَّى، حتى أخرجَ إلى الناسِ فأعهد إليهم»، فَصَبُّوا عليه فَوَجَد راحة فخرج -وذلك قبل أن يموت بخمس- عَاصِبًا رأسه بخِرْقَة حتى أهوى إلى المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء من أصحاب أُحُد ودعا لهم.

ثم قال: «أيها الناس ثوبوا[3] إليَّ، فَثَابوا إليه ثم قال: أما بعد، أوصيكم بالأنصار خيرًا فإنهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي[4]، فأَكْرِموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم؛ إلا في حَدٍّ[5]، وإن عبدًا خَيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فلم يفطن لها

(١) رواه البخاري تعليقًا (٤٤٢٨).
(٢) رواه أحمد (٣٨٧٣)، وصحح إسناده الشيخ «أحمد شاكر» في تحقيقه للمسند.
(٣) ثوبوا إلي: اجتمعوا واقتربوا حتى يسمعوا ما يقول.
(٤) كَرِشِي وَعَيْبَتِي: خاصتي وموضع سري.
(٥) رواه البخاري (٣٧٩٩)، ومسلم (٢٥١٠).

أَحَدٌ غير أبي بكر فبكى، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، يقول أبو سعيد الخدري: فعجبنا له وقلنا: ما لهذا الشيخ يبكي؟! فكان رسولُ الله هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا، وقال رسول الله: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»(١).

«إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ(٢)، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا وَتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(٣).

«أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(٤).

هذه الخطبة خَطَبَها النَّبيُّ ﷺ وهو متألم متوجع، ولم يمنعه المرض أن يقول ما أمر الله به أن يبلِّغه لأمته، وفي هذا دليل على عظيم شفقته على الأمة؛ ولذلك فإنها بحاجة إلى دراسة وتأمل واهتمام بما تضمنته، مثل: الوصية بالأنصار، وبيان فضائل أبي بكر وأنه أعلم الصحابة، وفيها تبشير الأمة بحوضه الشريف، وأن موعدهم معه الورود على الحوض، وبيان سعته، وشهادته على الأمة.

(١) رواه البخاري (٣٦٥٤)

(٢) فَرَط: متقدم وسابق إلى الحوض.

(٣) رواه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦).

(٤) رواه مسلم (٥٣٢)، وانظر نص الخطبة وتخريجها في كتاب: «الأيام الأخيرة من حياة رسول الله - ﷺ» (ص ٤٣ - ٧٥).

وفيها: التحذير من الدنيا والتنافس فيها، والاقتتال عليها، وكذا التحذير من طرائق اليهود والنصارى، واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، والنهي الصريح عن ذلك.

آخر وصايا النَّبيِّ ﷺ:

من رحمة النَّبيِّ ﷺ بأمته وخشيته عليهم من الشهوات والشبهات، ونصحه لهم؛ أنه أوصاهم بجملةٍ من الوصايا في أيام مرضه، وكرَّر بعضها أكثر من مرة، وهو في تلك الحالة، وأكَّد عليها قبل موته؛ مما يوجب العناية بها، فمِن تلك الوصايا:

١- الوصية بالأنصار رضي الله عنهم وإكرام كريمهم، والتجاوز عن مسيئهم؛ إلا في حدود الله.

٢- الوصية بإخراج المشركين من جزيرة العرب.

٣- الوصية بالصلاة، وبملك اليمين مِن العبيد والخَدَم وما شابههم من الضعفاء.

٤- إحسان الظن بالله، قال ﷺ قبل موته بثلاثة أيام: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحْسِن الظنَّ بالله عز وجل»[(١)]، وفائدة حسن الظن بالله عند الممات بيَّنها النَّبيُّ ﷺ بقوله: «يُبْعَث كلُّ عَبْدٍ على ما مات عليه»[(٢)].

٥- التحذير من التنافس في الدنيا والاقتتال عليها، فإن ذلك من أسباب الهلاك.

٦- أوصى أن يصلي بالناس أبو بكر، فراجعته عائشة رضي الله عنها وقالت: "إن أبا بكر رَجُل رَقِيق متى يقم مقامك لا يستطيع يصلي بالناس"، فقال ﷺ:

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨).

«إنكن صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»؛ فصار أبو بكر يصلي بهم.

وفي فجر يوم الاثنين الذي تُوفِّي فيه رسولُ الله ﷺ كشف ستر الحجرة ونظر إليهم وهم صفوف خلف أبي بكر، فتبسم يضحك، فهَمَّ الصحابةُ أن يفتتنوا من الفَرَح برؤية النَّبيِّ ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النَّبيَّ ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار النَّبيُّ أن أتموا صلاتكم وأَرْخَى السِّتْر[1]، فتُوفِّي مِن يومه، وفي لفظ: "فلم يُقْدَر عليه حتى مات".

وقد أعتق ﷺ قبل وفاته غلمانه وتَصَدَّق بمال كان عنده، وجاءته ابنتُه فاطمةُ في يوم وفاته فحدَّثها سِرًّا فَبَكَت، ثم حدَّثَها فضحكت، وعند سؤالها بعد ذلك قالت: "إنه أخبرها أنه يقبض من وجعه فبكت، ثم أخبرها أنها أول أهله لحاقًا به فضحكت"[2].

(١) رواه البخاري (٤٤٤٨).
(٢) رواه البخاري (٤٤٣٣، ٤٤٣٤).

اللحظات الأخيرة:

لما أخذه ﷺ غَشِيُّ الموت كان بجواره إناءٌ فيه ماء، فكان يدخل يديه في الماء ويمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سَكَرَات»[(١)].

ثم ثَقُل واشتدَّ وجعه حتى لم يستطع النطق، فدخل عليه أسامة ابن زيد ﷺ فكان يدعو له بالإشارة[(٢)].

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك فنظر إليه، فأخذته عائشة وأصلحته فاستاك به، ثم رفع يده وبصره وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه. فكان يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»، فكان آخر ما قاله: «اللهم بالرفيق الأعلى» ثلاثًا[(٣)].

ووصل الخبرُ إلى الصحابة بالمسجد وفيهم عمر بن الخطاب، فكان ذلك صدمة شديدة تأبى النفوسُ المُحِبَّة أن تُصَدِّقها؛ ولذا وقف ﷺ يقول: "إن رسولَ الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يعيش رسولُ الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون -أو قال يقولون- إن رسول الله ﷺ قد مات"[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٩).
(٢) رواه البخاري (٤٤٣٦).
(٣) رواه البخاري (٤٤٣٨، ٤٤٤٠).
(٤) رواه أحمد (١٣٠٢٨)، وابن سعد (٢/ ٢٩٦)، وعبد الرزاق في «المُصَنَّف» (٥/ ٤٣٣-٤٣٤) بإسنادٍ صحيحٍ.

وكان أبو بكر ﷺ قد خَرَجَ من بعد صلاة الفجر إلى زوجته حَبِيبَة بنت خَارِجَة بن زَيْد الأنصاري في ضَاحِية السُّنْح، ووصله الخبرُ بوفاة النَّبيِّ ﷺ ضُحَى، فأسرع إلى المدينة ودخل على النَّبيِّ ﷺ فكشف عن وجهه وقبَّله وبكى ثم قال: "بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد مِتَّهَا"(١)،

ثم خَرَجَ إلى الناس في المسجد وهم بين مُنْكِر ومُصَدِّق؛ لهول وعظَم المصيبة، ورأى عمر يتحدث فطلب منه أن يجلس فأبى، فبدأ أبو بكر بالحديث فالتفت الناس إليه. فقال:

أما بعد: "مَن كان منكم يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومَن كان منكم يعبد الله، فإن الله حَيٌّ لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فهدأ الناس وكأنهم لم يسمعوا الآيةَ مِن قَبْل مِن هَوْل الفَاجِعَة.

قال عمر: "والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها، تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حتى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، أن النَّبيَّ ﷺ قد مات"(٢).

وكانت وفاته يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من هجرته ﷺ، وعمره ثلاث وستون سنة، وفي يوم الثلاثاء اجتمع أهله لغسله، ومنهم: العباس، وعلي بن أبي طالب،

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣).
(٢) رواه البخاري (٤٤٥٤).

وَالْفَضْلُ وَقُثَمُ ابنا العباس، وشَقْرَان مَوْلَى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأشركوا معهم أَوْس بن خَوْلِى الأنصاري لخبرته. وغَسَّلُوه في ثيابه، وكفنوه في ثِيَاب بيض ثلاث سُحُولِيَّة مِن قطن، ليس فيها قميص ولا عمامة.

وعندما أرادوا حفر قبره، أرسل العباس إلى أبي طلحة الأنصاري، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وكان أبو عبيدة يَضْرَحُ لأهل مكة، وأبو طلحة يَلْحَد لأهل المدينة، وقال العباس: "اللهم خِر لرسولك"، فجاء أبو طلحة فلحَد لرسول الله ﷺ، وتشاوروا: أين يُدْفَن؟ فقال أبو بكر: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «لم يُقْبَرْ نبيٌّ إلا حيث يموت»[1] فأخَّروا فراشه وحفروا تحته، وصلَّى الناس عليه أرسالًا، يدخل قوم فيصلون ثم يخرجون ولا يؤمهم أحدٌ. ثم دفن ﷺ وتولَّى إنزاله في قبره: علي، والفضل، وقُثَم، وشَقْرَان، وأَوْس بن خَوْلِى[2].

هل أوصى رسول الله ﷺ بالخلافة لأحدٍ؟

لم يستخلف ﷺ بعده أحدًا بعينه، ولم يوصِ إلى أحدٍ بعينه، فقد روى البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "إن أستخلف فقد استخلف مَن هو خير مني -يعني أبا بكر-، وإن أترك فقد ترك مَن هو خير مني -يعني رسول الله ﷺ-"[3].

وروى البيهقي أن عليًّا رضي الله عنه قال يوم الجمل: "إن رسول الله ﷺ لم يعهد إلينا في هذه الإمارة شيئًا، حتى رأينا مِن الرأى أن نستخلف أبا

(١) رواه أحمد في المسند (٢٧)، وصححه الألباني.
(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (١٢/ ٣٣٦).
(٣) رواه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

بكـر فأقـام واسـتقام حتـى مضـى لسـبيله، ثـم إن أبـا بكـر رأى أن يسـتخلف عمـر فأقـام واسـتقام حتـى ضـرب الديِّـن بِجِرَانِـهِ"[1].

فهـذه النصـوص -وغيرهـا-: تـدل علـى أنـه لـم يعهـد لأحـدٍ بالخلافـة بعـده ﷺ، لكنـه أشـار إلـى اسـتخلاف أبـي بكـر إشـارات مفهمـة، منهـا:

١- أمره أن يصلي بالناس إمامًا.

٢- سد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر.

٣- قولـه للمـرأة التـي سـألته فقـال: تعوديـن. فقالـت: إن لـم أجـدك. فقـال: ائـتِ أبـا بكـر.

٤- قولـه لعائشـة فـي مـرض موتـه: «لَقَـدْ هَمَمْـتُ أَنْ أُرْسِـلَ إِلَـى أَبِـي بَكْـرٍ وَابْنِـهِ وَأَعْهَـدَ، أَنْ يَقُـولَ القَائِلُـونَ -أَوْ يَتَمَنَّـى المُتَمَنُّـونَ- ثُـمَّ قُلْـتُ: يَدْفَـعُ اللهُ وَيَأْبَـى المُؤْمِنُـونَ»[2].

اجتماع الأنصار في سَقِيفَة بني سَاعِدَة:

اجتمـع الأنصـارُ فـي سَـقِيفَة بنـي سَـاعِدَة، ودار بينهـم الحـوار والمشـاورة حـول مَـن يخلـف نبـي الله ﷺ، وعَلِـم بذلـك أبـو بكـر وعمـر فسـارعا إليهـم، وفـي الطريـق قابلهـم أبـو عُبَيْـدة فتوجـه معهم إلـى السَّـقِيفَة، وقبـل وصولهـم لقيهـم رجـلان صالحـان مـن الأنصـار، فسـألاهم: إلـى أيـن؟ فقالـوا: إلـى إخواننـا مـن الأنصـار، فقـالا: اقضـوا أمركـم يـا معشـر المهاجريـن لا يختلـف عليكـم اثنـان، ثـم كان الحـوار فـي السـقيفة والـذي تحـدث فيـه أبـو بكـر ووضَّـح فضـل الأنصـار ومكانتهـم وبيَّـن أحقيـة قريش لهـذا الأمـر بقولـه: «إن رسـول الله قـال: الأئمـة مـن قريـش»، وذَكَّـر سـعد

(١) دلائل النبوة (٧/ ٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٧٢١٧)، ومسلم (٢٣٨٧).

ابـن عبـادة بذلـك فذكـر[١].

وتمـت البَيْعَـةُ فـي السـقيفة بتوفيـق الله للمؤمنيـن فـي اختيـار الصديـق، وفـي اليـوم التالـي بايعـه النـاس فـي المسـجد ممَّـن لـم يبايـع يـوم الاثنيـن، وبايـع علـي بـن أبـي طالـب، والزُّبَيْـر بـن العـوام، ولـم يتخلـف أحـدٌ مِـن المهاجريـن والأنصـار[٢].

وبعـد انتشـار خبـر وفـاة المصطفـى ﷺ ارتـدت قبائـل مـن العـرب، واجتمـع الصحابـة بزعامـة أبـي بكـر، وجَـرَت المشـاورة بينهـم، فـرأى بعضهـم أن لا يسـير جيـش أسـامة؛ خوفًـا مِـن هَتْـك حُرْمَـة المدينـة، ولكـن الصِّدِّيـق أصَـرَّ علـى بَعْثِـهِ، وقـال قولتـه المشـهورة: «لا أَحُـلُّ رايـةً عَقَدَهـا رسـولُ الله ﷺ»[٣].

(١) الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد (٢٣/ ٦٢)، وصححه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم: (١١٥٦).
(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ١٤٣).
(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤).

صِفَات الرسول ﷺ الخَلْقية وأخلاقه وشمائله:

تَقَدَّم في الحديث عن الهجرة النَّبوية ذِكْر وصفِ أمِّ مَعْبَد لرسولِ الله ﷺ وما فيه مِن الدِّقَّة في الوَصْف، ونذكر هنا بعض الأحاديث الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم الذين وَصَفُوا رسولَ الله ﷺ.

قال الإمام البخاري: باب صفة النَّبيِّ ﷺ ثم ساق حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه في وصف النَّبيِّ ﷺ، وقال: «كَانَ رَبْعَةً مِنَ القَوْمِ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالقَصِيرِ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ لَيْسَ بِأَبْيَضَ، أَمْهَقَ وَلَا آدَمَ، لَيْسَ بِجَعْدٍ قَطَطٍ، وَلَا سَبْطٍ رَجِلٍ... » الحديث[1].

ومن حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خَلْقًا، ليس بالطويل البَائِن، ولا بالقصير»[2].

وعنه أيضًا قال: «كان مربوعًا بَعيدَ ما بين المنكبين، له شعر يبلغُ شحمة أُذُنه، رأيته في حُلَّة حَمْرَاء، لم أرَ شيئًا قطّ أحسن منه، وجهه مثل القمر»[3].

ومن حديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمر، وكنا نعرف ذلك منه»[4].

وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «ما مسست حريرًا ولا دِيبَاجًا ألين من كفَّ النَّبيِّ ﷺ، ولا شممتُ ريحًا قط أو عَرقًا قط أطيبَ من ريح أو عَرقِ النَّبيِّ ﷺ»[5].

(١) رواه البخاري (٣٥٤٧، ٣٥٤٨).
(٢) رواه البخاري (٣٥٤٩).
(٣) رواه البخاري (٣٥٥١، ٣٥٥٢).
(٤) رواه البخاري (٣٥٥٦).
(٥) رواه البخاري (٣٥٦١).

وهـذه الأوصـاف التـي ذكرهـا أصحابـه ﷺ تجتمـع كلهـا فـي كمـال الهيئـة وجمـال الصـورة وغايـة الحسـن الـذي وهبـه الله لرسـوله ﷺ.

أما أخلاقه:

فإن رسولَ الله ﷺ أفضل الخلق وأكملهم، وهو قدوة المسلمين، وقد اتَّصَفَ بجميع صفات الكمال البشري، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ولَخَّصَتْ أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها خُلُقَه بقولها: «كان خلقه القرآن».

ومِن أخلاقه ﷺ: الصدق، حيث لم يكن يُتَّهَم بخلافه حتى عند مَن يعاديه، وكان مِثَالًا للأمانة حتى لُقِّب: «بالصادق الأمين» مِن قَبْل النُّبُوَّة والرِّسَالَة، وكانت قريش تضع أموالها عنده.

وكان ﷺ مثالًا للحِلْم والصَّبْر، فمع كل الأذى الذي لحقه منهم؛ إلا أنه قال: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»(١).

وكان ﷺ حييًّا أشد حياءً مِن العَذْرَاء في خِدْرِها(٢).

ولم يَنْتَقِم ﷺ لنفسه، ولم يغضب لها؛ إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى، وإذا غَضِب لله لم يَقُم لغضبه أحدٌ، وما خُيِّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه(٣)، وما عاب ﷺ طعامًا قط؛ إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه(٤).

وكان لا يأكل متكئًا(٥).

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «خرج ﷺ مِن الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، هو وأهل بيته»(٦).

(١) رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٢)، ومسلم (٢٣٢٠).
(٣) رواه البخاري (٣٥٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٤) رواه البخاري (٥٤٠٩)، ومسلم (٢٠٦٤).
(٥) رواه البخاري (٥٣٩٨).
(٦) رواه البخاري (٥٤١٤).

وكان يأتي عليه الشهر والشهران لا يُوقَد في بيتٍ مِن بُيُوته نَارٌ؛ كان قوتهم الماء والتَّمْر، قالت عائشة ﵂: «إلا أن حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون بشياههم، فنصيب من ذلك اللَّبَن»[(١)]. وكان ﷺ يَخْصِف النَّعْل، ويُرَقِّع الثَّوْب، ويخدم في مهنة أهله[(٢)].

وكان ﷺ يجيب مَن دعاه مِن غني أو فقير، ويحب المساكين، ويشهد جنائزهم، ويعود مرضاهم.

ولا يحقر فقيرًا لفقره، ولا يهاب مَلِكًا لملكه، يركب الفرس، والبعير، والبغلة، والحمار، ويردف خلفه عبده أو غيره، وكان ﷺ لا يدع أحدًا يمشي خلفه.

وكان أحب اللباس إليه الحبرة[(٣)]، ويحب البياض مِن الثياب، وأحب الطعام إليه الحلو البارد. وأصابه في الخندق جهد فعصب على بطنه حَجَرًا مِن الجوع مع ما آتاه الله من خزائن الأرض.

وكان ﷺ يُكْثِر الذِّكر، ويُقِلُّ اللغو، ويُطيل الصلاة، ويُقَصِّر الخطبة، ويحب الطيب، ويكره الرائحة الكريهة.

يألف أهل الشَّرَف، ويكرم أهل الفضل، ولا يطوي بِشْرَه عن أحدٍ، ولا يجفو عنه، يرى اللعب المباح فلا ينكره، يمزح ولا يقول إلا حقًّا، يقبل معذرة المعتذِر إليه.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢). وانظر: «كتاب الإشارة إلى سيرة المصطفى» للعلامة مغلطاي (ص ٤١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٧٦).

(٣) رواه البخاري (٣٥٦١)، مسلم (٢٣٣٠).

خصائصه ﷺ:

أفاض الله ﷻ على رسوله ﷺ بخصائص، وأكرمه بإكرامات جليلة، ومن ذلك: أنه خاتم النَّبيِّين، وسيد المرسلين، وأمته أفضل الأمم، وهي معصومة من الإجماع على ضلالة، وأصحابه خير القرون، وشريعته مؤبدة، وناسخة لجميع الشرائع.

نُصِرَ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلَّت له الغنائم، وأعطي الشفاعة، والمقام المحمود، وأُرْسِل إلى الناس كافة، وهو سيد ولد آدم، وأول مَن تنشق الأرض عنه، وأول شافع، وأول مشفع، وأول مَن يقرع باب الجنة، وأكثر الناس تبعًا، وأُعطي جوامع الكلم، وكان لا ينام قلبه وتنام عيناه.

ومَن رآه في المنام فقد رآه حقًّا، فإن الشيطان لا يستطيع أن يتمثَّل به.

وإنَّ كَذِبًا عليه ليس ككذبٍ على غيره[1]، فمَن كَذَبَ عليه متعمِّدًا؛ فقد كَفَرَ، وأن الاستهزاء به كفرٌ يُوجِب القتل، وأن العبد لا يؤمن حتى يكون رسولُ الله ﷺ أحبَّ إليه مِن والده وولده والناس أجمعين، بل ومِن نفسه التي بين جنبيه.

(١) انظر: «كتاب الإشارة إلى سيرة المصطفى» للعلامة مغلطاي (ص ٤٥٦ - ٤٦١).

بيوته وأدواته ﷺ:

عندما سَكَنَ ﷺ المدينةَ بنى المسجد ثم بني حجرتين في طرف المسجد؛ واحدة لعائشة، والأخرى لسودة، وكان كلما تزوَّج امرأة بنى حجرة، وحُجَرُه في شَرْق المسجد على يسار المصلي إلى الكعبة، وهي مبنية من اللَّبِن، وسقفها مِن جذوع النخل والجريد، وأثاثه بسيط. ومن أثاثه: قَدَح مَضَبَّب في ثلاثة مواضع، وقَدَح من عِيدَان، وتَوْر من حجارة لغسل الملابس، وقصعة، وجفنة لها أربع حلق. وكان له سرير قوائمه من خشب السَّاج، وفراش جِلْد حَشوُه ليف، وكساء أسود، وآخر من شَعْرٍ[1].

(١) المصدر نفسه (ص ٣٩٥ - ٤٠١).

زوجاته ﷺ الطاهرات رضي الله عنهن:

أباح الله لرسوله ﷺ الجمعَ بين أكثر من أربع زوجات، وتحرُم زوجاته على غَيْرِهِ، بل هُنَّ أمهات المؤمنين، وهذا مِن خصائصه. وقد تَزَوَّج ﷺ إحدى عشرة امرأة؛ سِتًّا من قريش، ومات عن تسع، وتسَرَّى بمارية القِبْطِيَّة فَوَلَدَتْ له إبراهيم.

١- خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية رضي الله عنها:

تزوجها بمكة وعمره خمس وعشرون سنة، وعمرها أربعون سنة، وكانت قد تزوجت برجلين قبله، ورزقه الله منها الولد، وأسلمت منذ بدأ دعوته، وبَلَّغ جبريلُ السَّلَام لها من الباري -جلَّ وعلا-، وبَشَّرها ببيتٍ في الجنة. وماتت بمكة في السنة العاشرة من البعثة، وبقي ﷺ وفيًّا لها بعد وفاتها.

٢- سَودة بنت زَمْعة القرشية، العامرية رضي الله عنها:

كانت تحت ابن عمها السَّكْرَان بن عمرو، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة، وعندما مات عنها زوجها ذكرتها خَوْلَة بنت حَكِيم لرسولِ الله ﷺ، وكان ذلك بعد وفاة خديجة، فتزوجها بمكة، وعُمِّرت رضي الله عنها حيث كانت وفاتها بالمدينة النَّبوية في شوال سنة أربع وخمسين في خلافة معاوية رضي الله عنه، ولما كبر سِنُّها وَهَبَتْ يومها لعائشة رضي الله عنها.

٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية رضي الله عنهما:

تزوجها بمكة، وبَنَى بها بالمدينة، وهي ابنة تسع سنين، ولم يتزوج بِكْرًا غيرها، وكانت من أحب الناس إليه، وابتلاها الله برمي

المنافقين لها بالإفك، وبرأها الله من فوق سبع سماوات، وهي من أعلم النساء، رَوَت حديثًا كثيرًا عن رسولِ الله ﷺ، ومسندها عند أحمد ٢٤٠٩ أحاديث، وكانت وفاتها بالمدينة النَّبوية في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين.

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية رضي الله عنهما:

تزوجت خُنيس بن حُذافة السهمي، وهاجرت معه إلى المدينة، وشهد بدرًا وأُحدًا فأصيب في الأخيرة ومات من جراحته، فعرضها عمرُ على أبي بكر، وعلى عثمان، ثم تزوَّجها رسول الله ﷺ، روت عن رسول الله أحاديث، وكانت عندها صحف القرآن التي نسخت منها المصاحف، وكانت وفاتها بالمدينة النَّبوية في شعبان سنة خمس وأربعين.

٥- زينب بنت خُزيمة الهلالية من هوازن رضي الله عنها:

تزوجها الطُفيل بن الحارث بن عبد المطلب فطلقها، ثم تزوجها أخوه عبيدة بن الحارث، فجرح ببدر جراحة مات منها، فتزوجها عبد الله بن جَحْش الذي استشهد في أُحُد، ثم تزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها أربعمائة درهم. وماتت في حياة النَّبيِّ ﷺ بعد أشهر من زواجها به، فصلى عليها ودفنها في البقيع سنة ثلاث من الهجرة.

٦- أم سلمة هندُ بنت أبي أمية القرشية المخزومية رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أمية المعروف بـ «زاد الراكب»، تزوجها ابن عمها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم حاولت الهجرة برفقته إلى المدينة فمنعها أهلها، ونزع أهل أبي سلمة ابنها سلمة منها حتى خلعوا كتفه، فبقيت سنة تخرج تبكي في

طريق المدينة حتى شفع فيها أحد الرجال، فلحقت بزوجها، وفي غزوة أُحُد أصيب زوجها بإصابة شديدة مات بعدها بشهور، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها مع وجود أيتام لديها وغَيْرة فيها، وكانت امرأة عاقلة حكيمة، ورَوَت حديثًا كثيرًا عن رسول الله ﷺ، وكانت وفاتها بالمدنية النَّبوية في ذي القعدة سنة تسع وخمسين، وهي آخر زوجات النَّبيِّ ﷺ وفاة.

٧- زينب بنت جَحْش من بني أسد بن خزيمة رضي الله عنها:

هي أخت عبد الله بن جحش، وأمها: أميمة بنت عبد المطلب، زَوَّجَها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، وعندما طلقها تزوجها ﷺ بأمر الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وتوفيت بالمدينة النَّبوية سنة عشرين، وهي أول زوجات النَّبيّ ﷺ وفاة بعده. وكانت تفاخر زوجات النَّبيّ ﷺ بقولها: زوجكن أهليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

٨- جُوَيْرِية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية رضي الله عنها:

هي ابنة زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضِرَار، وقعت بعد نهاية غزوة بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شَمَّاس فكاتبته على نفسها، وجاءت النَّبيَّ ﷺ تستعينه على ذلك، فقال لها: «فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: نعم يا رسول الله. قال: قد قبلت».

وعندما علم الناس بذلك أطلقوا مَن معهم مِن الأسرى؛ ولذا قالت عائشة: «ما رأيتُ امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها»،

وتوفيت بالمدينة النَّبوية سنة ست وخمسين في خلافة معاوية ﷺ.

٩- أم حبيبة رَمْلةُ بنت أبي سفيان القرشية الأموية ﷺ:

كانت تحت عبيد الله بن جحش فهاجر معها إلى الحبشة فَتَنَصَّر زوجُها فصبرت، فكتب ﷺ إلى النجاشي ليزوجه إياها، ففرحت فرحًا شديدًا، وأمهرها أربعة آلاف درهم وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة، وذلك سنة ست من الهجرة، وكانت وفاتها بالمدينة النَّبوية سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

١٠- صفيةُ بنت حُيي بن أخطب النضرية الإسرائيلية ﷺ:

كانت تحت سَلَّام بن مِشْكم فطلقها، وتزوجها كِنَانَة بن أبي الحُقَيْق فَقُتِل يوم خَيْبَر، وسُبِيَتْ ضمن سَبْي خَيْبَر، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فخيَّرها بين عتقها وزواجه بها، أو عتقها وتلحق بأهلها، فاختارت العتق وزواج الرسول ﷺ بها، وهي من سلالة الأنبياء هارون وموسى عليهما السلام، وكانت وفاتها بالمدينة النَّبوية سنة اثنتين وخمسين ودفنت بالبقيع.

١١- ميمونةُ بنت الحارث الهلالية من هوازن ﷺ:

كانت عند مسعود بن عمرو الثَّقَفِي، ففارقه فتزوجها أبو رُهْم بن عبد العُزَّى، فمات عنها، فخطبها النَّبيُّ ﷺ، وكانت قد جعلت أمرها إلى أختها لُبَابَة زوج العباس بن عبد المطلب ووكَّلَت لُبَابةُ زوجَها العباسَ، وهو الذي زوجها رسول الله ﷺ، وكان ذلك بمكة أثناء عمرة القضاء في السنة السابعة، لكن قريشًا أعجلته فخرج ﷺ إلى وادي سَرِف (حي النوارية اليوم) فأقام، ودخل بزوجته، وماتت ميمونة ﷺ

في نفس المكان بعد رجوعها من الحج سنة إحدى وخمسين. وقيل: تسع وأربعين، وقبرها في وادي سَرِف معلوم، وهي أخت لبابة الكبرى أم عبد الله بن عباس، وأخت لبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وأخت لأسماء بنت عميس الخثعمية لأمها.

١٢- مارِية القبطية المصرية رضي الله عنها:

كانت مِن قرية أَنْصِنَا بصعيد مصر، أرسلها مُقَوقس مصر مع أختها سيرين، وهدايا أخرى إلى النَّبيِّ ﷺ، منها: عَبْدُ، وألف مثقال ذهب، وعسل وعشرون ثوبًا، وبغلة تُسَمَّى: «الشهباء»، وحمار يُسَمَّى: «عفير».

وقد تَسَرَّى النَّبيُّ ﷺ بمارية. وولدت له ابنه إبراهيم، ومات وهو صغير بعد ثمانية عشر شهرًا، وكانت وفاتها بالمدينة النَّبوية في محرم سنة ست عشرة من الهجرة في خلافة عمر، ودُفِنَت بالبقيع.

الحكمة من تعدد زوجات النَّبيِّ ﷺ:

ذكر أهل العلم الحكمة مِن تعدد زوجات النَّبيِّ ﷺ[1]، نذكر بعضها:

١- كان ﷺ يكثر التزوج؛ لمصلحة تبليغ الأحكام الشرعية التي لا يطَّلِع عليها الرجال.

٢- أن يكثر مَن يشاهد أحوال النَّبيِّ ﷺ الباطنة فينتفي عنه ما يظن به المشركون مِن أنه ساحر أو كاهن.

٣- لتتشرف قبائل العرب بمصاهرته فيهم مما يدعوهم إلى الإسلام.

٤- الاطلاع على محاسن أخلاق النَّبيِّ ﷺ الباطنة.

٥- كثرة النكاح صفة مدح عند العرب؛ لدلالته على كمال الرجولة، ومع هذا لم يشغله ذلك عن عبادة ربه ﷻ.

٦- الرحمة والعطف على مَن وقعت لها مصيبة كوفاة زوج، أو وقوع في الأسر، فجبر ﷺ مصيبتها، وأكرمها بأن كانت من أمهات المؤمنين.

٧- تقرير الحكم الشرعي، واقتلاع العادات التي رسخت في قلوب الناس بإبطال التبني، بالتزوج مِن زوجة مَن كان ابنًا بالتبني قَبْل إبطال الله للتبني، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ... الآية﴾ [الأحزاب: ٤-٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ١١٥) وما بعدها.

مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والمراد: زيد بن حارثة، وقد كان النَّبيُّ ﷺ تَبَنَّاه قَبْل النبوة، وقد أمر الله رسولَه ﷺ كما في الآية بالزواج من مطلقته زينب بنت جحش، ليكون ذلك أبلغ في إبطال عادة التبني.

فهرس المصادر والمراجع

١- إبراهيم العلي، صحيح السيرة، دار النفائس، عمان، ط/ ٣، ١٤١٨ هـ.

٢- أكرم العمري، السيرة النَّبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط/ ١، ١٤١٢ هـ.

٣- البخاري، (محمَّد بن إسماعيل)، الجامع الصحيح، دار السلام بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

٤- بريك بن محمد أبو مايلة، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النَّبوية الشمالية، الجامعة الإسلامية، المدينة، ط/ ١٤٢٤، ١هـ.

٥- بريك بن محمد أبو مايلة، غزوة مؤتة والسرايا النَّبوية حول المدينة، دار ابن الجوزي، الدمام، ط/ ٢، ١٤١٧ هـ.

٦- البيهقي، (أحمد بن الحسين) دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤٠٥ هـ.

٧- الحاكم، (محمد بن عبد الله) المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨- الترمذي، (محمد بن عيسى)، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي بمصر.

٩- ابن حجر، (أحمد بن علي) فتح الباري، شرح صحيح

البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة.

١٠- ابن حنبل، (أحمد بن محمد الشيباني)، المسند، طبعة الرسالة، بيروت.

١١- أبو داود، (سليمان بن الأشعث) سنن أبي داود، محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.

١٢- الذهبي، (محمد بن أحمد)، السيرة النَّبوية، والمغازي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٣- زيد عبد الكريم الزيد، فقه السيرة، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٢٤ هـ.

١٤- ابن سعد، (محمد بن سعد بن منيع) الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

١٥- ابن سعدي، (عبد الرحمن بن ناصر) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١ هـ.

١٦- سليمان حمد العودة، السيرة النَّبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق (العهد المكي)، طبع جامعة الإمام، محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤١٤ هـ

١٧- السهيدي، (عبد الرحمن بن عبد الله)، الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

١٨- صالح الشامي، من معين السيرة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/ ١، ١٤٠٥ هـ.

١٩- الصالحي، (محمد بن يوسف) سبل الهدى والرشاد في سيرة

خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ ١، ١٤١٤ هـ.

٢٠- الطبري، (محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

٢١- عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة، دار مكة، مكة، ط/ ١، ١٤٠٢ هـ.

٢٢- علي الصلابي، السيرة النَّبوية، دار ابن كثير، بيروت، ط / ٣، ١٤٢٦ هـ.

٢٣- فاروق حمادة، مصادر السيرة وتقويمها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/ ٢، ١٤١٠ هـ.

٢٤- ابن القيم، (محمد بن أبي بكر)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط/ ١، بيروت.

٢٥- ابن كثير، (لإسماعيل بن عمر) تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمَّد إبراهيم البنا، دار الشعب بمصر.

٢٦- ابن كثير، (إسماعيل بن عمر القرشي)، البداية والنهاية، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط/ ١، ١٤٢٠ هـ.

٢٧- الفصول في سيرة الرسول، تحقيق محمد العيد الخطراوي، دار التراث، ط/ ٣، ١٤٠٢ هـ.

٢٨- ابن ماجه، (محمد بن يزيد) سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البابي الحلبي بمصر.

٢٩- محمد أمحزون، منهج النَّبيِّ ﷺ في الدعوة من خلال السيرة

النَّبوية، دار السلام، القاهرة، ط/ ٣، ٢٠٠٣.

٣٠- محمد الأمين الجكني، السيرة النَّبوية من فتح الباري، دار ابن حزم، بيروت، ط/ ١، ١٤٢٢ هـ.

٣١- محمد باقشيش، المغازي لموسى بن عقبة، جامعة ابن زهر، أغادير، المغرب، ط/ ١، ١٤١٧هـ.

٣٢- محمد حسن شراب، المعالم الأثرية في السنة والسيرة، دار القلم، دمشق، ط/ ١، ١٤١١ هـ.

٣٣- محمد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر، دمشق، ط/ ٨، ١٤٠٠ هـ.

٣٤- محمد أبو شهبة، السيرة النَّبوية في ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩ هـ.

٣٥- محمد عبد القادر أبو فارس، السيرة النَّبوية دراسة تحليلية، دار الفرقان، عمان، ط/ ١، ١٤١٨ هـ.

٣٦- محمد عواجي، مغازي الإمام الزهري، الجامعة الإسلامية، المدينة، ط/ ١، ١٤٢٥ هـ.

٣٧- محمد الغزالي، فقه السيرة، دار القلم، دمشق، ط/ ٣، ١٤٠٧ هـ.

٣٨- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٣٩- مغلطاي بن قليج، الإشارة إلى سيرة المصطفى ﷺ وتاريخ مَن بعده مِن الخلفا، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح. دار القلم، دمشق، ط/ ١، ١٤١٦ هـ.

٤٠- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل، الرياض، ط/ ١، ١٤١٦ هـ.

٤١- الندوي سليمان، الرسالة المحمدية، دار الفتح، دمشق، ط/ ٢، ١٣٨٣ هـ.

٤٢- النسائي، محمد بن عيسى، سنن النسائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ

٤٣- ابن هشام، (عبد الملك الحميري)، السيرة النَّبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٨ هـ.

٤٤- الهيثمي، (علي بن أبي بكر) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، ط ٣.

٤٥- الواقدي، (محمد بن عمر)، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.

٤٦- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت، د. ت ط.

٤٧- يوسف الوابل، أشراط الساعة، دار ابن الجوزي، الدمام، ط/ ١٠، ١٤١٩ هـ.

المقدمة	٣
التمهيد	٨
تعريف السيرة النَّبوية	٨
أَهْدَافُ ومَقَاصِد دِرَاسة السِّيرة النَّبويَّة	١٠
النطاق الزماني للسيرة النَّبوية	١٨
النطاق المكاني للسيرة النَّبوية	٢١
عَالَمِيَّةُ الرِّسَالةِ المُحَمَّدِيَّة	٢٣
مَصَادِر السِّيرَة	٢٥
أَقْسَام السِّيرَة النَّبويَّة	٣٣
فوائد معرفة الدلائل	٤١
ثمَرَات دِرَاسة السِّيرَة النَّبوية	٤٣
جُغَرَافِيَّة بِلَاد العَرَب	٥٨
مكانة مكة المشرفة وحرمتها	٦١
أصول العرب وقبائلهم	٦٨
شجرة نَسَب الرسول ﷺ إلى قُصَي	٧٠
أَحْوَال العَرَب قَبْل البَعْثَة النَّبَوِيَّة	٧٨
١- الأحوال السياسية	٧٨
٢- الأحوال الدينية	٧٩
٣- الأحوال الاجتماعية والأخلاقية	٨٢

دروس وعبر	٨٥
الفصل الأول الرسول ﷺ من مولده إلى بعثته	٨٦
نسبه ﷺ	٨٧
أسرته ﷺ	٨٨
دُرُوس وعِبَر	٩٣
مولده ورضاعه ﷺ	٩٤
حَادِثَةُ شَقِّ صَدْرِهِ ﷺ	٩٦
وَفَاةُ أُمِّهِ وَجَدِّه ﷺ	٩٧
كَفَالَةُ عمِّه أبي طالب	٩٧
دُروس وعِبَر	٩٩
حِفْظُ الله لرسولِه ﷺ من أَوْضَار الجَاهِلِيَّة	١٠١
مشاركاته ﷺ في الأعمال العامة	١٠٢
حياته ﷺ الخاصة	١٠٥
دُرُوس وعِبَر	١٠٦
إِرْهَاصَات النُّبُوَّة وبَشَائِر الخَيْر	١٠٨
الفصل الثاني الرسول ﷺ من البعثة إلي الهجرة	١١١
فَتْرَة الوَحْي	١١٦
الدعوة السرية	١١٧

الدعوة الجهرية	١١٩
ما لَقِيه النَّبيُّ ﷺ مِن أَذَى المشركين	١٢٢
شِدَّةُ طُغْيَان كُفَّار قريش	١٢٣
دُرُوس وعِبَر	١٢٧
الهجرة إلى الحبشة وأسبابها	١٢٨
إسلام حمزة رضي الله عنه	١٣٧
إسلام عمر رضي الله عنه	١٣٨
صحيفة المقاطعة	١٤٢
مَوْتُ خَدِيجَةَ بنتِ خُوَيْلِد زَوجِ النَّبيِّ ﷺ	١٤٧
دُرُوس وعِبَر	١٤٩
خُرُوجُ النَّبيِّ ﷺ إلى الطَّائِف	١٥٠
استماعُ الجنِّ لقِرَاءَة النَّبيِّ ﷺ	١٥٣
دُرُوس وعِبَر	١٥٥
الإسراءُ والمعراجُ	١٥٦
دُرُوس وعِبَر	١٦٠
انشقاقُ القمر	١٦٢
تعرضُه ﷺ للقبائل في المواسم	١٦٢
بَدْء إسلام الأنصار	١٦٤

بيعة العَقَبة الأولى	١٦٥
بيعة العَقَبة الثانية	١٦٧
دروس وعِبَر	١٧٤
الفصل الثالث الهجرة وترتيب أوضاع المدينة النَّبويَّة	١٧٦
الهجرة إلى المدينة النَّبوية	١٧٧
هجرة رسول الله ﷺ	١٧٨
في خيمة أمِّ مَعْبَد	١٨٢
دُرُوس وعِبَر	١٨٥
دخوله ﷺ المدينة	١٨٨
استقرارُه ﷺ بالمدينة	١٨٩
تنظيمُ المجتمع وبناء المؤسسات	١٩١
فكان مِن ذلك	١٩١
دُرُوس وعِبَر	١٩٨
أحداث السنة الأولى من الهجرة	٢٠٠
بعض التشريعات والأحداث في السَّنَة الثانية للهجرة	٢٠٤
دُرُوس وعِبَر	٢١٠
الفصل الرابع الدفاع النبوي (المرحلة الأولى)	٢١٢
السياسة النَّبَوِيَّة تجاه قريش	٢١٣
السَّرَايَا والغَزَوَات قبل غزوة بدر	٢١٧

أولًا السرايا الأولى	٢١٧
ثانيًا الغزوات	٢٢٠
دُرُوس وعِبَر	٢٢٣
غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى	٢٢٥
دُرُوس وعِبَر	٢٣٢
غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاع	٢٣٤
دُرُوس وعِبَر	٢٣٦
غَزْوَة أُحُد	٢٣٧
دُرُوس وعِبَر	٢٤١
مِن آثَار غَزْوَة أُحُد	٢٤٣
دُرُوس وعِبَر	٢٤٩
غزوة بني النَّضِير	٢٥١
دُرُوس وعِبَر	٢٥٢
غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ	٢٥٣
دُرُوس وعِبَر	٢٥٤
غَزْوَة بَدْر الصغرى	٢٥٥
دُرُوس وعِبَر	٢٥٦
غزوة بَنِي المُصْطَلِق	٢٥٧
دُرُوس وعِبَر	٢٦٠

غَزْوَةُ الأَحْزَاب (الخَنْدَق)	٢٦٣
غَزْوَة بَنِي قُرَيْظَة	٢٦٧
دُرُوس وعِبَر	٢٦٨
غَزْوَةُ بَنِي لَحْيَان	٢٧٠
غَزْوَةُ الغَابَة	٢٧١
صُلْحُ الحُدَيْبِيَة	٢٧٢
بَيْعَةُ الرِّضْوَان	٢٧٣
دُرُوس وعِبَر	٢٧٤
غَزْوَةُ خَيْبَرَ	٢٧٦
دُرُوس وعِبَر	٢٧٨
الفصل الخامس انتشار الإسلام ودخول الناس في دِينِ الله أَفْوَاجًا	٢٧٩
نشر الدعوة الإسلامية	٢٨٠
دُرُوس وعِبَر	٢٨٢
غَزْوَةُ مُؤْتَةَ	٢٨٣
دُرُوس وعِبَر	٢٨٦
فَتْحُ مَكَّة المُشَرَّفَة	٢٨٧
دُرُوس وعِبَر	٢٩٧
غَزْوَة حُنَيْن	٢٩٨
غَزْوَةُ الطَّائِف وحِصَارها	٣٠٣

دُرُوس وعِبَر	٣٠٩
غَزْوَة تَبُوك	٣١٠
الوصول إلى تَبُوك	٣١٥
بَعْثُ خَالِد إلى دُومَةِ الجَنْدَلِ	٣١٦
مَسْجِدُ الضِّرَار	٣١٨
استقبال المدينة لرسول الله ﷺ	٣١٨
دُرُوس وعِبَر	٣٢٣
عَامُ الوفُود	٣٢٤
نماذج من الوفود	٣٢٥
دُرُوس وعِبَر	٣٣٣
حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه	٣٣٤
حَجَّةُ الوَدَاع	٣٣٥
دُرُوس وعِبَر	٣٣٩
وفاة الرسول ﷺ ووصاياه وشمائله وخصائصه وزوجاته	٣٤٠
اللحظات الأخيرة	٣٤٦
هل أوصى رسول الله ﷺ بالخلافة لأحدٍ؟	٣٤٨
اجتماع الأنصار في سَقِيفَة بني سَاعِدَة	٣٤٩
صِفَات الرسول ﷺ الخَلْقية وأخلاقه وشمائله	٣٥١
أخلاقه	٣٥٣

خصائصه ﷺ	٣٥٥
بيوته وأدواته ﷺ	٣٥٦
زوجاته ﷺ الطاهرات رضي الله عنهن	٣٥٧
الحكمة من تعدد زوجات النَّبيِّ ﷺ	٣٦٢
فهرس المصادر والمراجع	٣٦٤

دورات الأئمة والخطباء